

مُنْيَرُ مُحَمَّدُ الْعَصْبَانُ

الْمُسَيْحُ الرَّحِيمُ السَّيِّدُ النَّبِيُّونَ

القسم الثالث

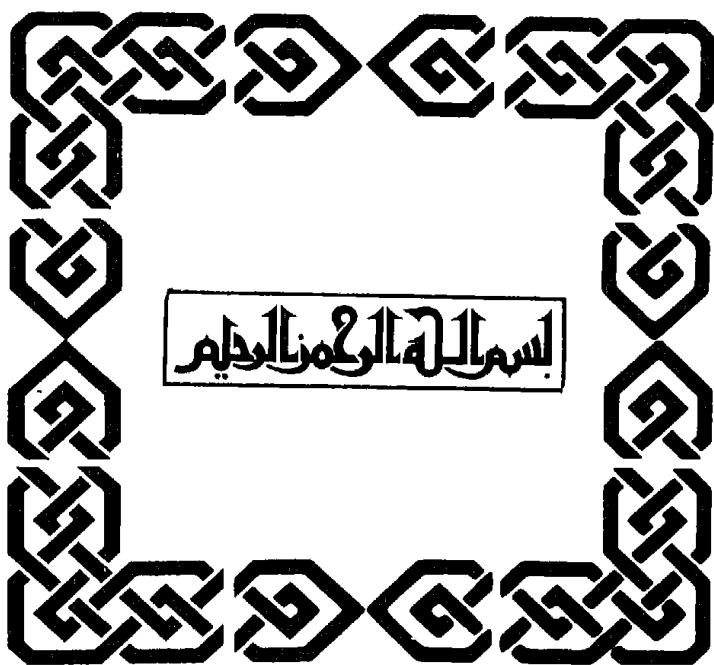
مكتبة المزار

المبحث الرابع للحركة السياسية

القسم الثالث

كافحة حقوق الطبع محفوظة

مكتبة المدار شارع الفاروق - بجانب جمعية الركز الإسلامي  
الأردن - الترقاء ت ٨٣٦٥٩ - صن. مب ٨٤٩



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

## تَهْيِد

### الْمَرْجَلَةُ الْثَّانِيَةُ : الْجَهَادُ السِّيَاسِيُّ وَإِنْصَارُ الرِّسَالَةِ

الخط العام الذي ينتظم هذه المرحلة هو الخط السياسي . لكن ضمن إطار القوة المكافحة . فتعاظم قوة المسلمين ، وتحولهم إلى شوكة مرهبة يخالب أثابع لقائد الدعاة محمد بن عبد الله الفرات . لعرض أفكاره ، وهيا النقوس للاستماع لها إذ أن الناس قلما يصلون إلى غير القوي . وكما نشهد اليوم الحرب الدعائية بين الدولتين القويتين في العالم إذ تقاسمان مناطق النفوذ ، وأن هذه الدول قلما تضطر لاستعمال قوتها العسكرية إلا تحت ضغط الظروف الطارئة . نجد تلك الصورة في ذلك الوقت .

صحيح أن غزوة الخندق لم تحقق نصراً قوياً للمسلمين . لكنها أكدت في الوقت ذاته أن المسلمين قوة لا تقهـر ، وفشل أضخم هجوم عربي على المدينة . يعني أن الكفة بدأت بالرجحان لصالح المسلمين . وجعل هذا الأمر عند المشركين يأساً قاتلاً من إمكانية الانتصار على محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وكان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص على أن يعمق هذا المعنى في صفوف المشركين . فراح يطاردهم في أعماق أرضهم ، وهو ينفذ القول الذي أعلنه :

«الآن نغزوهم ولا يغزونا»

وسنعرض للسمات المحددة لهذه المرحلة بالتفصيل :

### السَّمَةُ الْأُولَى : التَّحْديُ الْمَعْنَوِيُّ لِلْمُشْرِكِينَ

ولعل عرض المقريزي لغزوة بني حيان يوضح هذه السمة حيث كانت غزوة تحمل طابع حرب الأعصاب أكثر مما تحمل طابع الحرب النظامية . فلقد كانت قوة المسلمين فيها لا تعدو مائتي رجل معهم عشرون فارساً . وكانت المهمة بث الرعب في صفوف العدو ، والثار لأصحاب الرجيع ، خبيب وأصحابه الذين غدر بهم بنو حيان وقتلوهم ، وكان هذا الأمر قبل ستين من هذا الموعد .

أما الهدف الأول فقد تحقق حين فر بنو حيان وتنعوا في رؤوس الجبال ولم يجرؤوا على المواجهة ولكن لهذا الهدف آماداً أبعد وأعمق .

يقول عليه الصلا والسلام : « لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة(١) » وتحرك بقوته لعسفان ، ولم يكتف بهذا الأمر بل أقدم على خطوة أشد خطورة ، بعث أبا بكر رضي الله عنه إلى كراع الغميم التي تبعد عن مكة أميالاً عدّة في عشرة فوارس . وكان الهدف واضحًا من هذا التحدي كما تقول رواية الواقدي : (إن هذا يبلغ قريشاً فيذعرهم ، ويخافون أن تكون نريدهم . وكان خبيب بن عدي يومئذ في أيديهم . فخافوا أن يكون جاء ليخلصه)(٢) .

وإن كان الهدف الثاني لم يتحقق ، من حيث الأخذ بالثار المادي من بني لحيان . لكن الخوف الذي لرم بني لحيان ، جعلهم يشعرون بخطورة المسلمين في المنطقة .

ولم يكن اختيار أبي بكر بهذه الفوارس العشرة ليمضي إلى كراع الغميم ، اختياراً عشوائياً . بل كان مرتبطاً بالهدف ارتباطاً وثيقاً . فأبو بكر المهاجر ابن مكة . يعرف القاصي والداني في الأرض الحجازية . وليس نكرة عند أهل كراع الغميم . بل هو الصاحب الأول لمحمد رسول الله . ويكتفي أن نذكر أن بين الخندق التي كان المسلمون فيها محاصرون . وبين بني لحيان التي تحول المؤمنون فيها إلى مهاجِّين أقل من خمسة أشهر . وهذا يعني التنفيذ العملي للكلمة الخالدة : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

وهذه دروس عميقه للحركة الإسلامية . فالقيادة حين تعلن هدفاً أو موقفاً ، أو تعدد بعملية معينة . وتتكلّأ في التنفيذ تفقد ثقة قواعدها بها ، وتزلزل طبيعة العلاقة بين طرف في الجماعة المسلمة . فالتجسيد العملي للكلمة هو الذي يُكسب احترام العدو والصديق .

صحيح أن هذه الغزوة لم تتحمل في ثناياها أنباء انتصارات عسكرية حاسمة . لكنها أصابت كبد العدو ، وبثت الذعر في قلبه ، وغزته في عقر داره ومن جهة ثانية ، رفعت معنويات الجيش المسلم ، وأعادت إليه الثقة في نفسه بعد الحرب الطاحنة في غزوة الخندق .

وانتصار المسلمين في بني قريطة . رغم رفعه المعنويات الضخمة للمسلمين . لكنه لم ينه عقدة التفوق القرشي عندهم ، وكانت هذه الغزوة كفيلة بمحو هذه العقدة .

ودرس آخر تحتاجه الحركة الإسلامية اليوم ، هو ان رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رافق الحملة إلى عسفان ، التي تبعد أميالاً عن مكة . وهو الهدف الأول من العدو ، وكان بإمكانه عليه الصلاة والسلام أن يبعث في هذه الغزوة مثاتٍ بل الوفاء من أصحابه . لكنه مع ذلك آثر أن يرافق الحملة بنفسه ، لرفع معنويات أصحابه كذلك ، ودفع بأعز القادة عنده إلى كراع

(١) السيرة لابن هشام ج ٣: ٢٩٣

(٢) امتناع الأسماع ص ٢٥٧

الغميم ليؤكد ضرورة الالتحام العملي بين قيادة الأمة ورعايتها.

و فكرة ان لا تذهب دماء المسلمين هدراً فكرة إسلامية أصيلة. فتحرك رسول الله ﷺ إلى بني لحيان للثأر لأصحاب الرجيع، وذلك بعد مرور سنتين على اغتيالهم والغدر بهم يعني درساً ثالثاً للحركة الإسلامية، أن الثأر من الطغاة فيما يقتفيون من جرائم. هو الذي يردع هؤلاء الطغاة ويسقط الأمر في أيديهم.

إن طبيعة الحرب لا تقبل التضحيات فقط، ولا تقبل الخسارة من جانب واحد فقط. بل لا بد أن يشعر الجندي المسلم بقيمتها عند قيادته، وكرامة دمه عند جماعته. فهناك من يثار له، وهناك من يدافع عنه، أما أن يحس الجندي المسلم انه مدفوع به للذبح والتضحية، وقادته في حصن حصين من العدو، فلا يمكن أن يتبع الطريق مهما ارتفع المستوى الائمي عنده.

وأخيراً فحاجة الحركة الإسلامية إلى الهجوم على العدو بعد المحنّة هي خط أصيل في طبيعة المعركة مع العدو كي يستعيد الجيش ثقته بنفسه.

لقد رأينا رسول الله ﷺ يلاحق قريشاً بعد أحد بثلاثة أيام في حراء الأسدوها هو يصل إلى مشارف مكة بعد الخندق بأربعة أشهر. كي يبقى الجيش على تحفظه وتوبيه واقتناعه بقدرته الحربية وكفاءته القتالية كذلك.

وحرى بنا أن نفقه هذه الدروس، ونتعلم من خلالها أسباب أزمة الثقة التي تسود أحياًنا الصف المسلم بين قيادته وقادته، وحين نهتدي بها نجد أن هذه الأزمة تذوب وتتل nisi مثل هذا الالتحام وهذه التضحيات.

## السمة الثانية: حديث الأفوك

واخترت هذا العنوان، على طبيعته، لأصل بهذا المصطلح الخاص إلى النص العام الذي لا بد أن يشعر به أبناء الصف المسلم وخطورةأخذهم بالاشاعة دون ثبت وكيف أن الاشاعة كفيلة بتحطيم هذا الصف كله.

إنه وإن تجسّد باتهام الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها. لكنه صورة قد تتكرر في كل جيل وتضع النيل من القيادة هدفاً رئيسياً لا بد من تحطيمه، وحين تعجز القراءة المادية عن النيل من القيادة فليس أمام العدو إلا الحرب المعنوية على هذه القيادة وتحطيمها من خلال هذه الحرب ولذلك لن نتناول حادثة الإفك كحدث تاريخي بتفاصيلاته ودروسه. ولكننا سنتناوله من خلال حرب الإشاعة التي يشنها العدو المنبث في الصف ضد القيادة.

وأهم ما في هذا الحديث هو أن مصدر الفرية - على ما يبدو - هم المنافقون تحت راية زعيمهم عبد الله بن أبي، وحين يتحقق الصدف من الفرية. وتبقى في صنوف المنافقين فلا خطر منهم ولا هم لكن عندما تنتقل إلى داخل الصدف المسلم فتسري فيه سرير النار في الهشيم عندئذ يبدو خطورهم الكبير.

والنص القرآني حين تحدث عن هذه الحادثة. كان يخاطب الصدف المسلم أكثر مما يخاطب صنوف المنافقين. ويحمل على المؤمنين الصادقين الذين تأثروا بهذه الفرية، واستجابوا للحديث في الظنة دون بينة والنقاط المحددة التي نعرض لها في هذا الحديث المؤتفك هي ما يلي :

أولاً: البعد عن مظان التهمة واجب أساسي على الصدف المسلم، وعليه أن يعلم - وخاصة القيادة - أنه هدف لأنظار العدو والصديق، فيتجنب ما استطاع البعد عن موطن الريبة.

ثانياً: عدم الأخذ بالإشاعة كما يقول القرآن الكريم :

«لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء، فإذا لم يأتوا بالشهاداء فأولئك عند الله هم الكاذبون»<sup>(١)</sup>، وأي خبر غير موثق بالنسبة للفرد المسلم هو مرفوض عنده، ولعله هذا الأخ أن روایة الإشاعة، وتناقل الخبر غير الموثق تحيله إلى آخر كاذب.. وهذا حكم القرآن في أمثال هؤلاء. هم الكاذبون عند الله، ولو لم يفتر الكذب. لو كان نقله صدقًا محصناً عن سمع منه فهو عند الله تعالى من الكاذبين.

ثالثاً: ليق الميزان الحساس في الحكم على الإشاعة هو الميزان الذاتي. فلا بد من ثقة الأخ بإخوانه ثقته بنفسه، وقد أقر القرآن الكريم هذا الميزان وأثنى عليه بذلك بمناسبة الحديث الذي جرى بين أبي أيوب الأنصارى وزوجة أم أيوب رضي الله عنها إذ قالت لزوجها: «أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب قالت: لا والله ما كنت لأفعله. فقال: فعائشة والله خير منك»<sup>(٢)</sup>، وتنمى لكل أخ وهو يشين الإشاعة بحق أخيه أو قيادته أن يحسب على أقل تقدير أن أخيه أو مسؤوله ليس أقل حرضاً على دينه منه، وليس أقل ديناً وورعاً منه. ولو نفذ هذا الميزان الذاتي. لانهارت الإشاعة وإنها إلفك من جذوره.

رابعاً: أن لا يتدخل الهوى إطلاقاً في قضية النقل للإشاعة والمساهمة فيها وصورتان متناقضتان لاتبع الهوى في الإلفك، وللتبرؤ منه والصورتان هما لأختين مسلمتين شقيقتين الأولى: هي زينب بنت جحش رضي الله عنها، والثانية: لأختها حنة

(١) التور الآية (١٣)

(٢) السيرة لابن هشام ج ٣ : ص ٣٥٥

بنت جحش فقد أورد المقرizi عن زينب هذا الحوار بينها وبين رسول الله ﷺ : قالت : (حاشى سمعي وبصري ، ما علمت عليها إلا خيراً . والله ما أكلنها وإن لمهاجرتها وما كنت أقول إلا الحق) (١).

وأن تستطيع صرة ان تكتم هواها فلا تمضي في الإشاعة يدل على المستوى العظيم الذي بلغته هذه المرأة المسلمة والأفق العالى الذى ارتفعت عليه . وهذا ما دعا عائشة رضي الله عنها أن تبرئ ساحة زينب من ولوغها في هذه الفرية .

تقول رضي الله عنها ، (ما كان أحد يسامينى عند رسول الله ﷺ إلا زينب بنت جحش ) فقد وضعتها في موقعها الصحيح من طبيعة المنافسة مع عائشة رضي الله عنها ، لكنها مع ذلك لم تجد حرجاً من الثناء عليها في هذا الموقف فقالت :

(أما زينب فقد عصمتها الله بدينه فلم تقل شيئاً .

أما الموقف الثاني ، فهو موقف أختها حنة . التي انطلقت في الإشاعة تنقلها من بيت إلى بيت ، ولا شيء يقف في وجهها ، وذلك ثاراً لأنها زينب .

تقول عائشة رضي الله عنها :

( أما أختها حنة فأشارت من ذلك ما أشارت تضادني لأختها فهلكت ) .

ولا نتمالك من الإعجاب العظيم بعائشة رضي الله عنها ، إذ استطاعت أن تفصل بين الموقفين للأختين الشقيقتين . ولم تحمل زينب شيئاً من وزر أختها حنة .

خامساً: موقف المفترى عليه ، هو أثقل الأدوار وأضخمها في حديث الإفك . والمنج الذي يجب أن يسود في هذا الصدد هو أن لا يقابل الافتراء بافتراء آخر ولا تقابل الإشاعة المؤتفكة بإشاعة أخرى . وأن يتمالك الأخ المفترى عليه فلا يطلق لسانه في أعراض الآخرين ولو اعتدى عليه حتى تتم براءته وتبرأته . هو موقف أصيل ندعوه إليه هذا الأخ في هذا المجال . ولنلاحظ موطن القدوة من العناصر الثلاثة الذين نيل من عرضهم في حديث الإفك .

أولهم : محمد رسول الله ﷺ ، وهو سيد الأمة والبشرية . وهو الحاكم والقائد ، وب بيده السلطة ، وبإشارة واحدة منه يمكنه أن ينهي حياة الوالغين في عرضه ، ومع ذلك لم يملك في هذا الأمر بعد أن استشار كبار أصحابه إلا أن يخطب في المسلمين قائلاً على المنبر بعد أن حمد الله وأثنى عليه أية الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم

(١) امتناع الأسماع للمقرizi ج ١: ٢٠٨

غير الحق والله ما علمت منهم إلا خيراً . ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيراً ، وما يدخل بيته من بيته إلا وهو معه » .

وعندما وقعت الأزمة بين الفريقين الأوس والخزرج لم يكن ليملك عليه الصلاة والسلام إلا أن يكون حكماً بينهما رغم أن أحد الفريقين يدافع عن الوالغين في عرض عائشة رضي الله عنها والأخر يهاجمهم ومع ذلك ، فقد أرضى الفريقين ولم يتعذر لأحدهما لأنه لا يملك البينة ليرد بها على الفريق المتهم ، وحتى عندما تجاوز صفوان رضي الله عنه في ثورته لنفسه وضرب حسان بن ثابت على اتهامه لم يستدِه رسول الله ﷺ من الخلف ويشجعه على تجاوزه قبل صدور البينة مع أنه يبرئ أحَب الناس إليه عائشة رضي الله عنها ، وقد حضر حسان وصفوان عند رسول الله ﷺ ولنستمع إلى تلك المحاكمة الهادئة للجنديين المتجاوزين !

(قال صفوان بن المعطل : يا رسول الله آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربيه . فقال رسول الله ﷺ لحسان : أحسن يا حسان أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام ثم قال : أحسن يا حسان في الذي أصباك قال : هي لك يا رسول الله .

قال ابن اسحاق : فحدثني محمد بن إبراهيم : أن رسول الله ﷺ أعطاه عوضاً عنها ... وأعطاه سيرين أمّة قبطية فولدت له عبد الرحمن بن حسان (١) .

وهكذا كلفت ضربة صفوان لحسان أرضاً وجارية وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت بعد عفوه عن صفوان بن المعطل ، وكان هذا العطاء لمن ينشد الشعر في اتهام زوجته ويقضي في الإشاعة دون توقف .

وثانيهم : هو أبو بكر رضي الله عنه وزوجه أم رومان وقد نزل بهم من البلاء ما لم ينزل بمسلم وأقصى ما قالته أم عائشة التي تعرضت عرضها للثم والإهانة :

أي بنتي خفضي عليك الشأن . فوالله لقلما كانت امرأة حسنة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثُر وكثُر الناس عليها .

ولم يتمالك أبو بكر رضي الله تعالى عنه أن يقول :

(ما أعلم أهل بيتك من العرب دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر . والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية حيث لا نعبد الله ، فيقال لنا في الإسلام !!).

وثلاثهم : عائشة رضي الله عنها التي لم تنته عن البكاء حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدتها .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ . ٣١٨ و ٣١٩

و حين وجهت بالأمر من رسول الله ﷺ يسألها عن الحديث فقالت:

(إني والله قد علمت أنكم سمعتم بهذا الحديث، فوقع في أنفسكم فصدقتم به فلشن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولشن اعترفت لكم بأمر يعلم الله أني منه بريئة لتصدقني. وإن الله ما أجد لي مثلا إلا أبا يوسف إذ يقول: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون).

إنها مواقف لا يحمل التاريخ لها مثيلاً من أظهر أهل الأرض يوصمون بشرفهم وعرضهم. ومع ذلك فلم يخرج أحد منهم عن طوره، ولا أطلق لسانه في عرض أحد، وضبط كل واحد منهم أعصابه، وأما الذي خرج عن طوره فهو صفوان بن المعتل رضي الله عنه، وضرب حسان بالسيف وكاد الأمر أن يستفحلاً لولا أن عالجه رسول الله عليه الصلاة والسلام.

إن أدب الإسلام العظيم مع الذين يرددون الإشاعة ويسيرون في الإفك قبل أن تعرف أنها إفك أو إشاعة.

سادساً: والموقف الأخير الذي نستخلصه من حديث الإفك هو عقوبة المغترين اللاغطين المثيرين للفتنة. فلا يكفي أن ثبت براءة المتهم، ولا يكفي أن تدفع القيادة عنها قاله السوء وانتهى الأمر.

بل لا بد في الصف المسلم من العقوبة الصارمة مع من يثير الإشاعة ويسعى في نشرها بعد التثبت منها. وما تعانيه الحركة الإسلامية اليوم هو إهمال ملاحقة مثير الإشاعة وناقل الإفك، وبذلك لا تنتهي الجماعة من فتنة إلا وتقع في أخرى. ويكتفي أن نعلم أن حكم الإسلام كان في هؤلاء الثلاثة الذين ساروا في الإفك، مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحننة بنت جحش، أن أقيمت عليهم حد القذف ثمانين جلدًا، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أن هذا الحد طبق فيها بعد ولم ينفذ عليهم لأنهم خاضوا في التهمة قبل نزول الحدود.

والحديث عن هذه السمة يأتي في هذه المرحلة لأن تاريخ الدعوة لم يشهد مثيلاً لها من قبل وفي الصف المسلم بالذات وطبيعة المرحلة إذن هي أن الإشاعة تسري حين يضعف البناء الداخلي ويستجيب لها. لكن عندما تنشغل الأمة بالجهاد والمواجهة. فقلما تستطيع الإشاعة أن تفعل فعلها في النفوس.

### السَّمْةُ الثَّالِثَةُ: الزَّوْاجُ وَأَشْرُهُ فِي الدَّعْوَةِ

في هذه المرحلة تم زواج رسول الله ﷺ من خمس نساءٍ من:

زينب بنت جحش، أم حبيبة بنت أبي سفيان، جويرية بنت الحارث، صفية بنت حبيبي، ميمونة بنت الحارث، رضي الله عنهن جميعاً.

وحيث نقارن بين زواج هذه المرحلة وسابقتها، نلاحظ فرقاً واضحاً في الاتجاه يحدد ملامح المرحلة نفسها ونستطيع القول إن سمة الزواج في المرحلة السابقة ينصب على بناء ومتانة الصف الداخلي، بينما تظهر سمة الزواج في هذه المرحلة من خلال العمل على كسب الصفة الخارجي وجعله معيلاً لنشر الدعوة في الأرض العربية. ولتفق لحظات سريعة عند كل واحدة منهن:

أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان، وقد عقد عليها رسول الله ﷺ وهي في أرض الحبشة وأكرم غربتها في سبيل الله بعد ردة زوجها عبد الله بن جحش، وكونها ابنة زعيم قريش ذات دلالة ضخمة على تقريب القلوب وتتأليفها من هذا القائد الكبير. ولقد رأينا أثر هذا الزواج قرير فتح مكة حيث جاء أبو سفيان ونزل ضيفاً على رسول الله ﷺ وفي بيته ولا يزال على شركه، وموقفه من الدعوة. ولا نشك أن موقف ابنته منه من خلال فراش رسول الله ﷺ ورغم أنه جروحه في أعماقه. لكن كان له أكبر الأثر الخفي في أن يعيد النظر في مواقفه وعدائه للدعوة. وأن يفقه من خلاله عظمة هذا الدين وعظمته رجاله ونسائه.

لقد طوت فراش رسول الله ﷺ عن أبي سفيان فقال لها:

(يا بنتي أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟) قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ. وانت رجل نجم على شركك، فقال: والله لقد أصابك بعدي شر).<sup>(١)</sup>  
وللتعرف على أثر هذا الزواج في نفس أبي سفيان نلاحظ أنه بعد إسلامه يعرض ابنته الثانية على رسول الله ﷺ للزواج منها، فيعتذر رسول الله انه لا يحل له ذلك.

زينب بنت جحش، وهي زوجة مولاه زيد، رضي الله عنه وقد هاب رسول الله ﷺ هذا الزواج هيبة عظيمة تحدث عنها القرآن بقوله جل وعلا: (.. وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه..)<sup>(٢)</sup> لكن الأمر الرباني جاءه بذلك ليحطم العادة المستأصلة في المجتمع عادة التبني من خلال الواقع العملي بعد القرار النظري ولتعلم الدنيا ذلك كما يقول القرآن الكريم.

(لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعائهم اذا قصوا منها وطراً..)<sup>(٣)</sup>  
وإن كان هذا الزواج يتحمل صفة البناء الداخلي فهو يحمل كذلك صفة البناء الخارجي إذ أن زينب رضي الله عنها هي أول امرأة غير قرشية يتزوجها عليه الصلاة والسلام فهي من بنى أسد وإن كانت ابنة عمته.

(١) الرحيق المختوم ص ٤٤٥

(٢) والأية ٣٧ من سورة الأحزاب.

جويرية بنت الحارث : وهي ابنة سيد بنى المصطلق ، وكان زواجها سبباً في فداء أهلها وقبيلتها من الأسر ، ثم سبباً في إسلام قومها ، ونستمع إلى أثر هذا الزواج عند ابن اسحاق رحمه الله : قال . . . وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ ، وأرسلوا ما يأيدتهم .

قالت : (أي عائشة : فلقد اعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيته من بنى المصطلق . فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها برقة منها) (١)

صفية بنت حبي : وهي ابنة حبي بن أخطب أكبر أعداء الإسلام وقد قتل في بني قريطة لكن الزواج من صفية فيما بعد كان له آفاق أبعد وأعمق . إذ أنه ربط أهل الكتاب برابطة المصاهرة وعندما كانت عائشة رضي الله عنها تغير صفية بأنها من سلالة يهود كان رسول الله ﷺ يغضب ويقطّعها ويقول لصفية قولي لها أن أبي موسى وعمي هارون .

وهذا العمل الاجتماعي الضخم يعني كثيراً في مفهوم الدعوة . ويعني ان التعايش بين المسلمين وبين أهل الكتاب قائم . ولو أدى إلى نكاح نسائهم . فالمرأة حين تعيش الإسلام سوف يصفو قلبها بعد وتدخل في الإسلام كما يتالف قلب طائفتها في هذا المجتمع .

وعلى غرار هذا المستوى كان زواج رسول الله ﷺ من مارية القبطية والتي ربط زواجهها بأمة كاملة إذ قال :

(استوصوا بالقبط خيراً فإن لي فيهم نسباً وصهراً)

وقد أثرت هذه الدعوة فيها بعد وحدت بأهل مصر أن يدخلوا في دين الله أفواجاً حين رأوا حسن معاملة المسلمين لهم تنفيذاً لوصية رسول الله عليه الصلاة والسلام . وكان من حكمة الله تعالى في هذا الأمر أن رسول الله ﷺ لم يرزق ولداً بعد خديجة إلا من مارية رضي الله عنها . وكان ولده إبراهيم قد استثار بحب النبي ﷺ . أكبر استثار ولم يتمالك عليه الصلاة والسلام من القول بعد وفاته :

«إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ، وإننا على فراقك يا إبراهيم لحزنون» .

«تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب . وإننا على فراقك يا إبراهيم لحزنون » .

(١) السيرة لابن هشام ج ٣ : ٣٠٧ و ٣٠٨

ميمونة بنت الحارث الهمالية : وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ . وقد حرص عليه الصلاة والسلام ان يستمر هذا الزواج في تقوية قلوب قريش بعد عمرة القضاء إذ قال لهم عندما جاؤوا لايذانه بالخروج من مكة :

(وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم ، وصنعت طعاماً؟ فقلوا : لا حاجة لنا في طعامك أخرج عنا : ننشدك الله والهدى الذي بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا) (١) .

وهذه السمة ذات دلالة واضحة على الاتجاه العام في تأليف قلوب الخصوم وتقريرهم للإسلام وأن الجهاد السياسي قد يكون من وسائله الناجعة للزواج والمصاهرة من الخصوم .

وما أخرج شباب الإسلام إلى هذا الفقه السياسي والأفق الواسع في فهم طبيعة هذا الدين إن الشباب المسلم كثيراً ما يتحمس في قضية التميز والتفاصل . حتى يتحجر على نفسه ، وينغلق على ذاته ، ويجعل سداً منيعاً على أفراده ، فلا يدخل في الصف الإسلامي أحد ولا يحرص على دخولهم في الأصل ، وتسسيطر عليه فكرة الحرب والكراء لأعداء الله ، وفكرة الإذلال والإهانة لهم ، وينسى أنه داعية قبل كل شيء وأن هدفه الأخير كذلك أن يدخل الناس في دين الله أفراجاً وبالتألي فلا بد أن يدرك الداعية أن هداية هؤلاء الخصوم ودخولهم في الإسلام هو الهدف الأول ، وليس ذبحهم والقضاء عليهم ، وأن تألف كبار الخصوم وربيع قلوبهم هو ربع لقلوب اتباعهم جميعاً وتنمى أن يفرق الأخ بين أساليب التأليف والتحبيب بالإسلام وبين أساليب المداهنة في دين الله والتنازل عن الإسلام في سبيل ذلك .

وشيء آخر ما أخرج دعوة الإسلام إليه . فالزوج نفسه قد مسخ عن مفهومه الأول واقترب في الواقع العملي وفي صفوف شباب الإسلام من الزوج الكهنوتي النصراني ، حيث أن التعدد قد أصبح نشازاً في الصف الإسلامي ، وأصبح غريباً غربة اقتراف المنكر . وقاده الدعوة هم المثل المقتدى به في هذه الدعوة فلا بد أن يكونوا نماذج حية في تطبيق هذا الفهم النبوي في جعل الزوج والتنوع وسيلة من وسائل بناء الدعوة وتقوية القلوب والالتحام مع الخصوم والاصدقاء وما رأيناه من إقدام رسول الله ﷺ على الزواج من زينب وتحطيم عادة التبني من خلال الزوج بمطلقة متبناه وما تحمله من مواجهة المجتمع الجاهلي الذي بحرب هذا الزوج حتى يزيل الحرج عملياً عن المؤمنين في الإقدام على هذا الزواج هو دفع للدعابة الكبار أن يتأسوا برسول الله ﷺ وينقلوا قضية الزوج من مفهومها المحدود حيث البحث عن الجمال والبكرا والسن الصغير للارتفاع بها إلى الأفق الواسع الذي يشيع المودة والرحمة

(١) امتع الأسماع للمقرizi ج ١ : ٣٤٠

بين أبناء الأمة جيئاً ورفع مستوى المرأة الثيب وزوجات الشهداء إلى المستوى الكريم اللائق بهن  
أثنين خط أنظار القيادة ولسن من المحرومات اللواقي انصرف النظر عنهن فقط لأنهن ثبات .

إنها مسؤولية جسمية يضطلع بها الدعاة وأخص بالذكر القيادات لوضع الزواج في وظيفته  
الاجتماعية العامة وجعل الكفاءة حقيقة من خلال الدين والخلق لا من خلال الجمال والحسب  
والبكارة ومن خلال مصلحة الإسلام العليا لا من خلال الرغبة الجنسية المحدودة .

والنظر إلى الزواج على أنه وسيلة هامة من وسائل الدعوة لا على أنه معيق من معوقاتها ولا بد  
أن تتدريب الأخوات المسلمات كذلك على هذه المعانى ويلجمن أهواهن وأنانيتهن وغيرهن أمام  
مصلحة الإسلام وعقيدة الإسلام ومصلحة أخواتهن الالتي لم يكن لهن من ذنب الا أن فقدن  
أزواجهن في سبيل الله .

## السمة الرابعة : الصف الداخلي القوي من خلال صلح الحديبية

لئن كانت غزوة بني لحيان إرهاصاً لابتداء المرحلة الجديدة . فلقد كانت عمرة الحديبية هي  
التنفيذ العملي للبين لقوله عليه الصلاة والسلام «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» ولكن هذا الغزو لم يكن  
غزواً عسكرياً بحثاً . بل كان غزواً سلرياً يهدف العمرة إلى البيت الحرام لكن لا يغيب عن ذهن  
رسول الله ﷺ أبعاد هذه العمرة . وأنه قد يلقى مقاومة مسلحة . غير أن التحرك السياسي في  
الاتجاه الجديد كان لا بد منه (وقد استنفر الأعراب ومن حوله من أهل البوادي ليخرجوا معه وهو  
يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت) . فأبطا عليه كثير من  
الأعراب . وخرج رسول الله ﷺ بن معه من المهاجرين والأنصار ومن حق به من العرب وساق  
معه الهدي ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس على حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت  
ومعظماً له . . وكان جابر بن عبد الله يقول كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة . . (١)

ولن نستطيع دراسة صلح الحديبية من كل جوانبه . لكننا سنعالج هذا الجانب في هذه  
السمة ونرجوء الحديث عن الفتح المبين في السمة التالية .

(١) السيرة لابن اسحاق ج ٤ : ٣٠٨-٣٠٩

أما مظاهر هذا الصف القوي الموحد فقد بدت على الصور التالية:

أولاً: إن مجرد استجابة المهاجرين والأنصار للنفير هو دليل حي على مدى الطاعة والالتزام والانضباط في هذا الصف، فبعد أقل من سنة على غزوة الأحزاب كان هذا التحرك بهذا العدد الضئيل ألف وخمسمائة فلا ينسى المسلمون أن الأحزاب غزوهם بعشرة آلاف مقاتل.

كيف يتحرك هذا الجموع الضئيل من المئات إلى مشارف مكة. ولا شك أن الدافع الإيماني القوي هو الذي حدا بال المسلمين إلى الإستجابة. إذ أن رسول الله ص قص عليهم رؤياه أنه دخل البيت وحلق رأسه وأخذ مفتاح البيت، وعرف مع المعرفين<sup>(١)</sup>، وإنما لجرأة متناهية أن يغامر المسلمون بآلف وخمسمائة رجل يتوجهون بهم إلى مكة التي تعلن الحرب عليهم.

ثانياً: وكانت حرب الأعصاب الأولى التي تلقاها هذا الصف المسلم بسفوان حيث لقيه بشر بن سفيان قائلاً له: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل<sup>(٢)</sup> قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً. وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم. فقال عليه الصلاة والسلام يا ويع قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيتي وبين سائر العرب فإنهم هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهري الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرین وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة.

فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه

السالفة<sup>(٣)</sup>،

وعندما يسمع جيش هذا الوصف لتحرك قريش بشبيها وشبابها ونسائها وأطفالها لمواجهة محمد ص لا بد أن يصيبه الذعر ويتحلّل من الرعب وتنشر به الفوضى وصراع الآراء لكن جيش النبوة الملزّم بقيادته قد تجاوز هذه المرحلة والضعفاء المخذلون المتخاذلون ولو كانوا موجودين في داخل الجيش هم أجبين من أن يرفعوا عقيرتهم بالمخالفة أو يظهروا هلّعهم وجبنهم ويدعوا إلى الاستسلام أو الفرار. فأي قوة في الصف تعدل هذه القوة؟

لكن الجانب الآخر من القضية هو الجانب السياسي. فهذه أول مرة يعلن فيها رسول الله ص رغبته في تجنب الحرب مع قريش ودعوتها إلى المهادة، وذلك ضمن خط

(١) أي وقف في عرفة

(٢) يريد أنهم خرجوا معهم النساء والصبيان

(٣) السالفة: صفحة العنق وكفى بافرادها عن الموت

(٤) السيرة لابن اسحاق ج ٤: ص ٣٠٩

واضح متميز أن يقفوا على الحياد بينه وبين العرب ، ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بذلك ، إنما أوضح أبعاد هذا الموقف بأنه لصالح قريش سواء انتصر محمد عليه الصلاة والسلام أم لم يتتصر . وفي هذا كبح لجماح التهور القرشي من الاستمرار في المعركة . وفتح لآفاق الدعوة أن تخطو الطريق الذي سدته قريش من كل جانب . إنه السلام القائم على مصلحة قريش ذاتها قبل أن يكون مصلحة المسلمين .

إلا أن هذا الكلام يعني من طرف آخر خفي أن وهناً قد حل بال المسلمين فراحوا يبحثون عن الحل السلمي للابتعاد عن المواجهة فكان لا بد من اسماعهم منطق القوة الذي يفهمون فيه . وهو :

«فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفه إنه المنطق المتوازن الذي لا يريد الحرب للحرب إنما لإظهار هذا الدين وإعلانه وهو جاحد لأن يتفهم وجهة نظر الخصم ، غير أن هذا المنطق لا يعني خللاً في القوة أو وهناً في الصد ونحن نرى الصد القوي هنا كذلك بعد إعلان النبي ﷺ عن استعداده لخوض المعركة دون أن يعترض جندي واحد على ذلك ، في الوقت الذي خرج الجيش فيه للعمرة لا للقتال .

ثالثاً : والتحام الصد الإسلامي مع قيادته يبدو جلياً كذلك في أثناء عرض عضلات قريش من قادة وفودها وذلك على أربعة مذاجر .

النموذج الأول: وهو بديل بن ورقاء الخزاعي . وهو أقرب ما يكون لمحمد ﷺ لما بين خزاعة و محمد من ود . واعتبرت قريش أن هذا الرجل كفيل بأن يثنى محمدأ عن عزمه على دخول مكة .

فأخبرهم عليه الصلاة والسلام أنه لا يريد حرباً . وأنه إنما جاء رائراً لهذا البيت معظماً له واسرع بديل ليقول لقريش : إن محمدأ لم يأت لقتالٍ وإنما جاء زائراً لهذا البيت . فقالت قريش لهم : وإن كان جاء لا يريد قتالاً . فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبداً ولا تحدث بذلك عنا العرب .

النموذج الثاني: مكرز بن حفص حيث حدد عليه الصلاة والسلام طبيعته . قائلاً : هذا رجل غادر وقال له مثل ما قال بديل . وكان الأمر حتى الآن طبيعياً لا يثير حميشة هذا الجيش القوي .

**النموذج الثالث :** وقصدت به قريشاً أن تعلم محمدًا أن قريشاً ليست وحدها في المعركة ، بل معها القبائل المجاورة لمكة . فالخليس بن علقة سيد الأحابيش<sup>(١)</sup> . ولم تفت هذه القضية رسول الله ﷺ . فقال لل المسلمين : إن هذا من قوم يتأهلون<sup>(٢)</sup> فابعثوا في وجهه الهدي حتى يراه ، فلما رأى الهدي . رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى . فقال لهم ذلك . فقالوا له : إجلس فإنما أنت أغرابي لا علم لك .

وغضب الخليس عند ذلك وقال : يا عشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، لتخلن بين محمد وما جاء له أو لأنفرون بالأحابيش نفرة رجل واحد ، فقالوا له : مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

والدلالة في هذا النموذج صارخة على العبرية العظيمة للنبوة حين صرف سيد الأحابيش وقد تبني رأيه بالعمره دون أن يلقاه ، وكاد صفات مكة الداخلي أن يتفجر وتقع المواجهة بين الأحابيش وقريش لو لا أن تداركت قريش الأمر وأصلحته مع الرجل ، ومع ذلك فقد أصبح في صفات مكة تيار قوي ، أعلن عن رأيه بضرورة السماح لمحمد ﷺ بالاعتمر ، وهدد بالسلاح ما لم يتم تنفيذه ذلك ، وقد تم هذا الأمر حتى دون لقاء بين رسول الله ﷺ وسيد الأحابيش . بحسن اختيار الأسلوب المناسب الذي يفهم به هذا الرجل ، وهو بعث الهدي في وجهه .

**النموذج الرابع :** وقصدت به قريشاً حرباً نفسية كذلك ل محمد وأصحابه لتعلمهم أن ثقيفاً مع قريش حلية في هذه المواجهة . فبعثت بأذكي وأدهى ما عندها ليفت في أعضاد أصحاب محمد ﷺ ، وكان تخطيط قريش أن مجرد رؤية عروة بن مسعود زعيم ثقيف يأتي مثلاً لقريش في هذه المفاوضات كفيل بأن يزلزل هذا الصف المtiny . فكيف إذا استعمل خبيثه ودهاءه . ولننظر إلى هذه الحرب السياسية من المتصر فيها في نهاية المطاف .

(خرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، فجلس بين يديه ثم قال :  
يا محمد : أجمعت أو شاب<sup>(٣)</sup> الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك<sup>(٤)</sup> لتفصها<sup>(٥)</sup> بهم ، إنها  
قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود التمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم  
عنوة أبداً وایم الله ، لكنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ، قال : وأبو بكر الصديق خلف رسول

(١) الأحابيش : قبائل كانت حول مكة وتسكن في جبالها .

(٢) يتأهلون : يتعبدون ويعظمون أمر الإله

(٣) أو شاب الناس : أخلاقهم

(٤) بيضة الرجل : أهله وقبيلته

(٥) تفصها : تكسرها

الله ﷺ قاعد، فقال : امتص بظر اللات . أنحن ننكشف عنه؟ قال : من هذا يا محمد؟ قال : هذا ابن أبي قحافة ، قال : أما والله لولا يدك كانت لك عندي لكافأتك بها ولكن هذه بها ، قال . ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه . والمغيرة بن شعبة وافق على رأس رسول الله ﷺ في الحديد . قال فجعل يصرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول : أكثف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصلك إلينك . فيقول عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك . قال : فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة : من هذا يا محمد؟ قال هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة قال : أي غدر ، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس . . . فقام من عند رسول الله ﷺ وقدرأى ما يصنع أصحابه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يصق بصاصاً إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال يا معاشر قريش إني قد جئتكم كسرى في ملکكم ، وقيصر في ملکكم ، والنجاشي في ملکكم ، وإنما والله ما رأيت مثلكم في قومٍ قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء فروا رأيكم) (١).

فلقد عاد عروة بن مسعود بعد هذه الجولة داعية لمحمد ﷺ على غير وعي منه بدل ان يمحسن الناس على حربه لقد هزمت قريش وهزم عروة أمام صلابة الصفة المسلم الذي أبدى من ضروب الطاعة والانضباط والالتزام ما أذهل عروة وهزمه في أعماله لقد بالغ المسلمون في إظهار الطاعة أمام العدو الغادر ما لم يفعلوه من قبل ، وجيئ هذا طبيعته وهذه نفسيته . يحبه به قوى الأرض لا قريش وحدها أو قريش ومعها ثقيف والأحابيش ، حتى الهداء الوديع الحليم أبو بكر ينقلب أمام عدو الله ليتأذى ، ويتهمكم بأسلوب فجٍ من عروة سيد ثقيف وعقله حين اراد أن يفتتن الصفة بتخويفه من قوة قريش ويضرب القيادة بالقاعدة فيثنى عزيمة محمد عن الحرب لنفرق أصحابه عنه فكان لا بد أن يسمع ما يكرهه بأسلوب ما عهد عن أبي بكر رضي الله عنه . وكلام غير عفيف يجعل عروة في جحده لا يتعداه وكان الرد الثاني أعنف وأشد من المغيرة بن شعبة فلشن اعتدت قريش بعروة التلفي معها فالبطل التلفي المغيرة هو سيف محمد صلوات الله عليه ولا يفلي الحديد إلا الحديد إن عظمة النبوة السياسية التي لا تدانيها عظمة هي في حسن استعمال الذين في محله والعنف في محله . . لقد ارتد كيد قريش في نحرها ، وهزمت نفسياً أمام محمد صلوات الله عليه وصحبه وجنده وراحت تعالج أمرها بعد خطبة ابن مسعود فيها من باب المفاوضة لا من باب التهديد والمواجهة وصار الصفة المسلم القادر إلى العمرة بألف وخمسين ألفاً أقوى بألف مرة من صفات قريش وثقيف والأحابيش الذي تزعزع وهدد بعضه بالسلاح .

إنه درس عظيم للحركة الإسلامية ، درس للقيادة التي تتقن فن التعامل مع العدو فتحطم أصحابه ، وتهز نفسه من الأعمق وتعامل مع الخصوم كل حسب طبيعته ونفسيته .

(١) السيرة النبوية ج ٣ : ٣٢٧ و ٣٢٨

ودرس إلى القاعدة كي تفقه معنى الالتزام والانضباط خاصة أمام العدو وعلى أرضه فتكون كلها سهلاً واحداً ويداً واحدة وقلباً واحداً في مواجهة العدو.

رابعاً : وكانت المحاولة الرابعة من قريش في ايجاد ثغرة في الصف المسلم . من خلال عملية فدائية كلف بها حوالي خمسين من قريش عليهم ينالوا بعضاً من أصحابه أسرأ أو قتلاً فيرجع المسلمين ويحاولون ايقاع الرعب فيه . فماذا كانت النتيجة ؟

أخذوا جميعاً أسرى بيد المسلمين حيث ظفر بهم محمد بن مسلمة قائد حرس المسلمين .  
وبلغ قريشاً حبس أصحابهم ، فجاء جمع منهم ورموا بالنبيل والحجارة . فرماهم المسلمون وأسروا منهم اثنى عشر فارساً .

وكانت هذه العمليات المترجلة من قريش صدمة عنيفة أخرى لهم . وكانت مع آراء الوفود كفيلة بأن توقع الوهن في صف العدو .

وترى كم يسر الجنود المسلمين حين يرون بين ظهرانיהם خمسين رجلاً واثني عشر فارساً أسرى بيدهم .

خامساً : وكانت محاولة عرض العضلات الأخيرة والتهديد بالسلاح من قريش هي من خلال خيلهم التي كان على رأسها خالد بن الوليد .

ودنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى المسلمين فصف خيله فيما بينهم وبين القبلة .  
فقد رسول الله ﷺ عباد بن بشر في خيله . فقام بإزائه وصف أصحابه ، وحانَت صلاة الظهر فأذن بلال وأقام ، فصلَّى رسول الله ﷺ بأصحابه مستقبل القبلة وهم خلفه ، يركع بهم ويُسجد ثم قاموا فكانوا على ما كانوا عليه من التعبئة . فقال خالد بن الوليد . قد كانوا على غرة . لو كنا حملنا عليهم أصبنا منهم . ولكن تأتي الساعة صلاة هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم . فنزل جبريل عليه السلام بين الظهر والعصر بهذه الآية (إذا كنت فيهم ...) فحانَت العصر فصلوا صلاة الخوف (١) .

يقول خالد رضي الله عنه : فعلمْت أن الرجل منوع .

لقد غُزِيَ قائد فرسان قريش في أعماقه ، وأيس من النصر . فمن الذي أعلم محمدًا بما بيته من غدر؟ لقد عرف خالد بن الوليد أنه أعجز من أن ينال شيئاً من محمد . وأضيف هذا الرصيد من الوهن إلى الرصيد السابق فأسقط في يد قريش . وعرفت أن لا جدوى من المواجهة ففكرت في المصالحة .

وها هما الصورتان متقابلتان صورة الصف المسلم الملتحم القوي المصمم على الثبات، وصورة الصف المتناقض في الرأي والهزوم نفسيًا في أعماقه من هؤلاء المثاث القلائل.

سادساً: وكانت الصورة المقابلة التي لا بد أن يقوم بها رسول الله ﷺ هو أن يبعث بسفير من عنده يسمع مباشرةً من قريش وينقل لهم وجهة نظره حتى لا تتبس الأمور فكان . (وبعث رسول الله ﷺ إلى قريش خراش بن أمية على جمل لرسول الله ﷺ ليبلغ أشرافهم أنه إنما جاء معتمراً. فعمر الجمل عكرمة بن أبي جهل وأرادوا قتله فمنعه من هناك من قومه فرجع فأراد النبي ﷺ أن يبعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه فخاف على نفسه، وأشار بعثمان رضي الله عنه . فبعثه ليخبرهم : إنما نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمه، ومعنا الهدى نحرره وننصرف فأبوا على عثمان أن يدخل عليهم رسول الله ﷺ، ورحب به أبا بن سعيد بن العاص وأجاره، وحمله من بلده إلى مكة وهو يقول : أقبل وأدبر ولا تخف أحداً بتوسيع أذرة الحرم، فيبلغ عثمان من بمكة ما جاء فيه، فقالوا جميعاً : لا يدخل علينا محمد عنوة أبداً . . وبلغ النبي ﷺ بعد إقامة عثمان بمكة ثلاثة أيام أنه قتل، وقتل معه عشرة رجال مسلمون قد دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ ليروا أهاليهم . . وأم رسول الله ﷺ منازل بني مازن بن النجار، وقد نزلت في ناحية من الحديبية جميعاً، فجلس في رحالم وقد بلغه قتل عثمان رضي الله عنه، ثم قال : إن الله أمرني بأبيعة فأقبل الناس يباعونه حتى تداكون. فما بقي لهم متع إلا وطئوه ثم لبسوا السلاح وهو معهم قليل . وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها، وشدت سكيناً في وسطها وكان رسول الله ﷺ يباع الناس وعمر بن الخطاب رضي الله عنه آخذ بيده فباعهم على لا يفروا، وقيل بايعهم على الموت . . فباعوه إلا الجد بن قيس اختبا تحت بطن بعير . . وبعثت قريش إلى عبد الله بن أبي بن سلول : إن أحبيبك أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل فقال له ابنه : يا أبا ذكرك الله أن تفضحنا في كل موطن، تطوف ولم يطف رسول الله ﷺ فأبا حيتند وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول الله فبلغ رسول الله كلامه فسر به )١( .

الحرب بين الفريقين قائمة، وخراش بن أمية الخزاعي يقابل بديل بن ورقاء الخزاعي فخزاعة مسلّمهم ومشاركهم عليه نصح لرسول الله ﷺ وهي مع قريش كذلك . ومن أجل هذا وجدَ من يمنعه من قومه عندما تعرض للقتل .

وكانت الشخصية الثانية المرشحة للسفرة هي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولعل ما نزل بخراش من جهة وحقد قريش على عمر رضي الله عنه من جهة ثانية وكون شوكة بني عدي في مكة ضعيفة كل هذه العوامل حدت بعمر رضي الله عنه أن يبسط عذرها بين يدي قائد

(١) امتاع الأسماء للمقرizi ج ١: ٢٨٩ و ٢٩٠ و ٢٩١ (مقطفات)

لأن سفارته لن تتحقق المدف المطلوب منها ومن أجل ذلك قال :

يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي . وليس بمكة من بنى عدي بن كعب أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان .

وقبل رأي ابن الخطاب دون تردد . فليس هو محل تهمة أو ظنة . لكن لكل أمر رجاله .

وعثمان للسفارة خير من عمر ، مع العلم أن السفارة في الجاهلية كانت عند بنى عدي ، غير أن مكة اليوم يتقاسم النفوذ فيها بنو مخزوم وبنو أمية ، ومن أجل ذلك وجد عثمان رضي الله عنه من يحميه حتى يؤدي رسالته رسول الله ﷺ ، وكان لعثمان كذلك مهمة سرية أخرى هي الاتصال بالمؤمنين في مكة ودعوتهم إلى الصبر والثبات حتى يأذن الله تعالى بالفتح من عنده . ولما فرغ من تأدية رسالته عرضوا عليه أن يطوف بالبيت . فأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله .

وكان هذا درساً يليغاً في الالتزام حتى ولو كان طواف الكعبة الذي يحلم به المسلم منذ سنين خلت ، لكنه لم ينفذ أمراً حتى يرجع إلى قيادته فيسألاها . وامتنع عن الطواف قبل طواف النبي عليه الصلاة والسلام .

وحين يلتزم الجندي بأمر قائده عند الأعداء رغم الإحراجات الكثيرة من عشيرته . فهذا يعني أن الولاء لن يكون إلا لله ورسوله . لكن هذا الولاء لم يمنع من قبول حماية أبيان بن العاص أحد قادة بنى أمية ، وما أحوجنا إلى أن نفرق بين القضيتين . لأن الأولى لا علاقة لها بطبعية المهمة ، وتتم المهمة بدونها أما الثانية فهي صلب مهمة عثمان رضي الله عنه . فلم يجد حرجاً أو إثماً بقبول إجارة أبيان بن سعيد .

وننتقل إلى المعسكر الإسلامي وقد بلغه إشاعة مقتل عثمان رضي الله عنه . وكان هذه الإشاعة وقع البارود المتفجر فيه . فمضى رسول الله ﷺ إلى أعز معلم من معاقل الأنصار إلى منازل بنى مازن بن النجار ، وأخبرهم بأمر البيعة .

(فأقبل الناس عليه حتى تداكواً فما بقي متاع إلا وطئوه ، ثم لبسوا السلاح ، وهو معهم قليل ..)

يقول ابن اسحاق : ( فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت .. وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ولكن بایعننا على أن لا نفر ) .

وإنه لم من أغرب ما روى التاريخ من ولاء والتزام ونصرة . لقد خرج القوم للحجارة ، وألحوا على رسول الله ﷺ أن يحملوا السلاح . فرفض ذلك وقال : لست أحمل السلاح إلما خرجت معتمراً . وساهم في هذا الرأي قادة المهاجرين والأنصار . ومع ذلك فها هو يدعوهم إلى المواجهة

والموت فيتزاحون إلى البيعة حتى لا يبقى متعة إلا وطشه.  
لقد أصبح الصف الإسلامي من القوة والتلامم بحيث نكاد نقول أن النفاق قد انتهى منه .  
وحين نذكر أن المنافقين كانوا بضعة عشر في غزوة الأحزاب ، فها نحن لا نجد وجوداً لهم في الحديبية .

إن الصورة الواقعية في عالم الأسباب تقول أن لا يستجيب للبيعة على الموت والمواجهة إلا أفراد قلائل . لأن القوم لم يخرجوا للقتال ، وقادتهم أكد لهم أن خروجه للعمرمة ، ولم يعدوا سلاحاً لذلك ، وما نعلمه عن عالم الأحزاب اليوم في مثل هذه الحالة أن يغتال القائد ويحاكم بتهمة توريط الجيش في الهلاك . أما أن يسارع الجيش كله للبيعة ويتزاحم عليها . فهذا يعني أن النفاق في هذه المرحلة قد ولّ كأمس الدابر ، وأن ينفرد رجل واحد من هذا الجيش فيختبئ بظل بطن ناقته ولا يبايع ، وأن يكون عبدالله بن أبي من بين المبايعين . فهذا يعني أن الجيش الإسلامي قد تجاوز أزمته . وأجهز على عناصر الضعف فيه .

ونذكر مع هذا الالتزام العجيب النسوة الأربع اللاتي شاركن الحملة . فقد شاركن في البيعة كذلك ، وكأنه بأم عمارة رضي الله عنها ، وقد التمع بعينيها بريق أحد بعد أن تسلحت بعمود البيت وشدت السكين على وسطها وجددت بيعتها كما بايَت يوم العقبة . لتكون مع الصف المسلم المقاتل وهو لواء النسوة القليلات هن اللاتي شددن نظر عروة بن مسعود ، وكان مما قاله لقريش : (رأيت نسواناً معاً . إن كُنْ ليسلمنَّه أبداً على حال ) (١) .

ولم يفكر جندي واحد من هذا الصف القوي أن يعتب على قائداته عليه الصلاة والسلام الذي يطلب منه الآن البيعة على الموت ، وقد جاء به إلى العمرة ومنعه أن يهيء سلاحه .

ومن قوة هذا الالتزام كذلك أن نجد عبد الله بن أبي الذي جاءه وفد خاص من قريش يدعونه ليدخل مكة ويطوف بالحرم ، وكان بإمكان ابن أبي أن يهتب الفرصة . ويطوف بالكبعة في عز حرب قريش . لكن ظل ابنه عبدالله والموقف الرهيب الذي وقفه منه يوم المرسيع ووضع السيف على عنقه آنذاك عاد فارتسم أمامه . وابنه يذكره بالله فيما كان من زعيم النفاق إلا أن رضخ لهذا الجو العام ، وأحنى رأسه للعاصفة وقال :

لا أطوف حتى يطوف رسول الله .

وهذا درس عظيم للجماعة المسلمة تتعلم منه أصول الانضباط والسمع والطاعة للقيادة . وكانت البيعة هي محك الرجال فلم يتختلف منهم أحد بل سارع النساء إليها كذلك .

---

(١) امتاع الأسماع ج ١ : ٢٨٨ والنسوان : مع تقليل وتصغير للنسوة

والنقطة الأخيرة في هذا المجال وهي التي توجه بها لقيادة الحركة الإسلامية أن تستوعبها بعد درس القاعدة هي أهمية الجندي المسلم عند قيادته .

لقد قرر رسول الله ﷺ أن يشن حرباً على قريش مع من بايعوه على الموت ثاراً لجندي واحد من جنوده هو عثمان بن عفان عندما أشيع أنه قتل .

والجندي الذي يرى هذا الاهتمام من قيادته به ، وهذه الكراهة والحظوة له عندها، لا ضير أن يفتدي هذه القيادة بروحه ودمه وجوده وأعز ما لديه في هذا الوجود . ولا ضير إذن أن تغير القيادة موقفاً مصيرياً ثاراً لجندي من جنودها بعد أن علمها هذا الدرس رسول الله عليه الصلاة والسلام .

سابعاً : ونحن نعرض للصف الداخلي القوي لا بد أن نعرض للصلح نفسه كما تعرضه كتب السير .

( فلما اصطلحوا ولم يبق إلا الكتاب ، وثبت عمر رضي الله عنه . فقال : يا رسول الله : السنَا بال المسلمين ؟ قال رسول الله ﷺ : بلى . فقال : فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ فقال رسول الله : أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعني . فذهب عمر إلى أبي بكر رضي الله عنها فقال : يا أبي بكر ألسنا بال المسلمين ؟ قال : بلى ! قال : فلَمْ نعطي الدنيا في ديننا ؟ فقال : الزم غرزه فإنيأشهد أنه رسول الله . وأن الحق ما أمر به ، ولن يخالِف أمر الله ولن يضيعه الله . ولقي عمر من القضية أمراً كبيراً ، وجعل يردد على رسول الله ﷺ الكلام وهو يقول : أنا رسول الله ولن يضيعني ، ويردّ ذلك أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : لا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ما يقول ! تعوذ بالله من الشيطان واتهم رأيك ! فجعل يتغذى بالله من الشيطان الرجيم حيناً وكان المسلمين يكرهون الصلح ، لأنهم خرجوا ولا يشكون في الفتح لرؤيا رسول الله ﷺ أنه حلَّ رأسه وأنه دخل البيت فأخذ مفتاح الكعبة وعرف مع المُرَفَّين ، فلما رأوا الصلح داخلهم في ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون . . .

( وبين الناس قد اصطلحوا والكتاب لم يكتب . أقبل أبو جندل بن سهيل . . وقد أفلت يرسف في القيد متتوشع السيف . . ففرح المسلمين به وتلقوه حين هبط من الجبل فسلموا عليه وأووه فرفع سهيل رأسه فإذا بابنه أبي جندل ، فقام إليه فضرب وجهه بغضن شوك وأخذ بتلايبه فصاح أبو جندل بأعلى صوته : يا معاشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتوني في ديني ؟ فراد المسلمين ذلك شرًا إلى ما بهم وجعلوا ييكون لكلام أبي جندل . فقال حويطب بن عبد العزى لمكرز بن حفص : ما رأيت قوماً قط أشد حباً من دخل معهم من أصحاب محمد لحمد وبعضهم لبعض ! أما إني أقول لك لا تأخذ من محمد نصفاً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة ! فقال مكرز : وأنا أرى

ذلك وقال سهيل بن عمرو: هذا أول من قاضيتك عليه ردة! فقال رسول الله ﷺ إن المنقض الكتاب بعد فقال سهيل: والله لا أكتبه على شيء حتى ترده إلى فرده عليه، وكلمه أن يتركه، فأبى سهيل وضرب وجهه بغضن من شوك فقال رسول الله ﷺ. هبه لي، أو أجره من العذاب. فقال: والله لا أفعل، فقال مكرز وحويط: يا محمد نحن نجيره لك. فادخلاه فسطاطاً فأجاراه فكفت عنه أبوه ثم رفع رسول الله ﷺ صوته فقال: يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك فرحاً وخرجأ. إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيتكم على ذلك عهداً وإننا لا نغدر وعاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: ألسنت برسول الله؟ قال: بل! قال: ألسنا على الحق؟ قال: بل! قال: أليس عدونا على الباطل؟ قال: بل! قال: فلم نعط الدنيا في ديننا؟ فقال: إني رسول الله ولن أعصيه، ولن يضيعني. فانطلق إلى أبو بكر رضي الله عنه فقال له مثل ذلك. فأجابه بنحو ما أجاب به رسول الله ثم قال: ودع عنك ما ترى يا عمر فوثب إلى أبي جندل يمشي إلى جنبه وسهيل يدفعه وعمر يقول: اصبر أبا جندل، فإما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب! وإنما هو رجل، ومعك السيف. (يحرضه على قتل أبيه) وجعل يقول: يا أبا جندل: إن الرجل يقتل أباه في الله! والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم في الله فرجل برجل، فقال له أبو جندل: مالك لا تقتله أنت؟ قال عمر: نهاني رسول الله عن قتله وقتله، غيره، قال أبو جندل: ما أنت أحق بطاولة رسول الله مني! وقال عمر ورجال معه: يا رسول الله: ألم تكن حدثتنا أنك تدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة، وتعرف مع المعرفين؟ وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن! فقال: قلت لكم في سفركم هذا؟ قال عمر: لا فقال ﷺ: أما إنكم ستدخلونه؛ وأخذ مفتاح الكعبة وأحلق رأسي ورؤوسكم بيطن مكة وأعرف مع المعرفين، ثم أقبل على عمر فقال: أنسىتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في آخركم؟ أنسىتم يوم الأحزاب إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار؟ أنسىتم يوم كذا؟ أنسىتم يوم كذا؟ المسلمين يقولون: صدق الله ورسوله. يا نبي الله ما فكرنا فيها فكرت فيه.

( فلما حضرت الدواة والصحيفة بعد طول الكلام والمراجعة دعا رسول الله ﷺ أوس بن خولي يكتب، فقال سهيل: لا يكتب إلا ابن عمك علي، أو عثمان بن عفان، فأمر عليه فكتب فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: لا أعرف الرحمن. اكتب ما نكتب: باسمك اللهم فضاق المسلمون بذلك وقالوا: هو الرحمن. والله لا نكتب إلا الرحمن. قال سهيل إذن لا أقضيه على شيء، فقال رسول الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم. هذا ما اصطلاح عليه محمد رسول الله فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، واتبعتك، أفترغ عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله؟ فضح المسلمين ضحة هي أشد من الأولى حتى ارتفعت الأصوات وقام رجال يقولون: لا نكتب إلا محمد رسول الله! وأخذ أسيد بن حضير وسعد بن عبادة رضي

الله عنها بيد الكاتب فأمسكها و قالا : لا تكتب إلا محمد رسول الله ، وإلا فالسيف بيننا علام نعط  
الدنية في ديننا؟ فجعل رسول الله يخوضهم ويومئ لهم بيده : اسكتوا وجعل حويط يتعجب  
ما يصنعون ، ويقول لكرز : ما رأيت قوماً أحوط لدينهم من هؤلاء فقال رسول الله ص : أنا محمد  
بن عبد الله فاكتبه . . . ) .

( فلما فرغ رسول الله ص من الكتاب ، وانطلق سهيل وأصحابه قال :

قوموا فانحرروا وأحلقوا وحلوا فلم يجيء أحد إلى ذلك . فرددتها ثلاث مرات فلم يفعلوا  
فدخل على أم سلمة رضي الله عنها وهو شديد الغضب . فاضطجع ، فقالت : مالك يا رسول  
الله؟ مراراً وهو لا يجيبها . ثم قال : عجباً يا أم سلمة ! إني قلت للناس انحرروا وأحلقوا وحلوا مراراً  
فلم يجيئي أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامي ، وينظرون في وجهي . فقالت : يا رسول  
الله انطلق أنت إلى هديك فانحرف فإنهم سيقتدون بك . فاضطجع بشوبه وخرج فأخذ الحرابة ويم  
هديه ، وأهوى بالحرابة إلى البدنة رافعاً صوته باسم الله والله أكبر ونحر فتوائب المسلمين إلى  
المهدي ، وازدحموا عليه ينحرونه ، حتى كاد بعضهم يقع على بعض وأشرك ص بين أصحابه في  
المهدي . . فلما فرغ رسول الله ص من نحر البدن دخل قبة له من أدم حراء  
فيها الحلاق فحلق رأسه ثم أخرج رأسه من قبته وهو يقول :  
رحم الله المحلقين . قيل يا رسول الله ، والمقصرين ! قال : رحم الله المحلقين ! ثلاثة ثم قال :  
والقصرين ) (١)

هذا العرض المسهب يعطينا صورة بينة عن طبيعة هذا الصف العظيم بكل شعابه ومشاعره  
فنحن أمام وضع جديد كل الجدة ، وقد انتقل من التقى إلى التقى . وبعد أن ارتفعت موجة  
المد الشعوري الحماسي إلى أقصاه بالبيعة على الموت ، وبعد ذلك التزاحم والتلامس ، نجد الآن  
صورة معاكسة تتجه إلى المصالحة في شروط تبدو ظاهر الأمر بمعرفة بحق المسلمين أيها إجحاف  
وأضخم هذه الشروط وأثقلها على أعصاب المسلمين هي أن يرجعوا هذا العام عن مكة خاصة  
وهم على اعتاب مكة وقلوهم تتلذذ شوقاً للمسجد الحرام . وها نحن نرى عمر بن الخطاب يفقد  
أعصابه ، ولم يجرؤ أحد على إبداء هذا الانفعال غير عمر بن الخطاب .

إن عمر رضي الله عنه الذي لم تحمل أعصابه في أول لحظة من لحظات إسلامه التخفي في  
دار الأرق . واستأنذن رسول الله بنفس الصيغة التي يتحدث بها اليوم (الستنا على الحق؟ أليسوا على  
الباطل؟ ففيهم التخفي إذن؟) وما هو يقول الآن . فلم نعط الدنية في ديننا . وراح عمر يتنقل بين  
رسول الله ص وأبي بكر وأبي عبيدة رضي الله عنهم . والجواب يأتيه أن الوحي قد أمر بذلك .

---

(١) إماع الأسماع للمقرizi ج ١ مقتطفات من الصفحات ٢٩٢ حتى ٢٩٦

والضغط الثاني على أعصاب المسلمين كان من خلال رؤيا رسول الله ﷺ أنه دخل الكعبة وأخذ مفتاحها وأعرف مع المعرفين وهم يعلمون أن رؤيا الأنبياء حق.

والضغط الثالث على أعصاب المسلمين كان من خلال بروز أبي جندل على الساحة وهو يصرخ يا معاشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتوني في ديني. وأبواه يضربه بغضن الشوك. والمسلمون عليهم أن لا يحركوا ساكناً أمام هذا التحدي لمشاعرهم أمام نص المعاهدة.

والضغط الرابع على أعصاب المسلمين حين رفض سهيل بن عمرو أن يكتب باسم الله الرحمن الرحيم ولم لا ثور الدماء في العروق؟ وتشتعل الحرب الضروس للحفاظ على الرحمن الرحيم؟ ولم كانت هذه الحروب في السنوات التي خلت؟ إلا لإعلان الرحمن الرحيم في الأرض؟

والضغط الخامس على أعصاب المسلمين كان حين كتب اسم رسول الله ﷺ على الصحيفة. ورفض سهيل بن عمرو اسم رسول الله، وأعلن عن إلغاء المعاهدة لو ذكر.

والضغط السادس على أعصاب المسلمين كان من بنود المعاهدة المجنحة في ظاهر الأمر.

حيث أن عليهم أن يعودوا عن مكة هذا العام. وأنه جاء من أهل مكة مسلماً رده رسول الله ﷺ، ومن جاء من المسلمين إلى مكة مشركاً لم يرده المشركون.

هذه الضغوط جيئاً جعلت المسلمين في حالة نفسية صعبة لا يعلم مداها إلا الله، خاصة وهم يتحولون من المد الشعوري العالي بالبيعة على الموت. ونصر الله المقرب بدخول مكة والذي لا يشكون فيه طالما أن رسول الله قد حدثهم عنه.

حتى أن وفداً منهم كما مر لم يتمالك أن ذكر رسول الله ﷺ برؤيه، وكان على رأس هذا الوفد عمر رضي الله عنه الذي لم يفقد أعصابه كما فقدها اليوم، فأجا بهم عليه الصلاة والسلام : قلت لكم في سفركم هذا؟ قال : عمر. لا فقال ﷺ : أما إنكم ستدخلونه. وأخذ مفتاح الكعبة. وأحلق رأسي ورؤوسكم بيطن مكة. وأعرف مع المعرفين.

والدرس الذي نود ان تدركه القاعدة من هذه الأمور جيئا هو أنه ليس بإمكان القيادة دائمًا أن تعطي المبررات لتصرفاتها وأوامرها. والمطلوب من جنود الدعوة أن تكون ثقتهم بقيادتهم أكبر من ثقتهم بآرائهم وقناعاتهم. وليس بإمكان القيادة أن تفشي أسرار تصرفاتها للمستويات العامة. وحق جنود الدعوة هو إبداء الرأي والمشورة وبذل النصيحة وعليهم من طرف آخر السمع والطاعة فيما يحبون ويكرهون وفي العسر واليسر وفي المنشط والمكره.

وما برز من صحابة النبي ﷺ يعطي صورة واضحة عن هذا التصرف فرغم أن عمر رضي الله عنه فقد أعصابه. وأكثر من التساؤل لكنه لم يقم بأي تصرف أو مخالفة تحول دون تنفيذ أوامر

قائده عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن أصلاً يبيح لنفسه أكثر من ابداء الرأي قبل أن يسمع قول النبي عليه الصلاة والسلام .

ولا شك أنه كان متوراً للأعصاب من هذه المعاهدة ، وتحنى في قرارة نفسه لفشل الصلح ، وانقض القوم بدونه لكن ما كان له أن يتصرف أي تصرف يحقق هذا الغرض ، وحين عرض على أبي جندل أن يقتل أبيه وسأله أبو جندل : مالك لا تقتله أنت ؟ قال عمر : هاهي رسول الله ﷺ أن أقتل أحداً . فأجابه أبو جندل : ما أنت أحق بطاعة رسول الله مني .

وكلمته التي كررها مراراً هي التذكرة بالبنود المجنحة كما ظهر له من خلال قوله : فلم نعط الدنيا في ديننا .

وإذا وقفنا عند تصرف الصحابة أثناء كتابة الصحيفة عند الحديث عن البسملة . والرسالة نلاحظ أن رسول الله ﷺ ترك لهم إبداء الرأي قبل أن يعلن رأيه فأظهروا احتجاجهم وأعلنوا رفضهم . وأمسكوا بيد الكاتب لكن إشارة واحدة منه ﷺ كانت كفيلة بالصمت التام والقبول .

ولهذه القضية أثранان اثنان :

الأول : إشعار قريش قوة المسلمين واندفعهم واستعدادهم للمواجهة وال الحرب فليست المعاهدة عن ضعف أو تخاذل من الصفة .

الثاني : إشعار العدو كذلك مدى السمع والطاعة في هذا الصف المسلم الذي يتراجع عن رأيه أمام رأي رسول الله ﷺ أو قوله .

ولا بد من بروز هذين المعنين أمام العدو ليعرف حقيقة هؤلاء الجنود ، وقوة شكيتهم . فلا رسول له نفسه نقض العهد .

إن السمع والطاعة في المكره والعسر هو أعظم أثراً منه في حالة المنشط واليسير ، والذي يتلزم في المكره والعسر لا شك أنه ملتزم عندما يتغاضب الأمر مع حبه وقناعته واستعداده ، وهو المعنى الحقيقي للسمع والطاعة .

والدرس الذي نود أن نتوجه به إلى القيادات الإسلامية والمسؤولين في الحركة هو أن يرحموا أعصاب جنودهم حين لا يستطيعون تفسير الأوامر لهم .

وفي صلح الحديبية . وقادهم رسول الله ﷺ الموحى إليه من عند الله عز وجل ومع ذلك لم

تحتمل أعصابهم هذه الضغوط وانتهى الأمر بهم أن توقفوا عن تلبية نداء الرسول عليه الصلاة والسلام لهم بالإحلال.

انقض القوم ، وقعت المعاهدة ، وانتهى الأمر. الذي أصبح حقيقة واقعة . فلا دخول للحرام اليوم ولا حرب ولا مواجهة .

ولعلنا نقول أن الموقف الأخير، هو الموقف الوحيد الذي يصدر فيه أمر نبوي ولا ينفذ للتو .  
ومن أجل ذلك كان هم النبي ﷺ عظيماً على جنده الذين يهلكون إن خالفوا أمره ورفضوا تنفيذ توجيهاته .

ونؤكد أنه لا يوجد في الأرض قيادة معصومة أو قيادة يوحى إليها وبالتالي فعل القيادة أن تعذر الصف حين يتلکأ في أمر هو عكس قناعته . أو يتبايناً في تنفيذ قرار ينافق هواه . فإذا كان مجتمع الصحابة الذي هو خير المجتمعات الأرض لم يتمكن من الطاعة التامة بنفس الاندفاع السابق وقاده رسول الله ﷺ فلا غرابة أن يظهر مثل هذا التصرف في أي صف مسلم قيادته منه تخطئه وتصيب .

كما نشير كذلك في موطن استفادة قيادة الحركة الإسلامية من هذا الدرس إلى أهمية القدوة العملية من القيادة .

إن الأمر النظري حين لا تكون القيادة أسرع الناس لتنفيذها لن تستجيب القاعدة له ولقد أدركت أم سلمة رضي الله عنها هذا المعنى حين ذكرت لرسول الله ﷺ ضرورة الإحلال والحلق منه . واستجواب عليه الصلاة والسلام لاستشارة أم المؤمنين وخرج دون أن يتكلم بشيء فنحر بدنها ، وتسارع المسلمين للنحر ، وحلق رأسه وتسارع المسلمين للحلق .

فلم يعد لديهم عذر في احتمال تغير الرأي .

إن القيادة التي تريد طاعة جنودها لا بد أن تكون أسرع الناس في تنفيذ ما تأمر به أما إذا كان واقعها يخالف أوامرها فقد تستجيب القواعد مرة أو مرتين لكنها سترفض الأوامر في المرة الثالثة وتتخلى عن قيادتها وتدين لها ظهرها غير عابثة بالأمر . وتكون المسئولية في مثل هذه الظروف على القيادة نفسها لا على الجنود .

لقد شهدت الحركة الإسلامية في إحدى فصائلها صورة شبيهة بهذه الصورة حين استنفرت جنودها لمواجهة الطاغية . وتسارع الشباب من أقصى الأرض مليين النساء . وإذا بهم يشهدون انصرافاً عن المعركة في ظاهر الأمر إلى حلف سياسي مع خصوم تارixin هذه الحركة . وانسحب هذا التراجع الظاهري على الصف الداخلي فزلزل الصف وبقيت الحركة تعاني منه شهوراً طوالاً

وستين كذلك ولما تمح آثاره بعد.

والحقيقة أن الانضباط في كف اليد عن المعركة هو أصعب بكثير من التوجيه والدفع للحركة فنفسية الجندي المسلم هي نفسية شجاعة ترغب في مصارعة العدو وحربه لتحقيق موعد الله. وحين تأتي الأوامر إليه بكف اليد يحس أن الأمر كبت وختن له فيتندر وكثيراً ما تفقد الحركة الإسلامية النصر في معاركها حين لا تملك السيطرة على جنودها، وتحدد هي موعد المعركة ويلتزم شبابها بوضع اليد على الزناد فترة طويلة دون إطلاق.

نحن بحاجة أن نعيش هذه السيرة المطهرة جنوداً وقيادات ونعرف من خلالها الذي يجب علينا فئديه والذي يحق لنا فنطالب به.

وإذا كان تاريخ الدعوة لم يشهد اندفاعاً أعظم من الاندفاع نحو بيعة الرضوان. فهو كذلك لم يشهد تلکؤاً وتآزماً كما شهد يوم صلح الحديبية.

ولم يترك الله تعالى هذا الصنف المسلم في قلقه بعد أن أدى امتحانه العسير العسير. واستجاب لأوامر نبيه. بل جاء القرآن بعد ذلك ليهدى النفوس الشائرة ويشرح أبعاد المعاهدة. ويفكك للصنف المسلم أنها كانت الفتح المبين في تاريخ الدعوة بل كانت بداية عهد جديد فتحت أمامه آفاق وآفاق، وكان نقلة هائلة للدعوة غيرت مجرى التاريخ وبقي الصنف القوي الملتمز هو العدة الحقيقة للاستفادة من هذه الظروف

وندع الحديث عن هذا الصنف المسلم القوي للشهيد سيد قطب رحمه الله في الظلال ومن خلال حديثه عن سورة الفتح.

(هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين، وحديث مع المؤمنين مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التي بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها ويده فوق أيديهم فيها. تلك المجموعة التي سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله ﷺ: «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً»، وسمعت رسول الله ﷺ يقول لها: «أنتم اليوم خير أهل الأرض»<sup>(١)</sup> حديث عنها من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله ﷺ، وحديث معها من الله سبحانه وتعالى يبشرها بما أعد لها من مقامات كثيرة وفتح، وما أحاطتها من رعاية وعناية في هذه المرحلة. وفيها سيلوها، وفيها قدر لها من نصر موصول بستته التي لا ينالها التبدل أبداً.

(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي

عليهم، وأثابهم فتحا قريباً ومحانم كثيرة يأخذونها، وكان الله عزيزاً حكماً).

وإني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعين عام أن استشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم، إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين. أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكتون وهو يتقارب جميعه بالقول الإلهي الكريم عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود وأحاول أن أستشعر شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بذاتهم أنهم هم بأشخاصهم وأعيانهم يقول الله عنهم لقد رضي عنه وحدد المكان الذي كانوا فيه والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضا إذ يباعونك تحت الشجرة يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدق على لسان ربه العظيم الجليل.

يا الله ! كيف تلقوا - أولئك السعداء - تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي التبليغ الذي يشير إلى كل أحد في ذات نفسه ويقول له : أنت ، أنت بذاتك . يبلغك الله لقد رضي عنك وأنت تباع تحت الشجرة إذ علم ما في نفسك فأنزل السكينة عليك .

إن الواحد مناليقرأ ويسمع : «الله ولهم الذين آمنوا» فيسعد يقول في نفسه : ألس أطمع أن أكون داخلاً في هذا العموم؟ ويقرأ ويسمع : «إن الله مع الصابرين» فيطمئن ، ويقول في نفسه ألس أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون واحداً واحداً أن الله يقصده بعينه وبذاته . لقد رضي عنه اذ علم ما في نفسه ورضي عنها في نفسه .

يا الله ! إنه أمر مهول . . . .



## السورة الخامسة : الاعتراف الرسمي من الوثنية بدولة الإسلام

شهدنا في السورة الماضية الصف القوي . وها نحن نشهد الأن عظمة القيادة النبوية من خلال صلح الحديبية .

( . . . فلما جاء سهيل بن عمرو ، قال رسول الله ﷺ : سُهْلُ أَمْرِهِمْ ! فَقَالَ سَهِيلٌ يَا مُحَمَّدَ إِنَّهُذِيَّ كَانَ - مِنْ حَبْسِ أَصْحَابِكَ وَمَا كَانَ مِنْ قَاتِلِكَ - لَمْ يَكُنْ مِنْ رَأْيِ رَأْيِنَا بَلْ كَنَّا لَهُ كَارِهِينَ حِينَ بَلَغْنَا وَلَمْ نَعْلَمْ بِهِ ، وَكَانَ مِنْ سَفَهَائِنَا . فَابْعَثْتُ إِلَيْنَا بِأَصْحَابِنَا الَّذِينَ أَسْرَتْ أَوْلَ مَرَّةَ ، وَالَّذِينَ أَسْرَتْ آخِرَ مَرَّةَ . قَالَ : إِنِّي غَيْرُ مُرْسَلِهِمْ حَتَّى تُرْسِلُوا أَصْحَابِيَ . قَالَ : أَنْصَفْتَنَا . فَبَعَثَ سَهِيلٌ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى قَرِيشٍ فَبَعْثَاهُمْ بْنَ كَانَ عَنْهُمْ ، وَهُمْ عُثْمَانُ وَعَشْرَةً مِنَ الْمَهَاجِرِينَ وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ أَسْرَوْا وَكَانَ ﷺ يَبَايعُ النَّاسَ تَحْتَ شَجَرَةِ خَضْرَاءَ ، وَقَدْ نَادَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، إِنَّ رُوحَ الْقَدْسِ قَدْ نَزَلَ عَلَى الرَّسُولِ وَأَمْرَبَالْبَيْعَةِ ، فَأَخْرَجُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ فَبَايَعُوا . فَلَمَّا رَأَى سَهِيلَ بْنَ عَمْرَوْ وَمَنْ مَعَهُ وَرَأَتِ عَيْنُوْنَ قَرِيشَ سَرْعَةَ النَّاسِ إِلَى الْبَيْعَةِ وَتَشْمِيرِهِمْ إِلَى الْحَرْبِ اشْتَدَ رُعْبُهُمْ وَخَوْفُهُمْ وَأَسْرَعُوهُمْ إِلَى الْقَضِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ حِينَ بَايَعَ النَّاسَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ عُثْمَانَ ذَهَبَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ وَحَاجَةِ رَسُولِهِ . فَأَنَا أَبَايَعُ لَهُ . فَضَرَبَ بِيَمِينِهِ شَمَالَهُ . )

( وَرَجَعَ سَهِيلٌ وَحَوْيِطَبُ وَمَكْرُزُ فَأَخْبَرُوا قَرِيشًا بِمَا رَأَوْا مِنْ سَرْعَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى التَّنْعِيمِ فَأَشَارَ أَهْلُ الرَّأْيِ بِالصَّلْحِ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَيَعُودَ مِنْ قَابِلِ ( ۱ ) فَيَقِيمَ ثَلَاثَةَ فَلَمَّا أَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ أَعَادُوا سَهِيلًا وَصَاحِبِيهِ لِيَقْرِرُهُ . فَلَمَّا رَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ : أَرَادَ الْقَوْمُ الصَّلْحَ . وَكَلَمُ رَسُولِ اللَّهِ فَأَطَالَ الْكَلَامَ وَتَرَاجَعَا ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ . وَكَانَ ﷺ يَوْمَئِذٍ جَالِسًا مُتَرْبِعًا وَعَبَادُ بْنَ بَشَّرَ وَسَلْمَةَ بْنَ أَسْلَمَ مُقْتَعِنَانِ بِالْحَدِيدِ قَائِمَانِ عَلَى رَأْسِهِ فَلَمَّا رَفَعَ سَهِيلٌ صَوْتَهُ . قَالَا : أَخْفَضْ مِنْ صَوْتِكَ عَنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ! وَسَهِيلٌ بَارَكَ عَلَى رَكْبَتِهِ رَافِعًا صَوْتَهُ وَالْمُسْلِمُونَ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَلوْسًا . )

( . . . فَلَمَّا حَضَرَ الدَّوَاهُ وَالصَّحِيفَةَ - بَعْدَ طَوْلِ الْكَلَامِ وَالْمَرْاجِعَةِ - دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوْسَ بْنَ خُوَلِيَّ يَكْتُبَ ، فَقَالَ سَهِيلٌ لَا يَكْتُبُ إِلَّا أَبْنَ عَمِّكَ عَلَيْهِ أَوْ عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ فَأَمَرَ عَلَيْهِ فَكَتَبَ فَقَالَ : اكْتُبْ . . . )

( ۱ ) قَابِلٌ : الْعَامُ الْقَادِمُ

(باسمك اللهم، هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو اصطلاحاً على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكتف بعضهم عن بعض على أنه لا إسلام<sup>(١)</sup> ولا إغلال<sup>(٢)</sup>، وأن بيننا عيبة<sup>(٣)</sup> مكافحة، وأنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل. وأنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل. وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه رده محمد إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه. وأن محمدأً يرجع عنا عame هذا بأصحابه، ويدخل علينا من قابل في أصحابه فيقيم بها ثلاثة لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر، السيف في القرب).

شهد أبو بكر بن أبي قحافة، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح، ومحمد بن مسلمة، وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص وكتب على صدر الكتاب.

قال سهيل: يكون عندي، وقال رسول الله ﷺ بل عندي ثم كتب له نسخة وأخذ رسول الله ﷺ الكتاب الأول، وأخذ سهيل نسخته. ووثب من هناك من خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده ونحن على من وراءنا من قومنا. وثبت بنو بكر فقالوا: ندخل مع قريش في عهدها وعقدها، ونحن على من وراءنا من قومنا..

(ثم أذن رسول الله ﷺ بالرحيل، فلما ارتحلوا مطروا ما شاؤوا وهم صائفون<sup>(٤)</sup>، فنزل وزلوا معه فشربوا من ماء النساء. وقام ﷺ خطبهم فجاء ثلاثة نفر فجلس اثنان وذهب واحد معرضاً فقال رسول الله ﷺ: لا أخبركم خبر الثلاثة قالوا: بلى يا رسول الله قال: أما واحد فاستحيا فاستحي الله منه، وأما الآخر فتاب الله عليه، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه.

وبينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسير مع رسول الله ﷺ فسألته فلم يجبه. ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال: ثكلتك أمك يا عمر! بدرت رسول الله ثلاثة، كل ذلك لا يحييك! وحرك بعيده حتى تقدم الناس، وخشي أن يكون نزل فيه قرآن فأخذه ما قرب وما بعد لراجعته بالحدبية، وكراهته القضية. وبينما هو يسير مهموماً متقدماً على الناس، إذا منادي رسول الله ﷺ ينادي: يا عمر بن الخطاب! فوقع في نفسه ما الله به أعلم ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فسلم. فرد عليه السلام وهو مسرور ثم قال: أنزلت على سورة هي أحب إلى ما طلت عليه الشمس.

فإذا هو يقرأ: «إنا فتحنا لك فتحاً مبينا..» فأنزل الله في ذلك سورة الفتح فركض الناس وهم يقولون: أنزل على رسول الله! حتى توافقوا عنده وهو يقرؤها ويقال: لما نزل بها جبريل قال:

(١) الإسلام: السرقة الخفية والرشوة ويقال هو الغارة الظاهرة بسل السيف (٢) الإغلال: الخيانة

(٣) العيبة المكافحة: كنایة عن الصلح المعقود على الوفاء. (٤) صائفون: أقاموا بالمكان صيفاً أو مروا به.

(نَهِيْثَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَلِمَا هَنَاءَ جَبْرِيلَ هَنَاءَ الْمُسْلِمُونَ . . . )<sup>(١)</sup>

لقد كان اتجاه رسول الله ﷺ إلى المصالحة منذ اللحظة التي بركت فيها ناقته فقال الناس: خلات<sup>(٢)</sup> القصواء، خلات القصواء، فقال النبي ﷺ: ما خلات القصواء وما ذاك لها بخلاق، ولكن حبسها حابس الفيل. ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها).

والظاهر أن الوحي نزل على رسول الله ﷺ بالصلح مع العدو. لأن رسول الله ﷺ لم يستشر كما تشير النصوص أحداً في هذا الأمر، واكتفى باعلان هذا الاتجاه بعد بروك الناقة وفي ذلك إشارة دقيقة: حبسها حابس الفيل عن مكة. وهذا يعني أن احتمال الرجوع عن مكة وارد.

ومع وصول سهيل بن عمرو الذي تفأله به عليه الصلاة والسلام قائلاً: سهل أمرهم. وانتهاء المفاوضات الأولى بتبادل الأسرى بين الفريقين. لكن وصول هذا الوفد والبيعة على أشدتها كان المهماز الأخير في اتجاه قريش إلى الصلح، وكان هدفها الأول: ألا تتحطم سمعتها العسكرية، وتفرغ كرامتها بالتراب نتيجة دخول الرسول ﷺ مكة عنوة، أما بقية البنود فقابلة للأخذ والرد.

وبين رغبيتين جاختين: رغبة لقريش أن لا يدخل عليهم مكة هذا العام أبداً. ورغبة المسلمين أن يدخلوا مكة ويطوفوا بالبيت الحرام، ورجوعهم هو هزيمة عسكرية لهم.

بين هاتين الرغبيتين الجاختين كان النبي ﷺ يوازن بأفق أبعد وأماد أرحب. وهل من هزيمة أعظم من قبول قريش المصالحة وبعثه وفده بذلك. قريش قبل عام واحد تحاصر المسلمين مع من جيشت من العرب. وتأتيهم من فوقهم ومن أسفل منهم وهي اليوم تبعث وفداً للمصالحة مع المسلمين على مشارف مكة.

إنه نصر ساحق ولا شك والنصر الآخر هو أن تقف مكة على الحياد وتقف الم الحرب في جزيرة العرب وتفتح أبواب الجزيرة أمام المد الإسلامي.

إنه نصر ساحق ولا شك .

وأن يعود المسلمون في العام القادم ويدخلوا مكة باعتراف رسمي وحماية رسمية دون أن يتعرض لهم أحد بسوء.

إنه نصر ساحق ولا شك .

(١) مقتطفات من امتناع الأسماع للمقرئي ج ١ من الصفحات ٢٩١ و ٢٩٢ و ٢٩٧ و ٢٩٨ و ٣٠١ و ٣٠٢

(٢) خلات : بركت

وأن تفتح قريش صفحة جديدة مع المسلمين وتعترف بكيانهم ودولتهم، ويسود الأمن والود بين الفريقين. ويفتح باب الحوار الجديد مع قادة مكة من موقع القوة. إنه نصر ساحق ولا شك.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية: ماذا يعني إصرار المسلمين على دخول مكة عنوة. إن أول معانٍ، أن يكون الحقد والثأر هو الذي يطبع نفوس أهل مكة جيّعاً. وهذا يسدي إلى فترة غير قليلة باب الدخول في الإسلام أو التفكير به.

وما كان رسول الله ﷺ يغيب عن قلبه أبداً رغبته في إسلام أهل مكة. وهذه خسارة فادحة. وأن تقع معركة غير متكافئة يسقط فيها مئات الشهداء من المسلمين لدخول مكة. وهم فرة عينه وخيرة جنده، فهذه خسارة فادحة ثانية.

وأمام هذه التوازنات جيّعاً وبتسديد الوحي. كان رسول الله ﷺ ماضٍ في خطته، لا يراوده فيها أدنى شك نلحظ ذلك من خلال إيجابته الواضحة الصارمة لعمر بن الخطاب:

(أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني).

والملحوظ أن رسول الله ﷺ لم يفصح عما في نفسه إلا مضطراً وذلك أمام إلحاح المسلمين على دخول مكة. فأعاد لهم شريط الأحداث، ليتقلوا منه ومعه إلى النصر الجديد القادم.

(أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في آخركم؟ أنسىتم يوم الأحزاب، إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأ بصار وبلغت القلوب الحناجر، أنسىتم يوم كذا، أنسىتم يوم كذا؟ المسلمين يقولون: صدق الله ورسوله، يأنبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولانت أعلم بالله وبأمره منا).

وعودة إلى نصوص المعاهدة، نلحظ من خلالها أول اعتراف رسمي من قريش بدولة الإسلام. إنه اعتراف بالدولة وليس اعترافاً بالرسالة ومن أجل هذا ناقشوا كثيراً (الرحمن الرحيم) و(رسول الله) ولكنها الخطوة الأولى على الطريق وإيقاف الحرب عشر سنين تمهيء لرسول الله ﷺ وللمسلمين مجالاً رحباً للانطلاق بالإسلام إلى العرب كل العرب دون مقاومة أو مواجهة من أحد. فقد كانت العرب تتضرر بمصير الحرب بين الفريقين. واقفة على الحياد ولا يجرؤ أي تجمع عربي على الانضمام لأحد الفريقين خوفاً من غلبة الفريق الآخر، وإن كانت بعض القبائل العربية ظاهرت قريشاً على رسول الله ﷺ لكن تلك المظاهرة كانت منطلقة من الثقة المطلقة بقوة قريش. أما بعد الأحزاب، وبعد فشل الهجوم الضخم، إنفتحت التحالفات العربية في المنطقة ضد الإسلام، وأيس الناس من إمكانية القضاء على الإسلام ورسول الإسلام.

٣ - وأهم بند من بنود المعاهدة إنتهاء عنصر الخوف في الأرض العربية فمن أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه لقد فتح آفاق الدعوة على مصراعها دون وجل أو خوف من أحد، وهذا ما كان ي يريد رسول الله ﷺ منذ بداية الحملة.

(إنما نأت إلى قتال أحد، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه وقريش قوم قد أضرت بهم الحرب ونهاكتهم، فإن شاؤوا مادتهم مدة يأمنون فيها، ويخلون فيها بينا وبين الناس - والناس أكثر منهم - فإن ظهر أمري على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيها دخل فيه الناس، أو يقاتلوا وقد جموا والله لأجهذن على أمري هذا إلى أن تنفرد سالفتي، أو ينفذ الله أمره) (١).

٤ - والبندان الآخرين اللذان أثارا حفيظة المسلمين يجد الناظر لها لأول وهلة أنها بمحفان بحق المسلمين. لكن النظرة الأبعد. تؤكد أنها مصلحة المسلمين.

وأول هذين البندان :

« وأنه من أقَّ مُحَمَّداً مِنْهُمْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّ رَدِّهِ مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ ».  
ولا شك أن هذا البند فيه - في ظاهر الأمر - تخلٍ عن المستضعفين المؤمنين في مكة غير أن ما ذكره القرآن حولهم يؤكّد أن تأجيل المعركة مع قريش وتأخيرها هو لصالح هؤلاء المستضعفين في مكة .

« ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطهُّرُهم فتصيّبُكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله في رحمة من يشاء لو تزيلوا العذابنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً...» (٢)  
لأن الحرب لو اندلعت لتعرض المستضعfen في مكة للإيذاء بينما قامت هذه المعاهدة بتحقيق نصر معنوي لهم أعلم ما فيه العهد مع دولتهم بالموافقة.

ومع أن الإجحاف الجزئي من خلال هذا النص قد أثر قليلاً على أعصاب المسلمين لكنه ما لبث أن تعدل بعد أقل من شهرين. وذلك بعد خروج أبي بصير ومن معه من المسلمين إلى ذي المروءة بالساحل.

وثاني هذين البندان : (وأنه من أقَّ قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه)  
ورسول الله ﷺ مطمئن إلى المؤمنين عنده وكما قال لصحابه :  
(ومن جاءهم منا فلا رده الله)

(١) امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٨٦

(٢) الآية ٢٥ : الفتح

إذ ماذا يجدى وجود عبلاء لقريش في الصف المسلم أو منافقين يكيدون للإسلام؟

٥ - ورجوع رسول الله ﷺ عن مكة في ظاهره فشل لحملة الحديبية وفي حقيقته اعتراف رسمي بحق المسلمين بدخول مكة في العام القادم.

وكم الفرق بين نصر جزئي لن يصل له المسلمون دون مئات الشهداء والقتل من الفريقين.

وبين دخول رسمي لمكة من المسلمين باقرار المشركين.

وليس بعد قول الله تعالى قول . فلقد سمي الحديبية - جل شأنه - فتحاً مبينا . فقال عز من قائل :

(إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً، وينصرك الله نصراً عزيزاً) (١).

واقتضت هذه الآيات ، تهيئة أهل السماء على لسان جبريل عليه السلام ، وتهيئة أهل الأرض وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقد استدعاه رسول الله ﷺ من بين المسلمين جميعاً . ليتلوا عليه آيات الله ، ويسبّب الطمأنينة والسکينة والأمن في قلبه .

(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ولله جنود السموات والأرض . وكان الله عليّاً حكيمها) (٢).

يقول أبو بكر رضي الله عنه :

(ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية . ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه . والعباد يعجلون ، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب إلى رسول الله ﷺ بُدنَه . ورسول الله ينحرها بيده ! ودعا الحلاق فحلق رأسه فأناظر إلى سهيل يلقط من شعره ﷺ وأراه يصعبه على عينيه ! وأذكر إباءه أن يُقرّ يوم الحديبية بأن يُكتب باسم الله الرحمن الرحيم ! وإباءه أن يكتب أن حمدأً رسول الله ! فحمدت الله الذي هدأه للإسلام . فصلوات الله وبركاته على نبي الرحمة الذي هدانا به . وأنقذنا به من الهمزة) (٣).

والحركة الإسلامية اليوم بحاجة إلى أن تراجع رصيدها على ضوء هذه السمة وأن لا تشغلها

(١) سورة الفتح الآيات ٣-١

(٢) الآية ٤ من سورة الفتح

(٣) امتاع الأسماع ص ٢٩٦

النزوارات والانفعالات الجزئية عن الخطة العامة التي تجعل الهدف العام يضحي من أجله بالمنفعة القريبة العاجلة.

إن الانتقال بالدعوة إلى المجال السياسي بحيث تثبت وجودها فيه. بجانب الجهد العسكري الذي تبذله هو الذي يمكن لهذه الدعوة في الأرض. وإن الدعوة حين تسد في وجهها السبل، وتتوضع في عجلاتها العصي ، وينزل الاضطهاد بها من كل صوب، لا تجد أمامها معيلاً من اللجوء إلى القوة حتى تضرب جذورها في الأرض. لكن هذه القوة هي الوسيلة الناجعة للعودة إلى الحوار الفكري والمجال السياسي مع الخصوم. و تستطيع ان تتحقق ترافق ذينك الجانين معظم أهدافها. أما التخلّي عن واحد منها فهو خلل كبير تصاب به الدعوة.

لقد رأينا الحركات الإسلامية حين تعتمد على الحرية الديمقراطية دون سند لها من قوة. ولو وصلت إلى بعض الواقع، لكنها سرعان ما تخسرها لأن الباطل لا يرضى لها الغلبة وهو قادر على إزاحتها. وتجارب الحركة الإسلامية من خلال منح وزارة أو إعطاء قطاع من القطاعات حرية محدودة سرعان ما ينهار ذلك العطاء، وتحتّم ذلك الثمرات. كما أن اعتماد القوة وحدتها ونسيان هدف الدعوة الرئيسي واعتماد التحرك السياسي . سرعان ما يفصّم بينها وبين الناس ويوسع الهوة التي لا تردم بعد ذلك.

أما أن يكون الجانب الجهادي بجوار التحرك السياسي . وكلّاهما يخدمان دعوة الإسلام هو الطريق الطبيعي لتحقيق نصر الله.

يقول الزهري رحمه الله عن فتح الحديبية:

(فما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت المدنية، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقتوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر) (١).

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعين ألفاً في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بستين عشرة ألف.

ومن الآلاف العشرة يوم الأحزاب، إلى الآلاف العشرة يوم فتح مكة يظهر حقيقة هذا الفتح المبين.

ولا شك أن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استثمر هذا الفتح أعظم استثمار.

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ ص ٣٣٦ و ٣٣٧

والمؤمنون المجاهدون بحاجة إلى أن يستثمروا الواقع التي يربحونها أعظم استثمار.  
وها نحن نشهد في السمات التالية آثار هذا الاعتراف ونتائج هذا الفتح بحيث قلب  
الموازين كلها لصالح الإسلام والمسلمين.

(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله أمين مخلقين  
رؤوسكم ومقدسين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) <sup>(١)</sup>.



---

(١) سورة الفتح الآية ٣٧

## السورة السادسة: حرب المستضعفين

لقد بقي القلق يساور المسلمين على المستضعفين في مكة. ومنظر أبي جندل بن سهيل رضي الله عنه فت أكبادهم. غير أن قدوم أبي بصير رضي الله عنه قلب الموازين كلها لصالحهم وصالح دولة الإسلام الجديدة. ولنشهد مفهوم العهود الدولية. ومفهوم حرب العصابات من خلال هذه السمة:

(فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسد، وكان من حبس مكة. فلما قدم على رسول الله كتب فيه أزهر بن عبد عوف، والأخنس بن شريق [إلى رسول الله كتاباً مع خنيس بن جابر منبني عامر وخرج معه مولى له يقال له كوثر وفي كتابهما ذكر الصلح، وأن يرد عليهم أبا بصير، فقدمما بعد أبا بصير بثلاثة أيام فقرأ أبا بن كعب الكتاب على رسول الله ﷺ فإذا فيه: قد عرفت ما شارطناك عليه وأشهدنا بيننا وبينك من رد من قدم عليك من أصحابنا، فابعث إلينا ب أصحابنا. فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم ودفعه إليهما، فقال: يا رسول الله: أتردني إلى المشركين يفتوني في ديني! فقال: يا أبا بصير، إننا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت. ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً وخرجاً. فقال: يا رسول الله أتردني إلى المشركين! قال: إنطلق يا أبا بصير فإن الله سيجعل لك مخرجاً] (١) فانطلق معهما حتى إذا كان بذى الحليفة جلس إلى جدار وجلس معه أصحابه، فقال أبو بصير: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم قال: أرينه أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت، قال: فاستله أبو بصير، ثم علا به حتى قتلها، وخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد فلما رأه رسول الله ﷺ طالعاً، قال: إن هذا الرجل قد رأى فزعاً، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: ويحك مالك؟ قال: قتل صاحبكم صاحبى فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوضحاً بالسيف حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك أسلمتني يد القوم وقد امتنعت بديني أن أفتني فيه أو يبعث بي. قال رسول الله ﷺ ويل أمه عش (٢) حرب لو كان معه رجال (٣) [وقدم سلب العامري ورحله وسيفه ليخصمه رسول الله ﷺ. فقال: إني إذا خسته رأوا أني لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه. ولكن شأنك بسلب صاحبك. ثم قال لكونه: ترجع به إلى أصحابك؟ فقال: يا محمد مالي به قوة ولا يدان: فقال ﷺ

(١) بين المعرضين من امتع الأسماع للمقرizi ج ١: ٣٠٣

(٢) عش حرب: مسرع حرب وموقدتها

(٣) السيرة لابن هشام ج ٣: ٣٣٧ و ٣٣٨

فخرج حتى أتى العيص فنزل منه ناحية على ساحل البحر على طريق عير قريش إلى الشام وعندما خرج لم يكن معه إلا كف تمر فأكله ثلاثة أيام، وأصاب حيتاناً قد ألقاها البحر بالساحل فأكلها. وبلغ المسلمين الذين حبسوا بمكة خبره فتسللا إليه. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي كتب إليهم بقول رسول الله ﷺ لأبي بصير: ويل أمك محسن حرب لو كان معه رجال وأخبرهم أنه بالساحل فاجتمع عند أبي بصير قريب من سبعين مسلماً فكانوا بالعيص. وضيقوا على قريش، فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر عبر إلا اقتطعوها ومر بهم ركب يريدون الشام معهم ثمانون بعيراً فأخذوا ذلك وأصاب كل رجل منهم قيمة ثلاثين ديناراً، وكانوا قد أمروا عليهم أبا بصير. فكان يصلّي بهم، ويقرئهم ويجمعهم، وهم له سامعون مطيعون. فغاظ قريشاً صنيع أبا بصير وشق عليهم وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم إلا أدخل أبا بصير إليه ومن معه: فلا حاجة لنا بهم. فكتب ﷺ إلى أبا بصير أن يقدم بأصحابه معه فجاءه الكتاب وهو يموت. فجعل يقرأه ومات وهو في يده فدفنه. وأقبل أصحابه إلى المدينة وهو سبعون..).

(وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قد أسلمت بمكة، فكانت تخرج إلى بادية أهلها فتقسم أياماً بناحية التنعيم ثم ترجع حتى أجمعت على المسير مهاجرة. فخرجت لأنها تريد البدية على عادتها فوجدت رجلاً من خزاعة فأعلمه بإسلامها، فأركبها بعيره حتى أقدمها المدينة بعد ثمان ليالٍ. فدخلت على أم سلمة رضي الله عنها وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وتخوفت أن يردها رسول الله ﷺ. فلما دخل على أم سلمة أعلمه فرحب بأم كلثوم وسهّل ذكرت له هجرتها وأنها تخاف أن يردها فأنزل الله فيها آية المتنحنة.. فكان رسول الله ﷺ يرد من جاءه من الرجال ولا يرد من جاءه من النساء. وقد أخواها من غد قدمها الوليد وعمارة ابن عقبة بن أبي معيط فقالاً: يا محمد فِي لنا بشرطنا وما عاهدتنا عليه. فقال: قد نقض ذلك. فانصرفوا إلى مكة فأخبروا قريشاً فلم يبعثوا أحداً ورضوا بأن تحبس النساء) (٢).

إننا نشهد مبادئ حرب العصابات من خلال حادثة أبي بصير رضي الله عنه.

فلا بد لمن يفكّر بهذه الحرب أن يكون ذا إرادة قوية وعزيمة فولاذية وتفكير أبي بصير بالهروب من سجن قريش، وتنفيذ ذلك والهجرة إلى المدينة يعني أنه يملك التصميم على المقاومة إنها النفسية الحية التي ترفض الذل وتتأبى الهوان، وهذه هي نقطة الانطلاق الأولى في أية مقاومة مسلحة للطاغة في الأرض.

(١) امتناع الأسماع ج ١ . ٣٠٤

(٢) امتناع الأسماع ج ١ : ٣٠٥ و ٣٠٦

٢ - وكان من الممكن أن ينتهي أبو بصير رضي الله عنه لواكتفى بزيارة إلى المدينة وعودته إلى مكة مع صاحبيه اللذين جاءوا لاستلامه غير أن هذه الإرادة بزرت في الالحاد على قيادته أن لا يعود إلى الذل، وكان جواب النبي ﷺ :

إنه لا يحل في ديننا الغدر، فاصبر واحتسب فإن الله جاعل لك فرجاً وخرجأ.  
وها هو يتلقى مباديء ثلاثة من قيادة الدعوة:

المبدأ الأول: الوفاء بالعقود والمواثيق ولو مع المشركين المجرمين المعتدين.

المبدأ الثاني: إن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد، وهذا الأمر كان هذا الشرط الممحف.

المبدأ الثالث: الثقة بالله وموعده أنه لا بد من فرج وخرج بعون الله.

ولكنه لم يكن يدرى أنه هو صاحب الفرج والمخرج، إذ أعده الله تعالى لذلك.

٣ - ولعل إيحاءات إخوته في المدينة كانت أن لا يدع سبيلاً للمقاومة إلا ويسلكها، ومن أجل ذلك بيت في نفسه أمراً وهو القضاء على هذين الصاحبين اللذين جاءا لإعادته إلى ربة الذل والعبودية، وإعادته إلى قريش يفتونه في دينه، ونفذ ما عزم عليه في حيلة بارعة توصل بها إلى سيف العامر وقتلها به، ولحق بمولاه إلى المدينة.

٤ - وكانت الخطوة الثالثة من التصميم عندما جاء إلى رسول الله ﷺ قائلاً له : وفت ذمتك يا رسول الله، وأدى الله عنك، وقد أسلمتني بيد العدو، وقد امتنعت بيدي من أن أفتن، ويعبث بي أو أكذب بالحق .

وكانت هذه القوة الفتية من أبي بصير منطلقاً للتوجيه إلى الحرب الواسعة من خلال تخفيط حكم ومدد بالرجال بدلاً أن تكون مبادرة فردية أو نزوة طارئة .

وحتى تبرأ الذمة تماماً قال عليه الصلاة والسلام لكونه المولى الذي نجا: ترجع به إلى أصحابك فقال: يا محمد مالي به قوة ولا يدان فقال ﷺ لأبي بصير: إذهب حيث شئت.

لا بد من اختيار المكان، و اختيار الرجال، والتخطيط لحرب طويلة الأمد، لكن المدينة ليست هي الأرض المناسبة لهذه الحرب. فالمدينة ملتزمة بمواثيق دولية مع مكة. ولا بد من اختيار أرض مناسبة لهذه الحرب والرجال ليسوا من المدينة. الرجال هم من رعايا مكة نفسها والمكان لا بد أن يقض مضجع مكة. فكان ذا المروءة بالساحل.

ومن تمام الوفاء بالعقود والمواثيق الدولية من رسول الله ﷺ أنه رفض تحmis سلب العامر لأن هذا يعني الإعتراف بشرعية انتماه للمدينة وهذا الانتهاء غير شرعي . فلا بد من

البحث عن أرض أخرى، ورجال آخرين، ومضى أبو بصير بهذا الخط العام الذي رسمه له رسول الله عليه الصلاة والسلام.

٥ - ومضى رضي الله عنه بكف تمر أكله خلال ثلاثة أيام ، والتأثير الحقيقي لا بد أن يوطن نفسه على الجوع والعري والفاقة . وأن يتجلد على القسوة والشدة والمحنة . ثم جأ بعد انتهاء كف التمر إلى حيتان البحر . وزجل الثورة بحاجة إلى أن ينمّي الامكانيات الذاتية للثورة لا أن يكون اعتماده على المعونات الخارجية ، لأن هذه المعونات من المحتمل أن تنقض في كل لحظة ، أو تقطع وبالتالي يهلك بذلك .

٦ - لقد كان أبو بصير بحق قائد ثورة ، ومبادئه الثورة تتبع المواجهة المباشرة وغير المباشرة . وما احتال به على العامي لقتله وأخذ سيفه . خط إسلامي أصيل حين يجمع العدو على القضاء على الحركة الإسلامية وذلك بأن تلجمًا إلى التعميم والتغیر بالشخص لقتله وأخذ سلاحه .

والثورة الإسلامية حين تنطلق . تستطيع أن تتبع الأساليب المناسبة الناجعة مع أزلام الطغاة وزبانيتهم . لأنهم يعلمون الجريمة التي يساهمون بها .

٧ - والثورة الإسلامية التي شهدنا أبا بصير على رأسها ، تعذر الدول المرتبطة بمواقف ومعاهدات . ولا تخرجها حين تتحرك على أرضها وتتقيد تقيداً تاماً بمبادئه هذه الدولة وقوانينها . لقد رأينا أبا بصير وارتباطه بالإسلام ارتباط عقيدة ، وارتباطه برسول الله ﷺ ارتباط عقيدة وإيمان ، ومع ذلك لم يخرج رسول الله ﷺ بالتحرك على أرضه أو طلب المدد منه وقد تعلم هذا الدرس حين رفض رسول الله ﷺ حتى أن يخمس له سلبه .

وما أحوج الثورة الإسلامية إلى أن تدرك هذه المعاني وخاصة عندما لا يكون ارتباطها ارتباط عقيدة مع الدولة التي تتحرك في أرضها .

كما أن على شباب الحركة الإسلامية أن يدركون الظروف الصعبة التي تمر بها قيادتهم ، وتضطر إلى التخلّي عن معونتهم ومددهم لمصلحة الدولة ذاتها . فلقد وقع عليه الصلاة والسلام ميشاقاً من صلب نصوصه عدم حماية الشوار المسلمين ومددهم وإعادتهم وتسليمهم للدولة العدو لو جاؤوا إليه .

٨ - وكان الرصيد الحقيقي للثورة هم رجال مكة المسلمين المستضعفين الذين انضموا إلى أبي بصير واحداً تلو الآخر حتى بلغ عددهم سبعين رجلاً من المجاهدين والدرس الذي تستفيده

الثورة الإسلامية من هذا الحديث هو أن الرصيد الحقيقي للثورة هو من أبناء البلد الثائر. هذا هو الرصيد الحقيقي. ومن أجل ذلك لم ينضم لجيش الثورة رجل واحد من المسلمين في المدينة. لأنه جندي نظامي في دولة رسمية. أما المستضعون المسلمين في مكة فقد انضموا إلى أبي بصير عن بكرة أبيهم وكانوا هم أصحاب القضية وأبناؤها الأصلين والثورة التي تقوم وتعتمد في رصيدها على الرديف من الدول الأخرى لن يكتب لها النجاح.

٩ - و اختيار المكان المناسب للثورة ذو أهمية قصوى في نجاحها فصعب قريش هو التجارة و تجاراتها إلى الشام هي المحور الأول. ولم يرتفع الاختناق عنها إلا بعد صلح الحديبية. فإذا بها تفاجأ من جديد بعودة الإرهاب إلى الطريق، والقافلة إثر القافلة يباد رجالها وتتضى أموالها. فالموقع الاستراتيجي المناسب الذي يمكن الثورة من قطع شريان الحياة عن أعدائها هو الذي يجعل هذا العدو يلين ويرضخ أما إذا لم يشعر العدو أنه مهدد بحياته وجوده وأمنه فسوف يتحقق هذه الثورة ويبعدها عن آخر رجل فيها.

وكل ثورة لا تجد منطلقًا تنطلق منه إلى حدود العدو ستنتهي في النهاية إلى لاجئين سياسيين يعيشون على موائد الآخرين. وكل ما من شأنه أن يقسم ظهر العدو ويفل مقاومته هو من حق الثائرين سيان كان أهدافاً مدنية أو عسكرية وهدف الثورة هو رفع الظلم والاضطهاد عن المستضعفين. ولن يتراجع الطغاة عن طغيانهم ما لم يصابوا بأرواحهم وحياتهم وأموالهم وأمنهم، عندئذ يسقط في يدهم ويسخرون أنه قد أحيط بهم فيسلمون.

١٠ - وليس هدف الثورة الإرهاب والفتوك للإرهاب والفتوك، إن هدفها هو رفع الظلم والاضطهاد عن المسحوقين الملحقين بعقائدهم وفکرهم ومقدساتهم وحين يتمحقق الهدف تنتهي الثورة ومن أجل ذلك عندما استفحلا أمر الثوار المسلمين في الساحل. وعرفت مكة أنها على وشك الاختناق، وأن جبهة جديدة فتحت عليها تقض مضجعها وأمنها راحت إلى رسول الله ﷺ تستفاوض معه وترجوه وتسترجوه أن ينهي هذه الثورة ويضم هؤلاء المسلمين إلى جيشه النظامي. فيسري عليهم ما يسري على جيشه بالتزام الهدنة والصلح .  
ـ (وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم إلا أدخل إليه أبو بصير ومن معه. وتحقق هدف الثورة وانضم الثوار إلى دولة الإسلام ، وهم سبعون من المجاهدين الذين تزيلوا من صفوف العدو وقيزوا).

ولا بد أن نلاحظ حدود الثورة وطاقتها وإمكاناتها. فلم يكن هدف ثورة أبي بصير. هو

إسقاط نظام مكة والسيطرة عليه بمقدار ما كان هدفه هو ضم قوات المستضعفين إلى قيادتهم في المدينة. وحققت الثورة أهدافها، وقادتها على فراش الموت. وكتاب رسول الله ﷺ بيده أن يقدم بأصحابه معه. فمات قرير العين بتحقيق موعد الله تعالى له بالنصر والشهادة.

لكننا نرى تصرفًا آخر قامت به أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أعدى أعداء الله. لا يقل بطولة عن أبي بصير إذا رويت النسبة بين طاقات الرجال والنساء.

فأم كلثوم رضي الله عنها وقد خالطت بشاشة الإسلام قلبها وهي في بؤرة العداوة للMuslimين، خططت وغافت أهلها حتى استطاعت أن تجد رجلاً من خزاعة فسافرت معه مهاجرة إلى المدينة.

ويبدو فقهها رضي الله عنها في جانبين:

الجانب الأول: في التخطيط للهجرة حتى تخلص من جحيم أهلها ونار عداوتهم للإسلام.

الجانب الثاني: بحسن اختيارها لمن تنتقل معه فهي تعلم من بنود المعاهدة أن خزاعة هم حلفاء محمد ﷺ بعد الخديبية ومن أجل ذلك انتظرت حتى لقيت الرجل الخليفة محمد وانطلقت معه.

ويبدو فقهها رضي الله عنها كذلك حين نزلت عند أم سلمة رضي الله عنها، فهي تعلم من بنود المعاهدة أن على رسول الله ﷺ أن يعيد من يأتيه مسلماً من المدينة. فاختبرت عندها، وكانت الأقدار العجيبة، أن تنزل عند المهاجرة الأولى أم سلمة رضي الله عنها، والتي قامت بالغامرة نفسها قبل ست سنين أو سبع وفي الطريق نفسه، وحيدة فارة بدينها من مكة إلى زوجها في المدينة. والتقت المهاجرتان في بيت واحد. وفي بيت رسول الله ﷺ، وأعلم عليه الصلاة والسلام بالأمر فرحب بأم كلثوم. وجاء أمر الله تعالى أن لا تعود إلى مكة.

ونلاحظ من هذه المغامرة الجريئة أموراً تحتاجها الحركة الإسلامية حين تكون في مرحلة الثورة فالأصل أن لا ت safar المرأة إلا مع محروم. وهذا نحن نجد أم كلثوم رضي الله عنها ت safar مسيرة ثمان ليالٍ بدون محروم لأن محارمها أعداء الله. ولأن وجودها في محضنها الطبيعي بعيداً عن محارمها وتحت ظل دولة الإسلام هو الأصل.

وليس الأخ المسلم فقط هو الذي يؤمن على عرض المرأة المسلمة. بل كذلك الخليف المشرك

ولو رافقها في سفر طويل . لأن هذه الضرورة تقدر بقدرها والحركة الإسلامية وقيادتها لها الولاية على كل امرأة مسلمة تقع في بران العدو ولو كان هذا العدو أبيها أو أخيها أو زوجها لقد قرر الإسلام هذا المبدأ في هذا الظرف ، واعتبر رابطة الإسلام فوق رابطة الزوجية وذلك في قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تُرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ لِهِمْ بِحَلٍّ هُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصْمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوهُنَّ مَا أَنْفَقُتُمْ وَلَا يُسَأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَعْلَمُ بِمَا بَيْنَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعِاقِبَتِمْ فَاتَّوْا الَّذِينَ ذَهَبُوا إِلَيْهِمْ أَزْوَاجَهُمْ مُثْلُ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (١).

وكان رسول الله ﷺ على استعداد أن ينقض الاتفاق كله بأمر الله عز وجل لحماية المرأة المسلمة المهاجرة .

وما أروع هذا المعنى أن تفقهه المرأة المسلمة .

قيادة الإسلام على إستعداد أن تشن حرباً كاملة وتخسر أضخم الامتيازات لحماية إمرأة مسلمة مهاجرة مجاهدة .

وما كتبه عروة بن الزبير رضي الله عنه للزهري حول هذه الآية . ما يزيد المعنى وضوحاً وجلاء قال : إن رسول الله ﷺ كان صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يرد إليهم من جاء بغیر إذن وليه . فلما هاجر النساء إلى رسول الله ﷺ وإلى الإسلام أبى الله أن يُرددن إلى المشركين إذا هن امتحن بمحنة الإسلام . فعرفوا أنها جئن رغبة في الإسلام وأمر برد صدقاتهن إليهم إن احتبسن عنهم . إنهم ردوا على المسلمين صداق من حبسوا عنهم من نسائهم . ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله علیم حکیم . فأمسك رسول الله النساء ورد الرجال وسأل الذي أمره الله به أن يسأل من صدقات النساء من حبسوا منهن . وأن يردوا عليهم مثل الذي يردونه عليهم إن هم فعلوا . ولولا الذي حكم الله به من هذا الحكم لرد رسول الله النساء كما رد الرجال ، ولولا المدنة والعهد الذي كان بينه وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يردد لهن صداقاً . وكذلك كان يصنع بن جاءه من المسلمات قبل العهد .

لقد انتهت رابطة الزوجية بين المسلم والكافر وبين المسلمة والكافر ، وأصبحت العلاقة

(١) سورة المتحنة الآياتان ١١ ، ١٠

علاقة عقيدة فحسب لكن هذا لا يلغى الحقوق المالية بين الطرفين، ويمكن استيفاؤها بين الدولتين .

وهكذا نلحظ طبيعة الظروف التي تضطر الحركة الاسلامية أحياناً أن تتخل عن بعض البنود وطبيعة الظروف التي تضطر المرأة المسلمة أحياناً أن تتخل عن بعض الأحكام الجزئية تلافياً لخطر أكبر مثل قضية السفر مع حرم ومثل قضية الهرب من الزوج الكافر والأولياء الكافرين إلى أرض الإسلام وال المسلمين .



## السَّمَةُ السَّابِعَةُ :

### الاعلان العالمي للإسلام: ح رسالة الملوك والأمراء

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام .

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لا يقبلون إلا وعليه خاتم ، فاتخذ النبي ﷺ خاتماً من فضة ، نقشه : محمد رسول الله ، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر : محمد سطر ، رسول سطر ، والله سطر ، هكذا ، محمد رسول الله .

واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة ، وأرسلهم إلى الملوك وقد جزم العلامة المنصور فوري أن النبي ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خير بآيام . وفيها يلي نصوص هذه الكتب وبعض ما تم خضت عنه .

#### ١ - الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة :

وهذا النجاشي اسمه أصحمة بن الأبجر ، كتب إليه النبي ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري في آخر سنة ست أو في المحرم سنة سبع من الهجرة وقد ذكر الطبرى نص الكتاب ولكن النظر الدقيق في ذلك النص ، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذي كتبه ﷺ بعد الحديبية ، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة في العهد المكي ، فقد ورد في آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ ( وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءكم فأقرهم ودع التجير ) .

وروى البيهقي عن ابن اسحاق نص كتاب كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي وهو هذا: هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحح عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع المهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاية الإسلام ، فإني أنا رسوله أسلم تسلّم ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون ، فإن أبیت فإن عليك إثم النصارى من قومك .

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي أخذه النجاشي ، ووضعه على عينه ، ونزل عن سريره على الأرض ، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب ، وكتب إلى النبي ﷺ بذلك ، وهكذا نصه :

## بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته الله الذي لا إله إلا هو أما بعد :

فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقا ، إنه كما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقد قرينا ابن عمك ، وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين .

وكان النبي ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفرًا ومن معه من مهاجري الحبشة ، فأرسلهم في سفيتين مع عمرو بن أمية الضمري ، فقدم بهم على النبي ﷺ وهو بخير ، توفي النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك ونعيه النبي ﷺ يوم وفاته وصل عليه صلاة الغائب ، ولما مات وتختلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبي ﷺ كتاباً آخر ولا ندرى هل أسلم أم لا ؟

### ٢ - الكتاب إلى المقوس ملك مصر :

وكتب النبي إلى جريج بن متى الملقب بالمقوس ملك مصر والاسكندرية : «بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله رسوله إلى المقوس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم وسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأننا مسلمون» .

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة ، فلما دخل حاطب على المقوس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه رب الأعلى ، فأخذته الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك .

فقال المقوس : إن لنا ديناً لن ندعه لما هو خير منه .

فقال حاطب : ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقط ما سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما يشارء موسى بعيسى إلا كإشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إليك إلى القرآن إلا كدعائكم أهل التوراة إلى الانجيل ، فكل نبي أدرك قوماً فهم أمنه فالحق عليهم أن يطعوه ، وأنت من أدركه هذا النبي

ولسنا نهَاك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به .

فقال المقوقس : إني قد نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ووجدته معه آية النبوة بإخراج الخبراء والإخبار بالنجوى وسانظر .

وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حق من عاج ، وختم عليه ودفع به إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله ﷺ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » لِمُحَمَّدٍ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ الْمَقْوُقِ عَظِيمِ الْقِبْطِ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ ، أَمَا بَعْدُ ، فَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ ، وَفَهَمْتُ مَا ذَكَرْتُ فِيهِ ، وَمَا تَدْعُونِإِلَيْهِ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنْ نَبِيًّا بَقِيَ ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِالشَّامِ ، وَقَدْ أَكْرَمْتَ رَسُولَكَ ، وَبَعَثْتَ إِلَيْكَ بِجَارِيَتَيْنِ ، لِهِمَا مَكَانٌ فِي الْقِبْطِ عَظِيمٌ ، وَبِكْسُوَةٍ ، وَأَهْدَيْتَ إِلَيْكَ بَغْلَةً لِتَرْكِبَهَا ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .

وَلَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَمْ يَسْلِمْ ، وَالْجَارِيَتَانِ مَارِيَةٌ ، وَسَيِّرَيْنِ ، وَالْبَغْلَةُ دَلَالٌ بَقِيتَ إِلَى زَمْنِ مَعَاوِيَةَ ، وَاتَّخَذَ النَّبِيُّ ﷺ مَارِيَةً سَرِيَّةً لَهُ ، وَهِيَ الَّتِي وَلَدَتْ لَهُ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَمَّا سَيِّرَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا لَهُسَانُ بْنُ ثَابَتَ الْأَنْصَارِيَّ .

### ٣ - الكتاب إلى كسرى ملك فارس :

وَكَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى كُسْرَى مَلِكِ فَارِسِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كُسْرَى عَظِيمِ فَارِسِ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْمَهْدِيَّ ، وَآمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَشَهَدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَدْعُوكَ بِدُعَائِيَّةِ اللَّهِ إِلَيْهِ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَةً ، لِيَنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيَاً وَيَحْقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِيْنِ فَأَسْلِمْ تَسْلِمْ ، فَإِنْ أَبْيَتْ فَإِنْ إِثْمَ الْمَجْوُسِ عَلَيْكَ .

وَاخْتَارَ لِحْمَلِ هَذَا الْكِتَابَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَذَافِهِ السَّهْمِيَّ ، فَدَفَعَهُ السَّهْمِيُّ إِلَى عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ ، وَلَا نَدْرِي هَلْ بَعَثَ عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ رِجَالًا مِنْ رِجَالِهِ ، أَمْ بَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ السَّهْمِيَّ ، وَأَيَّاً مَا كَانَ فَلِمَا قَرَىءَ الْكِتَابَ عَلَى كُسْرَى مَزْقَهُ ، وَقَالَ فِي غُطْرَسَةٍ : عَبْدُ حَقِيرٍ مِنْ رَعْيَتِي يَكْتُبُ اسْمَهُ قَبْلِي . وَلَا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ : مَزْقُ اللَّهِ مَلْكُهُ ، وَقَدْ كَانَ كَمَا قَالَ . فَقَدْ كَتَبَ كُسْرَى إِلَى بَادَانَ عَامِلَهُ عَلَى الْيَمَنِ : إِبْعَثْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بِالْحِجَازِ رِجَالِيْنِ مِنْ عَنْدِكَ جَلَدِيْنِ ، فَلِيَأْتِيَنِي بِهِ فَأَخْتَارَ بَادَانَ رِجَالِيْنِ مِنْ عَنْدِهِ وَبَعْثَهُمَا بِكِتَابٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُهُ أَنْ يَنْصُرِفَ مَعَهُ إِلَى كُسْرَى . فَلِمَا قَدِمَ الْمَدِيْنَةَ ، وَقَابَلَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ أَحَدُهُمَا : إِنَّ شَاهِنْشَاهَ (مَلِكَ الْمُلُوكِ) كُسْرَى قَدْ كَتَبَ إِلَى الْمَلِكِ بَادَانَ يَأْمُرُهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْكَ مِنْ يَأْتِيَهُ بِكَ وَبَعْثَيَ إِلَيْكَ لِتَنْتَلِقَ مَعِي وَقَالَ قَوْلًا تَهْدِيَّا فَأَمْرَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَلَاقِيَهُ غَدًا .

وفي ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر ، فقد قام شирويه بن كسرى على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه ، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء العشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع وعلم رسول الله ص الخبر من الوحي . فلما غدا عليه أخبارهما بذلك . فقال : هل تدرى ما تقول ؟ إننا قد نقمنا عليك ما هو أيسر أفنكتب هذا عنك . ونخبره الملك . قال : نعم أخبراه ذلك عني ، وقولا له : إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحاfer ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك ، وملكتك على قومك من الأبناء فخرجا من عنده حتى قدموا على باذان فأخبراه الخبر . وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه وقال له شيرويه في كتابه : انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري .

وكان ذلك سبباً في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن .

#### ٤ - الكتاب إلى قيصر ملك الروم :

وروى البخاري ضمن حديث طويل نص الكتاب الذي كتبه النبي ص إلى ملك الروم هرقل وهو هذا :

«بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع المهدى ، أسلم تسلم ، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنما عليك أثم الأربعين (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون) .

واختار لحمل الكتاب دحية بن خليفة الكلبي ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى قيصر ، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجارة بالشام ، في المدة التي كان رسول الله ص ماداً فيها أبا سفيان وكفار قريش . فأتوا وهم باليلياء . فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً لهذا الرجل الذي يزعم أنهنبي ؟ قال أبو سفيان فقلت أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدناه مني ، وقربوا أصحابه فأجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبوني فكذبوا فوالله لولا الحياة من أن يأثروا على كذباً لكذبت عنه ..

ثم قال : أول ما سألني عنه أنه قال : كيف نسبة فيكم ؟ فقلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آباء من ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاءهم ؟ قلت : بل ضعفاءهم . قال : أيزيدون أم ينصرون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدینه بعد أن يدخل فيه . قلت

: لا قال : فهل تتهمنه بالكذب قبل أن يقول ما قال : قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها - قال : ولم تكنني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة - قال : فهل قاتلتكموه ؟ قلت : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إيه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباكم ويأمروا بالصلوة والصدق والعفاف والصلة . فقال للترجمان : قل له :

سألك عن نسبة فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها .  
وسألك هل قال أحد منكم قبله . فذكرت أن لا . قلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قبله . وسألك هل كان من آبائه من ملك . فذكرت أن لا فقلت : لو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه . وسألك هل كنتم تتهمنه بالكذب فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكتب على الله وسألك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاً لهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل ، وسألك أيزيرون أم ينقضون فذكرت أنهم يزيلون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تختلط بشاشته القلوب ، وسألك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر وسألك بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبنهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلوة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملئك موضع قدمي هاتين . وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظنه أنه منكم ، فلو أني أعلم أنني أخلص إليه لتجسمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده ، وكثير اللعنة ، وأمر بنا فأخرجنا ، قال : فقلت لأصحابه حين أخرجنا لقد أمرَ أمِّرُ ابن أبي كبشة ، إنه ليخافه ملوكبني الأصفر . فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله عليه الإسلام .

#### ٥ - الكتاب إلى المنذر بن ساوي :

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوي حاكم البحرين كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام وبعث إليه العلاء بن الحضرمي بذلك الكتاب ، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ : أما بعد يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود ، فأحدث إلى في ذلك أمرك . فكتب إليه رسول الله ﷺ :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد فإني أذكرك الله عزوجل فإنه من ينصح لنفسه وإنه من يطيع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد

نصح لي ، وإن رسلي قد أثنا عليك خيرا ، وإنني قد شفعتك في قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب ، فاقبل منهم ، وإنك منها تصلح فلم نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » .

٦- الكتاب إلى هودة بن علي صاحب اليمامة :

وكتب النبي ﷺ إلى هودة بن علي صاحب اليمامة :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هودة بن علي ، سلام على من اتبع  
الهدى ، واعلم أن ديني سيظهر إلى متنه الحف والحاfer ، فأسلم تسلّم ، واجعل لك ما تحت  
يديك » .

واختار لحمل هذا الكتاب سليمان بن عمرو العامري ، فلما قدم سليمان على هودة بهذا الكتاب مختوماً أنزله وحياه وقرأ عليه الكتاب فرد عليه رد دون رد وكتب إلى النبي ﷺ : ما أحسن ما تدعوه إليه وأجمله ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليمان بجائزه وكساه ثواباً من نسج هجر ، فقدم بذلك كلامه على النبي ﷺ فأخبره ، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال : لو سألكني قطعة من الأرض ما فعلت ، باد ، وباد ما في يديه ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هودة مات ، فقال النبي ﷺ : أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبئ بقتل بعدي ، فقال قائل : يا رسول الله من يقتله ؟ فقال : أنت وأصحابك ، فكان ذلك :

٧- الكتاب إلى الحارث بين أبي شمر الغسان صاحب دمشق :

كتب إليه النبي ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن به وصدق وإنني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يقظ لك ملوكك ». .

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة ، ولما أبلغه الكتاب قال :  
من ينزع ملكي مني ؟ أنا سائر إليه ، ولم يسلم .

## ٨ - الكتاب إلى ملك عمان :

وكتب النبي ﷺ كتاباً إلى ملك عمان جيفر وأخيه عبدا بنى الجلندي ، ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبدًا بنى الجلندي سلام على من اتبع المهدى ، أما بعد . فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلماً تسلماً ، فإني رسول الله ﷺ إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فإنكم إن أقررتُم بالإسلام وليتكم وإن أبيتم أن تقرأوا بالإسلام فإن ملوككم زائل ، وخيل تحمل بساحتكم وتنظير نبوي على ملوككم ».

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص<sup>(١)</sup> رضي الله عنه. قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا - فقلت: إني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم على بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ثم قال: وما تدعوه إليه؟ قلت: أدعو إلى الله وحده لا شريك له وتخليع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة قلت: مات ولم يؤمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووددت أنه كان أسلام وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام، قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريباً. فسألني أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم، قال: وكيف صنع قومه بذلك؟ فقلت: أقروه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب. قلت: ما كذبت وما نستحمله في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي، قلت: بل. قال: فبأي شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشي يخرج له خرجاً، فلما أسلم وصدق بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لا والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته بلغ هرقل قوله فقال له النباق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً ويدين بدين غيرك ديناً محدثاً؟ قال هرقل: رجل رجب في دين، فاختاره لنفسه، ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع قال: أنظر ما تقول يا عمرو؟ قلت: والله صدقتك. قال عبد: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عزوجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم. وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا، وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا الذي يدعونا إليه. لو كان أخي يتبعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصدق به، ولكن أخي أحسن بذلك من أن يدعه ويصير ذنباً. قلت: إن أسلم ملكه رسول الله على قومه. فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم، قال: إن هذا خلق حسن وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل. قال: يا عمرو وتوخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم. فقال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطعون لهذا، قال: فمكثت بياباه أياماً وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري، ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه. فأخذ أغوانه بضعي فقال دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس. فنظرت إليه فقال: تكلم ب حاجتك، فدفعت إليه الكتاب غافقاً، فقض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قرآن، إلا أنني رأيت أخي أرق منه، قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه، إما راغب في الدين وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم من هدى الله إياهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقى غيرك في هذه

(١) لا شك أن هذا الكتاب كان متاخراً، لأن عمرو رضي الله عنه أسلم قبيل الفتح.

الخريجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته تواثتك الخيل وتبعد خضراءك. فأسلم تسلم ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال قال: دعني يومي هذا، وارجع إلى غداً.

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو إني لأرجو أن يسلم إن لم يضن ملوكه حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لي ، فانصرفت إلى أخيه ، فأخبرته أن لم أصل إليه فأوصلي إليه ، فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي وهو لا تبلغ خيله هاهنا ، وإن بلغت خيله لقت قتلاً ليس كفتال من لاقى ، قلت: أنا خارج غداً، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه فقال: ما نحن فيها ظهر عليه ، وكل من أرسل إليه قد أجابه ، فأصبح فأرسل إلى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً ، وصدق النبي ﷺ وخليا بينه وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم وكان لي عوناً على من خالفني .

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيراً عن كتب بقية الملوك والأغلب أنه كان بعد الفتح .

وبهذه الكتب كان النبي ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض ف منهم من آمن به، ومنهم من كفر ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين وعرف لديهم باسمه ودينه ..

إن الرسائل المذكورة تفصح عن نفسها ولا تحتاج إلى تعليق .. فهذه الحركة العالمية نقلت الإسلام من المحيط المحلي إلى المحيط العالمي . وهزت عروش ملوك ، وأدخلت ملوكاً في الإسلام ، ووجهت بعض الملوك إلى الحرب ، وما كان هذا الأمر ليتم قبل صلح الحديبية . حيث أصبحت الدولة الإسلامية هي الدولة الأقوى في جزيرة العرب بلا منازع . وانهاء الحرب الطاحنة كان إيذاناً بالتفرغ إلى الدعوة وتبلیغها للناس كافة ، والإشارة التي لا بد منها في هذا الصدد هي أن رأياً قد يرد بخطورة هذه الرسائل على الدولة الإسلامية الفتية . التي توجه الأنظار نحوها ، وخصوصاً إلى كسرى وقيصر . وقد جرى ذلك في تخوم الشام ولدى كسرى الفرس الذي مزق الرسالة واستدعى محمداً ﷺ حياً أو ميتاً . وهل بإمكان المدينة أن تواجه دول الأرض؟

ولا بد من إيضاح هذه النقطة بأن تبلغ الدعوة في الوقت المناسب وحي رباني والله تعالى هو الذي يتکفل بحماية دينه . فحين كانت المدينة عاجزة عن مواجهة دولة الفرس الكبرى هيأ الله تعالى لحماية نبيه ودعوته انقلاباً عالمياً على كسرى . أدى هذا الانقلاب لقتل الحاكم الطاغية وتراجع ابنه عن موقف أبيه من محمد ﷺ كما يقول نص الكتاب (انظر الرجل الذي كتب فيه أبي إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرني) . وكان من طرف آخر فتحاً جديداً بإسلام باذان عامل الفرس على اليمن ودخول أهل اليمن في الإسلام .

وقد اشتراك في هذا الخطر على الدولة الإسلامية الحارث بن أبي شمر الغساني الذي هدد

بغزو المدينة، ومن أجل ذلك كانت الاستعدادات العسكرية مرفقة للتحرك السياسي فكانت سرية مؤتة والصدام مع الروم فلا بد من تحمل تبعات الرسالة وكان تحرك سرية مؤتة ثاراً للرسول الذي قتل على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني.

بينما اشترك في موقف المراوغة والهادنة قيصر الروم ومقوقيس مصر، والذي حال بينها وبين الإسلام هو خوفهما على ملكهما وجزعهما من الرعية أن تثور عليهما، ولعل ما نقله أبو سفيان رضي الله عنه عن لقاء قيصر يعطي صورة واضحة وصادقة عن تصديق قيصر لرسول الله وكيف نخرت الرهبان بعد ذلك وهددهو لو أسلم بحربه.

ودخل الإسلام نجاشي الحبشة وحاكم البحرين وملك عمان.

وراوغ صاحب اليمامة وأراد أن يشتراك في الغنيمة والرسالة فأهلكه الله تعالى بعد ذلك.

ولعل من أهم آثار الكتب غزو أبي سفيان من داخله وقد ساقه قدر الله إلى بلاط قيصر ليسمع رأيه بمحمد صلوات الله وسلامه عليه وقرع أذنه قول قيصر: (فلو أني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه).

والأشد من هذا على أبي سفيان قول قيصر (فإن كان ما تقوله حقاً فسيملكك موضع قدمي هاتين) وأبو سفيان يدرى أنه قال الحق كل الحق رغم أنفه. وكان يحسب أن تهويته من شأن محمد وأتباعه سوف يدفع قيصر للاستهانة بخصمه. لكنه يفاجأ بأن هذا التهوي زاد قناعة قيصر بنوة محمد. وكان الغزو الداخلي لأبي سفيان حيث اعترف بذلك قائلاً: (لقد أمر أمراً بن أبي كبشة أن تخافه ملوك بني الأصفر. فما زلت موقناً بأمر رسول الله صلوات الله عليه وسلامه أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام). إن التحرك السياسي الذي تقوم به الحركة الإسلامية يجب أن يهدف أول ما يهدى إلى تبليغ دعوة الله إلى حكام الأرض وملوكهم. ولو كلفت هذه الدعوة الحركة الإسلامية عتناً وحرجاً إن من الخيانة لدعوة الله وشرعيته أن تبارك الحركة الإسلامية أنظمـة الكفر أو توحي إليهم أن أنظمـتهم هي الإسلام بعينـه، وأن شريعة الله تبارك طغيانـهم وظلمـهم وحكمـهم بغير ما أنزل الله. وهذه الرسائلـ التي بين أيديـنا تعلـمنـا طريـقة الدعـوة إلى الله بالحكـمة والموـعظـة الحـسنة لا بالسبـاب والتـحدـي.

ولا بد أن نوضح الخط الفاصل بين قضيتين :

القضية الأولى: أسلوب التعامل مع الحاكمـين، وحسن اختيار الكلمة المناسبـة، والضرب على الأوتـار النفسـية لهم، والاستفادة من الواقع العمـلي.

القضية الثانية : خلط الحق بالباطل. ومداهنتـهم على كفرـهم، ومبـاركة طـغيـانـهم وـطـمسـ

معالم الاسلام . والتزلف لهؤلاء الحكام بجعل الإسلام وشريعة الله أدلة لتقرير ظلمهم ، وعدم القدرة على التفريق بين هاتين النقطتين . يمزق الصفة المسلم ، ويفجره .

فلقد رأينا هذه الرسائل تخاطب الملوك بألقابهم . ولكنها لا تقدمهم أبداً على رسول الله وهذه القضية البسيطة هي التي فجرت غيظ كسرى (عبد حقير من رعيته يكتب اسمه قبلي) فلم يكن حرجاً أن نجد في نص الكتاب : عظيم فارس وعظيم القبط ، والنجاشي ، وعظيم الروم ونلاحظ كذلك في قضية الدعوة أن فكرة الوحدانية والرسالة لا بد من أن تكون واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض حتى إذا أدى الأمر إلى التحديد حتى لا تطمس معاناتها فلا بد من ذلك . حيث يكون الأمر جلياً في رفض عبادة الأوثان لمن يعبد الأوثان . ورفض عبادة الصليب لمن يعبد الصليب .

غير أن هذا الإيضاح الجلي للشهادتين . كان يرافقه كثيراً الحديث عن المبادئ الإسلامية الخلقة من الصدق والعفاف والصلة وغير هذه الأمور التي يتلقى عليها الناس . ونلاحظ كذلك أن رسول الله ﷺ كان يضرب على الأوّلار النفسية التي يخشها الحاكمون ، فكانت رسالته تطمئن هؤلاء الحاكمين على ملكهم ، وأنه سيحفظ لهم إذا دخلوا في الإسلام ، حتى أولئك الذين عادوا الإسلام وحاربوه ، لم يكن الغيظ أو الحقد ليغير هذه السياسية بل كان إكرامهم هو الأساس بعد دخولهم بالاسلام أو حتى بعد انقطاعهم عن حربه .

لقد كانت هذه الرسائل منعطضاً كبيراً وخطيراً في تاريخ الإسلام . وسمة عظيمة من سماته . حيث ربطت المسلمين بالعالم كله ، بين تأييد أو بيعة أو مواجهة وكانت ثمرة عظيمة من ثمار الفتح المبين الذي حدثنا الله تعالى عنه والانتقال من الحرب الضروس على الأرض المحلية إلى تجاوب ملوك الأرض مع الإسلام هو نقلة واسعة بعيدة المدى هائلة الآفاق . وجاءت في وقتها المناسب بعد أن أعلنت قريش هدنتها لعشر سنين لتيح لدولة الإسلام أن تأخذ أبعادها وجزورها في الأرض كالكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء .



## السَّمَةُ الثَّامِنَةُ: تَجْمُعُ الْقُوَىٰ وَالثَّقَةُ بِالنَّصْرِ

وتتضح هذه السمة من خلال التوجيه النبوى لجمع هذه القوى :

وقدم أهل السفيتين من عند النجاشي بعد أن فتحت خيبر فيهم جعفر بن أبي طالب وأبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري ، في جماعة من الأشعررين يزيدون على سبعين وذكر ابن سعد عن الوادى بسنده ، إنهم لما سمعوا خبر هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ورجع معهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثمانى نسوة ، فمات منهم رجلان بمكة ، وحبس بمكة سبعة نفر ، وشهد بدرًا منهم أربعة وعشرون رجلاً . فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من الهجرة كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام مع عمرو بن أمية الضميري ، فأسلم ، وكتب إليه أيضاً أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان - وكانت فيمن هاجر إلى الحبشة - فزوجه إياها . وكتب إليه أيضاً أن يبعث ابنه بقى عنده من أصحابه ويحملهم . فحملهم في سفيتين مع عمرو بن أمية فأرسوا بساحل بولا وهو الجار ، ثم ساروا حتى قدموا المدينة ، فوجدوا رسول الله بخير فاتوه فقال ﷺ : ما أدرى بأيها أنا أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ثم ضمه وقبل ما بين عينيه ، وهم المسلمون أن يدخلوا جعفراً ومن قدم معه في سهما منهم فعلوا ، وقدم الدوسيون فيهم أبو هريرة والطفيلي بن عمرو الدوسى وأصحابهم ، ونفر من الأشعررين ، فكلم رسول الله ﷺ أصحابه فيهم أن يشركوهm في الغنيمة فقالوا : نعم يا رسول الله )١( .

لقد مرت الهجرة إلى الحبشة بمراحل ثلاث :

الهجرة الأولى : وكانت في السنة الخامسة . وعدد المهاجرين قليل . وعادوا في السنة السابعة عندما تناهى إلى أسماعهم خبر إسلام أهل مكة ، وكان خبراً غير صحيح .

الهجرة الثانية : وبلغ عدد المسلمين فيها ثمانين ما بين رجل وامرأة . وهو تجمع في عدده قريب من تجمع المسلمين في مكة ، وكما ذكر ابن سعد إنه قرابة ثلث هذا التجمع قد غادر الحبشة عقب الهجرة ، وحضر منهم بضعة وعشرون غزوة بدر .

العودة الأخيرة : وكانت بدعوة رسمية من رسول الله ﷺ عن طريق النجاشي . ولا شك أن جعفراً رضي الله عنه لا يغيب عن ذهن رسول الله . ومدى الحاجة الماسة إليه في المعارك الضارية مع قريش . ومع ذلك لم يستدعي النبي ﷺ وصحبه مع حرصه عليه الصلاة والسلام أن يكون أقرباؤه هم وقود المعارك ، والذادة عن حمى الإسلام .

(١) إمتناع الأسماع . ج ١ : ٣٢٥ و ٣٢٦

ولقد كان لمصرع حزة رضي الله عنه في أحد أعظم الأثر على رسول الله ﷺ وقال عنه : لن أصاب بمثلك أبداً ، وقال : ما وقفت موقفاً قط أغrieve لي من هذا . وبقي من أقاربه الأدرين على رضي الله عنه ، وعندما بز لعمرو بن عبدود في الخندق يُروى أنه قال عليه الصلاة والسلام : رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين ، ويؤكد حرص الرسول ﷺ على أن يكون أهله معه في المعركة . ما رأينا في مؤنة إذ أنه في أقل من أشهر كان جعفر على رأس المجاهدين في مؤنة وأحد الأمراء الثلاثة .

وحاجة رسول الله ﷺ إلى المجاهدين من صحبه وأهله المهاجرين كانت حاجة ماسة ومع ذلك لم يستدعهم وتفسير ذلك والله أعلم - يعود إلى حرص النبي ﷺ على إبقاء مراكز احتياطية للدعوة يمكن الانتقال إليها لو فقدت المدينة ، وكان احتمال تعرض المدينة لهجوم مباغت كاسع قائماً في كل لحظة . ومن أجل هذا بقي الأشعريون في اليمن ، والدوسيون في دوس ومهاجروا الحبشة في الجبنة ، والغفاريون في غفار بقي هؤلاء جميعاً قوى احتياطية لتابعة المعركة فيها لو فقد موقع من هذه الواقع .

ولا شك أن الحبشة هي موقع غير استراتيجي للمواجهة وبين الأبعدين الغرباء لكنها بصفتها مركزاً آمناً وملجأً للدعوة هي من خير الواقع لذلك . خاصة وأن التجاشي ملكها قد أسلم سراً وبايع رسول الله ﷺ .

أما بعد صلح الحديبية ؛ فقد اختلف الأمر ، وزال الخطر عن المدينة ، وأمن الناس ، وأناحت المهدنة للمحيط العربي والعالمي أن يفقه الإسلام في هذه المرحلة استدعاي رسول الله ﷺ رصيده الاحتياطي . إذ لم يعد بحاجة إليه في اليمن أو الحبشة . بل صار بحاجة ماسة إليه ليشارك في الجبهات الجديدة المفتوحة خارج جزيرة العرب ، ومع غير العرب من الروم والفرس .

وهذا درس مهم يحسن أن تقف أمامه الحركة الإسلامية طويلاً ، وهي تخوض حروتها مع الطغاة أن لا تكون قوتها جميعاً في موقع واحد .. فإذا ضرب هذا الموقع انتهت - لا سمح الله - بل لا بد لها أن تبحث عن أكثر من مكان آمن ، وأكثر من قاعدة احتياطية . فإذا تغيرت الظروف الصعبة وكشفت المحنـة وصارت المواقع كلها آمنة ومرتكز للدعوة تستطيع عندئذ أن تبني بعض المراكز . أو تستقطب القوى حول المركز الرئيسي الذي يردد كل المراكز الثانوية والتمكن في الأرض هو الذي يتبع المجال مثل هذه الخطوة .

يقول الشهيد سيد رحمة الله :

ومن ثم كان بحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة ، قاعدة تحمي هذه العقيدة ، وتكتفـل لها الحرية ، ويتأسـح لها أن تخلص من هذا التجميد الذي انتهـت إليه في

مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة... وهذا في تقديري كان هو السبب الأهم والأول للهجرة.

ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب ، لتكون قاعدة الدولة الجديدة عدة اتجاهات سبقها الاتجاه إلى الحبشة ، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل ، والقول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية . فلو كان الأمر كذلك هاجر إذن أقل الناس جاهًا وقوه ومنعه من المسلمين غير أن الأمر كان على الضد من هذا ، فالمواли المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا إنما هاجر رجال ذوو عصبيات لهم من عصبيتهم في بيته قبلية ، ما يعصيهم من الأذى ، ويحميهم من الفتنة ، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين منهم جعفر بن أبي طالب وأبوه وفتیان بني هاشم معه هم الذين كانوا يحمون النبي ﷺ - و منهم الزبير بن العوام - وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سلمة المخزومي وعثمان بن عفان الأموي .. وغيرهم ، وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة ما كان الأذى ليناهن أبداً ، وربما كان من وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة في أوساط البيوت الكبيرة من قريش وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم ، مراراً من الجاهلية تاركين وراءهم كل وسائل القرب ، في بيته قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزاً عنيفاً وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة بنت أبي سفيان زعيم الجاهلية وأكبر المتصدرين لحرب العقيدة الجديدة وصاحبها . ولكن مثل هذه الأسباب لا ينفي احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة ، أو آمنة على الأقل للدعوة الجديدة ، وبخاصة حين نضيف إلى هذا الاستنتاج ما ورد عن إسلام نجاشي الحبشة . ذلك الإسلام الذي لم يمنعه من إشهاره نهائياً إلا ثورة البطارقة عليه كما ورد في روايات صحيحة<sup>(١)</sup> .

ويؤيد ما ذهب إليه سيد رحمه الله إنه مجرد ظهور القاعدة الآمنة والعاصمة الجديدة غادر حوالي ثلث المهاجرين إلى المدينة وبقيت الأكثريّة منهم هناك حفاظاً على هذه القاعدة بأمر رسول الله ﷺ . إلى أن زال الخطر ، وأمن الناس ، وقويت شوكة المسلمين بحيث أصبحت مستعصية على الإبادة كما يقول عليه الصلاة والسلام : الآن نغزوهم ولا يغزونا أمكن عندها استدعاء الجالية الإسلامية في الحبشة لتمارس دورها الفعال في الجهاد في المعارك القادمة .

وحرى بنا أن نقتفي أثر هذا الهدي النبوي ، ونتعلم ونحوه هذا المجتمع . أن نرعى هذا الجانب ، ولا نضع البيض في سلة واحدة كما يقول المثل فيتهي الوجود الحركي والعياذ بالله .

(١) في ظلال القرآن ج ١ ٢٤٥ و ٢٥٦ ط الخامسة.

## السورة التاسعة

### اء لئه الوجود الکھوی فی جزیرة العرب، غزوہ خیبر

كان مما وعده الله تعالى به المؤمنين في سورة الفتح ، قوله عز وجل :

«لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبایعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم ، وأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومعانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكياً»(١).

وستأخذ تلخيص المبار كفوري عن الغزوة فهو من أشمل ما كتب عنها وأوفاه :

(كانت خير مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة في جهة الشمال ، وهي الآن قرية في مناخها بعض الوعامة .

**سبب الغزوة :** ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب ثلاثة وأمن منه أمناً باتاً بعد الهدنة أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمن والسلام ، ويُسوذ المذوء في المنطقة ، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خير هي وكرة الدس والتآمر ، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب ، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولاً .

أما كون خير بهذه الصفة ، فلا ننسى أن أهل خير هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي - وبغطfan وأعراب البادية - الجناح الثالث من الأحزاب - وكانوا هم أنفسهم يهؤون للقتال فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ وإزاء ذلك اضطر المسلمين إلى بعوث متواتلة وإلى الفتوك برأس هؤلاء التآمراء ، مثل سلام بن أبي الحقيق ، وأسير بن رزام ، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك وإنما أبطأوا بالقيام بهذا الواجب لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعنده منهم - وهي قريش - كانت مجاهدة للمسلمين ، فلما انتهت هذه المجاهدة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء الجرميين ، واقترب لهم يوم الحساب .

الخروج إلى خير : قال ابن اسحاق : أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم : ثم خرج في بقية المحرم إلى خير .. فلما أراد رسول الله الخروج إلى خير . أعلن أنه لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد ، فلم يخرج إلا أصحاب

(١) سورة الفتح الآياتان ١٩ و ٢٠

الشجرة وهم ألف وأربعين . . . وقد قام المنافقون يعملون لليهود فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي إلی یہود خیر ، إن حمداً قصد قصدكم وتوجه إليکم فخذوا حذركم . ولا تخافوا منه ، فإن عدكم وعدتكم كثيرة ، وقوم محمد شرذمة قليلون ، عزٌ لا سلاح معهم إلا قليل ، فلما علم ذلك أهل خير ، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق ، وهوذة بن قيس إلى غطفان يستمدونهم لأنهم كانوا حلفاء یہود خیر ، ومظاهرين لهم على المسلمين وشرطوا لهم نصف ثمار خير إن هم غلبوا على المسلمين .

**الجيش الإسلامي إلى أسوار خير :** بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريباً من خير ، ولا تشعر بهم اليهود ، وكان النبي ﷺ إذا آتى قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح ، فلما أصبح صل الفجر بغلس ، وركب المسلمون فخرج أهل خير بمساحتهم ومكانتهم ولا يشعرون بل خرجوا لأرضهم فلما رأوا الجيش قالوا : محمد ، والله محمد والخمس ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم ، فقال النبي ﷺ ، الله أكبر خربت خير - الله أكبر خربت خير . إنما إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المذرين (۱) .

**التهيؤ للقتال وحصون خير :** ولما كانت ليلة الدخول قال : لأعطيين الرایة غداً رجلاً يجب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فلما أصبح غدوا على رسول الله ﷺ : كلهم يرجو أن يعطهاه فقال : أين علي بن أبي طالب . فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه قال : فأرسلوا اليه ، فبصر رسول الله في عينيه ودعاه فبرئ ، كأن لم يكن به وجع فأعطاه الرایة فقال : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، قال : انفذ على رسليك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجالاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم (۲) .

وكانت خير منقسمة إلى شطرين ، شطر فيها خمسة حصون : ۱- حصن ناعم ، ۲- حصن الصعب بن معاذ ، ۳- حصن قلعة الزبير ، ۴- حصن أبي ، ۵- حصن التزار . والمحصون الثلاثة الأولى تقع في منطقة يقال لها النطة ، وأما الحصون الأخرى فيقعان في منطقة تسمى الشق . أما الشطر الثاني ويعرف بالكتيبة ففيه ثلاثة حصون فقط ۱- حصن القموص (وكان حصن بني أبي الحقيق من بني النمير) ۲- حصن الوطيط ۳- حصن السلام . وفي خير حصون وقلاع غير هذه الثمانية ، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع في مناعتتها وقوتها والقتال المrier إنما دار في الشطر الأول منها ، أما الشطر الثاني فمحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال .

(۱) صحيح البخاري / ۲، ۶۰۳، ۶۰۴ باب غزوة خير

(۲) صحيح البخاري ، الباب نفسه ص ۵۰۵ و ۵۰۶

بعد المعركة وفتح حصن ناعم : وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانية هو حصن ناعم ، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجي وكان هذا الحصن هو حصن مرحباً البطل اليهودي الذي كان يعد بالآلاف .

خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بال المسلمين إلى هذا الحصن ، ودعا اليهود إلى الإسلام فرفضوا هذه الدعوة ويرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحباً فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة ، قال سلمة بن الأكوع ، فلما أتينا خيبر خرج ملكهم يخاطر بسيفه يقول :

قد علمت خيبر أني مرحباً      شاكى السلاح بطل مجرب  
إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز له عمي عامر فقال :

قد علمت خيبر أني عامر      شاكى السلاح بطل مغامر  
فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحباً في ترس عمي عامر وذهب عامر يسفل له وكان سيفه قصيراً فتناول به ساق اليهودي ليضربه فيرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبته فمات منه ، وقال فيه النبي ﷺ : إنه لأجرين وجمع بين إصبعيه ..<sup>(١)</sup>

ويبدو أن مرحباً دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى وجعل يرتجز بقوله :  
قد علمت خيبر أني مرحباً - فبرز له علي بن أبي طالب قال سلمة بن الأكوع : فقال علي :  
أنا الذي سمتني أمي حيدرة      كليب غابات كريه المنظرة  
أو فيهم بالصاع كيل السندرة

فضرب رأس مرحباً فقتله ، ثم كان الفتح على يديه<sup>(٢)</sup> .

ولما دنا علي رضي الله عنه من حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن وقال : من أنت ، قال : أنا علي بن أبي طالب ، فقال اليهودي : علوتم وما أنزل على موسى .

ثم خرج ياسر أخوه مرحباً وهو يقول : من يبارز؟ فبرز إليه الزبير ، فقالت صفيه أمه : يا رسول الله ، يقتل ابني؟ قال : بل ابنك يقتله ، فقتله الزبير .

---

(١) صحيح مسلم باب غزوة خيبر ٢ / ١٢٢

(٢) صحيح البخاري الباب نفسه ٢ / ٦٠٣

ودار القتال المريض حول حصن ناعم ، قتل فيه عدد من سراة اليهود إنهاارت لأجله مقاومة اليهود وعجزوا عن صد هجوم المسلمين ، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أيامًا لاقى المسلمين فيه مقاومة شديدة ، إلا أن اليهود ينسوا من مقاومة المسلمين فسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب ، واقتتحم المسلمون حصن ناعم .

### فتح حصن الصعب بن معاذ :

وكان حصن الصعب الحصن الثاني من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم قام المسلمين بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصاري . ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة ، وروى ابن اسحاق : أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : لقد جهدنا وما بأيدينا من شيءٍ فقال : اللهم إنك قد عرفت حاهم ، وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدي شيءٍ أعطينهم إيمانه . فافتتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناً ، وأكثرها طعاماً وودكاً . فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخир حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه) (١) .

ولما ندب النبي ﷺ المسلمين بعد دعائه لهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم في المهاجمة ، ودار البراز والقتال أمام الحصن ، ثم فتح الحصن في ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس ، ووُجد في المسلمين بعض التنجينات والدببات .

ولأجل هذه المجائعة الشديدة التي ورد ذكرها في رواية ابن اسحاق كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير ، ونصبوا القدور على النيران فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الأنانية .

فتح قلعة الزبير : وبعد فتح حصن ناعم والصعب ، تحول اليهود من كل حصون النطة إلى قلعة الزبير وهو حصن منيع في رأس تلة ، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه . ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار ، وأقام محاصرةً ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود ، وقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهرًا ما باللوا إن لهم شرابةً وعيوناً تحت الأرض يخرجون بالليل ويشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحرروا لك (٢) فقطع ماءهم عليهم فخرجو فقاتلوا أشد القتال ، قتل فيه نفر من المسلمين ، وأصيب نحو العشرين من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ .

(١) شام ج ٣ ص ٣٤٦  
(٢) أصحرروا بـ سواء إلى الصحراء

**فتح قلعة أبي :** وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أبي وتحصنوا فيها ، وفرض المسلمين عليهم الحصار وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر يطلب المبارزة ، وقد قتلها أبطال المسلمين ، وكان الذي قتل المبارز الثاني هو البطل المشهور أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري صاحب العصابة الحمراء . وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة واقتضم معه الجيش الإسلامي وجرى قتال ممرين ساعة دخول الحصن . ثم تسلل اليهود من القلعة وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن من الشطر الأول .

**فتح حصن النزار :** كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر ، وكان اليهود على ثقة بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة وإن بذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل ولذلك أقاموا في هذه القلعة مع الذراري والنساء بينما كانوا قد أخلوا منها القلاع السابقة ، وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار ، وصاروا يضغطون عليهم بعنف ولكن الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلاً للاقتحام فيه ، أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن ، للاشتباك مع قوات المسلمين لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيفة برشق النبال ، وبالقاء الحجارة وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين أمر النبي ﷺ بتنصيب آلات المنجنيق وبيدو أن المسلمين قدروا بها القذائف فأوقعوا الخلل في جدران الحصن واقتضمه ودار قتال ممرين داخل الحصن انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة ، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى . بل فروا من فروا من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذرارتهم . وبعد فتح هذا الحصن المنيع ، تم فتح الشطر الأول من خير ، وهي ناحية النطة والشق وكانت في هذه الناحية حصون صغيرة أخرى إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أخلوا هذا الحصن وهربوا إلى الشطر الثاني من بلدة خير .

**فتح الشطر الثاني من خير :** ولما فتح ناحية النطة والشق تحول رسول الله ﷺ إلى أهل الكتبة والوطيع والسلام حصن أبي الحقيق من بنى النمير ، وجاءهم كل فلٍ كان انهزم من النطة والشق وتحصن هؤلاء أشد التحصن .

واختلف أهل المغازي هل جرى هناك قتال في أي حصن من حصونها الثلاثة أم لا ؟ فسياق ابن اسحاق صريح في جريان القتال لفتح حصن القموص . بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجري هناك مفاوضات للاستسلام أما الواقع فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاثة إنما أخذت بعد المفاوضة ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستسلام حصن القموص بعد إدارة القتال . وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال ، ومهما كان فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية - الكتبة - فرض على أهلها أشد الحصار ، ودام الحصار أربعة عشر يوماً واليهود لا يخرجون من حصونهم

حتى هم رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق فلما أيقنوا بالحقيقة سأله رجل من الصالحة

**المفاوضة** : وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ : انزل أكلمك؟ قال : نعم فنزل ، وصالح على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذرارتهم ويخلرون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مالٍ وأرض وعلى الصفراء والبيضاء - أي الذهب والفضة - والكراع والحلقة إلا ثواباً على ظهر إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئاً فصالحوه على ذلك وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين وبذلك تم فتح خيبر .

قتل ابن أبي الحقيق لنقض العهد : وعلى رغم هذه المعاهدة غيبَ ابن أبي الحقيق مالاً كثيراً غيّباً مسكاً فيه مال و حلّي لحيي بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خير حين أجليت النصیر .

قال ابن اسحاق : وأتى رسول الله ﷺ بكتنانة بن الربيع . وكان عنده كنز بنى النصیر فسأله عنه . فجحد أن يكون يعرف مكانه . فأتى رجل من اليهود فقال : إني رأيته يطيف بهذه الخربة كل غداة . فقال رسول الله ﷺ لكتنانة : أرأيت إن وجدناه عندك أقتلنك ؟ قال : نعم فأمر بالخرابة فحضرت ، فأنحرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقي منه فأبى أن يؤديه ، فدفعه إلى الزبير ، وقال : عذبه حتى تستأصل ما عنده ، فكان الزبير يقذح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه ، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن سلمة فضرب عنقه بمحمود بن سلمة (١) .

قسمة الغنائم : وأراد رسول الله ﷺ أن يحيل اليهود عن خير فقالوا : يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ، ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لاصحابه غلام يقumen عليها ، وكانوا لا يفرغون يقumen عليها فأعطاهم خير على أن لهم الشطر من كل زرع ، ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم ، وكان عبد الله بن رواحة يخرصها<sup>(٢)</sup> عليهم ، وقسم أرض خير على ستة وثلاثين سهماً وجمع كل سهم مائة سهم فكان ثلاثة آلاف وستمائة سهم فكان لرسول الله ﷺ وال المسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم ، سهم لسنوابيه وما يتنزل به من أمور المسلمين ، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديثة من شهد منهم ومن غاب ، وكانوا ألفاً وأربعين ألفاً وكان معهم مائتا فرس . لكل فرس سهمان فقسمت على ألف وثمانمائة سهم فصار

(١) السيرة لأبي هشام ج ٣ ص ٣٥١

(۲) پنجمین صفحه: پیش‌نیزها

للفارس ثلاثة أسمهم وللراجل سهم واحد.

قتل الفريقين في معارك خير : وجملة من استشهد من المسلمين في معارك خير ستة عشر رجلاً ، أربعة من قريش وواحد من أشجع ، وواحد من أسلم ، وواحد من أهل خير ، والباقيون من الأنصار أما قتل اليهود فعدادهم ثلاثة وتسعون قتيلاً .

فذلك : وما بلغ رسول الله ﷺ إلى خير ، بعث محيصة بن مسعود إلى يهود ذلك ليدعوهم إلى الإسلام فابطأوا عليه فلما فتح الله خير قذف الرعب في قلوبهم . فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من ذلك بمثل ما صالح عليه أهل خير فقبل ذلك منهم . فكانت فدكة لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجد عليه المسلمون بخيل ولا ركاب .

وادي القرى : وما فرغ رسول الله ﷺ من خير انصرف إلى وادي القرى وكان بها جماعة من يهود وانضاف إليهم جماعة من العرب . فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي وهم على تعنة . فقتل مدعم عبد لرسول الله ﷺ . فقال الناس هنيئاً له الجنة . فقال النبي ﷺ كلاً والذى نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خير من الغنائم لتشتعل عليه ناراً ..

ثم عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال ، وصفهم ، ودفع لواه إلى سعد بن عبادة ، ورایة إلى الحباب بن المنذر ، ورایة إلى سهل بن حنيف ، ورایة إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا وبرز رجل منهم فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فقتله ، ثم برز آخر فبرز له على بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام . وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم فيصلٍ بأصحابه ، ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بآيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنمـه الله أموالهم وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً . وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام . وقسم على أصحابه ما أصاب بها وترك الأرض والنخل بآيدي اليهود ، وعاملهم عليها<sup>(١)</sup> كما عامل أهل خير .

تيماء :

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خير ثم فدكة ووادي القرى لم يبدُّ أي مقاومة ضد المسلمين بل بعثوا من تلقـاء أنفسهم يعرضون الصلح فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ

(١) زاد المعاد ١٤٦، ١٤٧/٢

وأقاموا بامواهم<sup>(١)</sup>). وكتب لهم بذلك كتاباً وهاك نصه : هذا كتاب محمد رسول الله لبني عاديا إن لهم الذمة ، وعليهم الجزية ، ولاعداء ولا جلاء الليل مد ، والنهر رشد ، وكتب خالد بن سعيد .

#### العود إلى المدينة :

ثم أخذ رسول الله في العودة إلى المدينة وفي مرجعه ذلك سار ليلة ، ثم نام في آخر الليل بعض الطريق وقال لبلال : أكلاً لنا الليل فغلبت بلاً عيناه ، وهو مستند إلى راحلته ، فلم يستيقظ أحد ، حتى ضربتهم الشمس ، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ ، ثم خرج من ذلك الوادي ، وتقدم صل الفجر بالناس ، وقيل : إن هذه القصة في غير هذا السفر<sup>(٢)</sup> .

وبعد النظر في تفصيل معارك خيبر يبدو أن رجوع النبي ﷺ كان في أواخر صفر أو في ربيع الأول سنة ٥٧<sup>(٣)</sup>

#### أمر الأسود الراعي في حديث خيبر :

قال ابن اسحاق :

وكان من حديث الأسود الراعي فيها يلغى : أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حصون خيبر ، ومعه غنم له ، كان فيها أجيراً الرجل من يهود فقال : يا رسول الله : اعرض على الإسلام ، فعرضه عليه ، فأسلم . وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه ، فلما أسلم قال : يا رسول الله ، إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم ، وهي أمانة عندى ، فكيف أصنع بها ؟ قال : اضرب في وجهها فإنها سترجع إلى ربها . أو كما قال . فقام الأسود فأخذ حفنة من الحصى ، فرمى بها في وجهها ، وقال : ارجع إلى صاحبك فوالله لا أصحابك أبداً ، فخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها ، حتى دخلت الحصن ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين ، فأصابه حجر فقتله ، وما صل لله صلاة قط فات به رسول الله ﷺ ، فوضع خلفه ، وسُجِّي بشملة كانت عليه ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ، ومعه نفر من أصحابه ، ثم أعرض عنه ، فقالوا : يا رسول الله ، لم أعرضت عنه ؟ قال : إن معه الآن زوجتيه من الحور العين . قال ابن اسحاق :

وأخبرني عبد الله بن أبي نجيح أنه ذكر له : أن الشهيد إذا ما أصيب تدلت له زوجاته من الحور العين عليه تنفضان التراب عن وجهه ، وتقولان : ترب الله وجه من تربك ، وقتل من

(١) نفس المصدر ١٤٧/٢

(٢) ابن هشام ٢ / ٣٤٠ زاد المعاد ١٤٧/٢

(٣) الريحق المختوم بتصرف من ص ٤١٢-٤٢٥

قتلك .

### أمر الحجاج بن علّاط السلمي :

قال ابن اسحاق :

ولما فتحت خيبر كَلَمَ رسول الله نَبِيُّهُ الحجاجُ بن علّاط السلمي ثُمَّ الْبَهْرَى ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ لِي بِمَكَّةَ مَا لَأُعْلَمُ أَعْنَدِ صَاحِبِي أُمُّ شَيْبَةَ بَنْتِ أَبِي طَلْحَةَ . وَكَانَتْ عَنْهُ لَهُ مِنْهَا مُعْرَضٌ بَنْ الحجاج - مَالٌ مُتَفَرِّقٌ فِي تَجَارَى أَهْلِ مَكَّةَ ، فَأَذْنَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَذْنَ لَهُ قَالَ . إِنَّهُ لَا يَدْلِي يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَنْ أَقُولَ قَالَ : قَلْ الحجاجُ حَتَّى إِذَا قَدِمْتَ مَكَّةَ وَجَدْتَ بَشِّيَّةَ الْبَيْضَاءَ<sup>(١)</sup> رِجَالًا مِنْ قَرِيشٍ يَتَسَمَّعُونَ الْأَخْبَارَ ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ نَبِيِّهِ ، وَقَدْ بَلَغُهُمْ أَنَّهُ قَدْ سَارَ إِلَى خيبرَ ، وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّهَا قَرْيَةُ الْحِجَازِ ، رِيفًا وَمَنْعَةً وَرِجَالًا فَهُمْ يَتَحَسَّسُونَ الْأَخْبَارَ وَيَسْأَلُونَ الرِّكَابَانَ فَلِمَ رَأَوْنِي قَالُوا : الحجاجُ بْنُ علّاطٍ ، قَالَ : وَلَمْ يَكُنُوا عَلَمُوا بِإِسْلَامِي ، عَنْهُ وَاللهُ الْحَبْرُ . أَخْبَرْنَا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ الْقَاطِعَ قَدْ سَارَ إِلَى خيبرَ ، وَهِيَ بَلدُ يَهُودٍ ، وَرِيفُ الْحِجَازِ ، قَلْتَ : قَدْ بَلَغَنِي ذَلِكَ وَعِنْدِي مِنَ الْخَبْرِ مَا يُسْرِكُمْ ، قَالَ : فَالْتَّبَطُوا<sup>(٢)</sup> بِجَنْبِ نَاقِيٍّ يَقُولُونَ : إِيهِ يَا حِجَاجَ ، قَالَ : قَلْتَ : هَزْمُ هَزِيْةٍ لَمْ تَسْمَعُوا بِمُثْلِهَا قَطُّ ، وَقُتْلَ أَصْحَابَهُ قَتْلًا وَأَسْرَ مُحَمَّدًا أَسْرًا . وَقَالُوا : لَا نَقْتَلُهُ حَتَّى نَبْعَثَ بِهِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ فَيَقْتَلُوهُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ مِنْ كَانَ أَصَابَ مِنْ رِجَالِهِمْ ، قَالَ : فَقَامُوا وَصَاحُوا بِمَكَّةَ وَقَالُوا : قَدْ جَاءَكُمُ الْخَبْرُ ، وَهَذَا مُحَمَّدٌ إِنَّا تَنْظَرُونَ أَنْ يَقْدِمَ بِهِ عَلَيْكُمْ فَيُقْتَلَ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ . قَالَ : قَلْتَ : أَعْيُنُونِي عَلَى جَمْعِ مَالِي بِمَكَّةَ وَعَلَى غَرْمَائِي فَإِنِّي أَرِيدُ أَنْ أَقْدِمَ خيبرَ ، فَأَصْبِبَ مِنْ فَلِ<sup>(٣)</sup> مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَنِي التَّجَارُ إِلَى هَنَاكَ .

قَالَ : فَقَامُوا فَجَمَعُوا مَالِي كُلَّهُ كَأَحْثَ<sup>(٤)</sup> جَمْعٌ سَمِعْتُ بِهِ قَالَ : وَجَئْتُ صَاحِبِي فَقَلْتَ : مَالِي . وَقَدْ كَانَ لِي عِنْدِهَا مَالٌ مُوْضِعٌ لِعَلِيِّ الْحَقِّ بِخِيَرٍ فَأَصْبَبَ مِنْ فَرَصِ الْبَيعِ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَنِي التَّجَارُ؟ قَالَ : فَلَمَّا سَمِعَ العَبَاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَلَّبِ ، وَجَاءَهُ عَنِي ، أَقْبَلَ حَتَّى وَقَفَ إِلَى جَنْبِي وَأَنَا فِي خِيمَةِ مِنْ خِيَامِ التَّجَارِ فَقَالَ : يَا حِجَاجَ مَا هَذَا الْخَبْرُ الَّذِي جَئْتَ بِهِ؟ قَالَ ، فَقَلْتَ : وَهُلْ عِنْدَكَ حَفْظٌ لِمَا وَضَعْتَ عِنْدَكَ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَلْتَ : فَاسْتَأْخِرْ عَنِي حَتَّى الْقَالَكَ عَلَى خَلَاءِ . فَإِنِّي فِي جَمْعِ مَالِي كَمَا تَرَى ، فَانْصَرِفْ عَنِي حَتَّى أَفْرُغَ . حَتَّى إِذَا فَرَغْتَ مِنْ جَمْعِ كُلِّ شَيْءٍ كَانَ لِي بِمَكَّةَ ، وَأَجْمَعْتُ الْخَرْجَ لِقِيَتِ الْعَبَاسِ ، فَقَلْتَ : احْفَظْ عَلَيَّ حَدِيثِي يَا أَبَا الْفَضْلِ فَإِنِّي

(١) ثَيَّةُ الْبَيْضَاءَ : هِيَ ثَيَّةُ التَّعْيِمِ فِي مَكَّةَ

(٢) التَّبَطُّوا بِجَنْبِي نَاقِيٍّ : مَشَوْا إِلَى جَنْبِهَا مَلَازِمِنَ لَهَا

(٣) فَلِ مُحَمَّدٌ : الْقَوْمُ الْمَنْزَمُونَ مَعَهُ

(٤) كَأَحْثَ : كَأَسْرَعَ

أخشى الطلب ثلاثة ثم قل ما شئت قال: أفعل قلت: فإني والله تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم - يعني صفية بنت حبي - ولقد افتحت خبير، وانتشل<sup>(١)</sup> ما فيها وصارت له ولاصحابه، فقال: ما تقول يا حجاج؟ قلت: إني والله فاكتم عنى ولقد أسلمت وما جئت إلا لأنخذ مالي، فرقاً من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاث فاظهر أمرك فهو والله على ما تعب، قال: حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وتخلق<sup>(٢)</sup>، وأخذ عصاه ثم خرج حتى أقى الكعبة فطاف بها فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحرث المصيبة، قال: كلا والله الذي حلفت به، لقد افتحت محمد خبير وترك عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، فأصبحت له ولاصحابه، قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم به ولقد دخل عليكم مسلماً فأخذ ماله فانطلق ليتحقق بمحمد وأصحابه فيكون معه، قالوا: يا عباد الله انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، قال، ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك<sup>(٣)</sup>.

### خرص ابن رواحة ثم جبار على أهل خمير:

قال ابن اسحاق: فكان رسول الله ﷺ كما حدثني عبدالله بن أبي بكر يبعث إلى أهل خمير عبدالله بن رواحة خارصاً بين المسلمين ويهدى فيخرص عليهم فإذا قالوا: تعديت علينا قال: إن شئتم فلكم، وإن شئتم فلنا، فتقول يهود بهذا قامت السموات والأرض. وإنما خرص عليهم عبدالله بن رواحة عاماً واحداً، ثم أصيب بهته يرحمه الله فكان جبار بن صخر أخويني سلمة هو الذي يخرص عليهم بعد عبدالله بن رواحة فأقامت يهود على ذلك لا يرى بهم المسلمون بأساً في معاملتهم حتى عدوا في عهد رسول الله ﷺ على عبدالله بن سهل أخي بن حرثة فاتهمهم رسول الله ﷺ وال المسلمين عليه.

إجلاء اليهود عن خمير أيام عمر: قال ابن اسحاق: وسألت ابن شهاب الزهري كيف كان إعطاء رسول الله ﷺ يهود خمير نخلهم، حين أعطاهم النخل على خرجها، أبْتَ ذلك لهم حتى قبض، أم أطعاهم إياها لضرورة من غير ذلك، فأخبرني ابن شهاب: أن رسول الله ﷺ افتحت خمير عنده بعد القتال وكانت خمير مما أفاء الله عز وجل على رسول الله ﷺ، وقسمها بين المسلمين، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال، فدعاهم رسول الله ﷺ، فقال إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم؛ وأقركم ما أقركم الله، فقبلوا فكانوا على ذلك يعملونها، وكان رسول الله ﷺ يبعث عبدالله بن رواحة فيقسم ثمرها، ويعدل عليهم في الخرص، فلما توفي الله نبيه ﷺ، أقرها أبو بكر

(١) انتشل: استخرج

(٢) تخلاق: تطيّب بالخلق و هو نوع من الطيب

(٣) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٣٥٩-٣٦١

رضي الله تعالى عنه، بعد رسول الله ﷺ بأيديهم على المعاملة التي عاملهم عليها رسول الله حتى توفي، ثم أقرها عمر رضي الله عنه صدراً من إمارته ثم بلغ عمر أن رسول الله ﷺ قال في وجده الذي قبضه الله فيه: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان، ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت، فأرسل إلى اليهود، فقال: إن الله عز وجل قد أذن في جلائكم، قد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتني به، وأنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليتجهز للجلاء فأجل عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم<sup>(١)</sup>.

من شهد خبير من النساء: وشهد خبير عشرون امرأة منهن أم المؤمنين أم سلمة، وصفية بنت عبد المطلب، وأم أيمن وسلمى امرأة أبي رافع مولا النبي ﷺ وأمرأة عاصم بن عدي وأم عمارة وأم منيع وكعيبة بنت سعد، وأم مطاع الإسلامية، وأم سليم بنت ملحان، وأم الصبحان بنت مسعود، وهند بنت عمرو بن حرام، وأم عامر الأشهلية، وأم عطية الانصارية، وأم سليم، وأمية بنت قيس الغفارية<sup>(٢)</sup>.

لم يمض على موعد الله بجند الحديبية أكثر من شهرين بالفتح القريب والمغانم الكثيرة حتى كانت حصون خمير بما تحوي من خيرات بين يدي المسلمين، وشاء قدر الله أن لا يشارك مع أهل الحديبية أحد معهم في خمير، اللهم إلا بعض النساء، والوفود القادمة من اليمن والحبشة.

ولقد بلغ من جهد المسلمين وجوعهم وفاقتهم في هذه المعركة أن ذبحوا الحمر الأهلية، ونصبوا القدور على النيران، وجاء منادي رسول الله ﷺ: إن رسول الله ينهاكم عن أكل لحوم الحمر الأهلية.

(قال ابن اسحاق: فحدثني عبدالله بن عمرو بن ضمرة عن عبدالله بن أبي سليم عن أبيه قال: أتانا نهي رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الأهلية. والقدور تفور بها فكفأناها على وجوهها)<sup>(٣)</sup>.

إنها لتجربة قاسية ولا شك، وفريدة كذلك أن المسلمين قد عض الجوع بنابهم وليس لديهم ما يأكلون حتى التمر لا يجدونه، وهم مكلفون بخوض حرب طاحنة مع اليهود وليسوا مستريحين نائمين في المعسكر، وذبحوا الحمر وطهوها، وسال لعابهم عليهم، والقدور تفور باللحم الطازج ثم يأتي الأمر النبوى بالنهى عن أكل لحوم الحمر، فما يتزددون لحظة واحدة، أو

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٣٧١

(٢) امتاع الاسماع ج ١ ص ٣٢٦، ٣٢٧

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ص ٣٤٥

يشكّلون استعصاء مسلحاً، أو يشكّلون فراراً من الجيش والمعركة أو يتموا هذه الوجبة ويتّهوا بعد ذلك، أو ينهشوا نهشة واحدة تقييم أودهم لم يفعلوا ذلك كله، إنما كفؤوا القدور باللحم، واستجابوا لأمر الله ورسوله. وهو درس حي ولا شك في الالتزام والانضباط بالأوامر بالعسر واليسير والنشط والمكره. وأن يكون الجندي المسلم خارجاً من سلطان بطنه، وهو على أشد ما يكون من الجوع، وهو مكلّف بخوض معركة، هو مستوى رفيع جداً، حين نرقى إليه نرقى معه إلى مستوى نصر الله.

وكان بالإمكان أن ينهي رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الأهلية قبل ذبحها، أو بعد ذبحها، وقبل العناية بتطهيرها وجمع الحطب ونفع النار تحتها، لكن حتى تكون التجربة في أعمق أبعادها شاعت إرادة الله تعالى أن يكون النبي والقدور تغلي بلحوم الحمر، حتى يكشف الالتزام في أصعب أحواله، والذي يتّزم في هذا الطرف قادر على الالتزام بما هو أدنى منه.

وشيء آخر لا يقل صعوبة ومرارة عنه. هذا الشيء هو حفظ الفرج عن الحرام. فلقد مضى المسلمين لخير، والمتّعة حلال لهم، ولم يشهد المسلمون بعدأ عن نسائهم كما شهدوا في خير. لقد استمرت المعركة شهرين قاسيين. فكان لا بد من تلبية داعي الجنس الحلال من خلال الاستمتاع المؤقت النساء. وكان النبي عن نكاح المتّعة كذلك في هذه المناسبة. ولم يكن النبي وهم بجوار نسائهم في المدينة، ولم يكن النبي مجرد وصوّفهم إلى خير لقد كان النبي في أصعب مظاہنه، في قلب المعركة، وبعد الغياب الطويل عن الزوجات. وحيث الامكانيات المتاحة للمتّعة. ولم يكن النبي منصباً فقط عن نكاح المتّعة في علاج حفظ الفرج والانضباط فيه. بل كان من أمور عدة يحدّثنا عنها رويق بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه وقد قام خطيباً في المسلمين بعد أن افتتح قرية من قرى المغرب فقال:

(يا أيها الناس إني لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقوله فينا يوم خيبر قام فينا رسول الله ﷺ فقال: لا يحل لأمرئ يؤمّن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماءه زرع غيره - يعني إitan الحبالي من السبايا - ولا يحل لأمرئ يؤمّن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها. ولا يحل لأمرئ يؤمّن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغناً حتى يقسم، ولا يحل لأمرئ يؤمّن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها ردها فيه، ولا يحل لأمرئ يؤمّن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه).<sup>(١)</sup>

إنها أمور تمس ثلات شهوات هي من أعمق ما تحمله النفس البشرية من شهوات.

(١) السيرة النبوية لأبن هشام ص ٣٤٥ ج ٣ ص ٣٤٦

شهوة الجوع التي يتشدق الماديون فيها، حتى ليبيحوا من أجلها الأعراض والسرقة.  
وشهوة الجنس التي يعتبرها الماديون جزءاً من تركيب الإنسان وحاجة عضوية فيه  
وشهوة التملك التي يستعبد الناس ويستذلون من أجلها.

ويأتي الأمر النبوى ، وهذه الشهوات على أشد ما تكون يقظة وحاجة وشدة بالامتناع عنها،  
فيستجيب الصف المسلم كله ، دون أن تسجل مخالفة إلا مخالفة واحدة منع禄 لها فيها بعد.

ولئن حلت الحديبية إنساناً واحداً تباطأ عن البيعة على الموت . فلقد شهدت خير من أهل  
الحديبية مخالفة لا تكاد تذكر في هذه الأمور . وذلك من خلال ربط هذه الأمور فقط بالإيمان بالله  
والاليوم الآخر .

وأمام هذا الصبر على الجوع ، والصبر على الجنس في سبيل الله ، والصبر على الغنائم حتى  
توزع وبعد هذه التجربة القاسية الفريدة . كان عطاء الله تعالى وفيض رحمته أكبر من كل  
التوقعات وشهدنا دعاء رسول الله ﷺ للأسلميين الذين جاؤوا يشكون لرسول الله ﷺ جوعهم  
وفاقتهم وكان الدعاء الحالى :

اللهم إنك قد عرفت حالمهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه ،  
فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناً ، وأكثرها طعاماً وودكاً ، فغدا الناس ، ففتح الله عز وجل  
حسن الصعب بن معاذ وما يخيرا حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه .

ويحدثنا المقريزي عن بعض هذه الغنائم فيقول : (واقتحم المسلمون الحصن يقتلون  
ويأسرون فوجدوا فيه من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت واللوك كثيرة . فنادي منادي  
رسول الله ﷺ كلوا واعلفوا ولا تحتملو (يعني لا تخرجوا به إلى بلادكم) فأخذوا من ذلك الحصن  
طعامهم وعلف دوابهم ولم يمنع أحد من شيء ولم يخمس ووجدوا بزاً في عشرين عكيماً(١) مجزومة  
من متاع اليمن ، ووجدوا خوبابي سكر ، فأمر بالسكر(٢) فكسر في  
خوابيه(٣) ، ووجدوا آية من نحاس وفخار كانت يهود تأكل فيها وشرب فقال عليه السلام :  
اغسلوها واطبخوا وكلوا فيها واشربوا وأخرجوها منها غنىً وبقرًا وحريراً . وألة الحرب ، ومنجنيقاً  
ودبابات ، وعدة ، وخمسين قطيفة . . .)(٤).

وهذا هو الصف الذي كتب الله تعالى له النصر في خير بالتزامه وانضباطه في القليل  
والكبير ، ونحن بحاجة لهذا الصف الذي يلتزم بالأوامر من منطلق الإيمان قبل التزامه من منطلق

(١) العكم : ثوب يبسط ويوضع فيه الماء

(٢) السكر (ما يسكر به من الخمر)

(٣) الخابية : الوعاء الكبير

(٤) امتاع الأسماع ج ١ ص ٣١٨ ، ٣١٩

## الخوف والسلطة .

٧ - أما الحديث عن الحالات فهو عجيب حقاً . نستمع إلى النماذج التي حدثت في هذه الغزوة : ( وشرب الخمر رجل من المسلمين يقال له : عبدالله الحمار . فخفقه رسول الله بنعليه ، وأمر من حضروه فخفقوه بتعالمهم ، ولعنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال عليه السلام : فإنه يحب الله ورسوله ، ثم راح عبدالله كأنه أحدهم فجلس معهم ) (١) .

(ونادى منادي رسول الله عليه السلام : أدوا الخيات (٢) والمحيط (٣) فإن الغلول عار وشنار ونار يوم القيمة . فعصب فروة رأسه بعصابة ليستظل بها من الشمس فقال رسول الله عليه السلام عصابة من نار عصبت بها رأسك فطرحها . . وتوفي رجل من أشجع فلم يصلّ عليه وقال : إن صاحبكم غل (٤) في سبيل الله ، فوجد في م Cataعه خرز لا يساوي درهرين (٥) .

نذكر هذه المحنات ونذكر معها مثلاً آخر مما وقع بين يدي المسلمين وكانوا قادرين على الغلول  
فيه :

( قال ابن وهب : قلت لمالك : وما الكتبية ؟ قال : من أرض خير وهي أربعون ألف عذر  
فوجد خسمائة قوس عربية ، ومائة درع ، وأربعين سيف ، وألف رمح ) (٦)

وفي مكان آخر : صالح كنانة بن أبي الحقيق رسول الله عليه السلام على أهل الكتبية فأمن الرجال  
والذرية ، ودفعوا إليه الأموال والذهب والفضة والحلقة والثياب إلا ثوباً على إنسان بعد ما  
حضرهم أربعة عشر يوماً (٧)

في هذه الغنائم الكثيرة المثقلة من المال والمتاع والسلاح والطعام ، وجد من أخذ خرزًا لا  
يساوي درهرين ، ومن عصب رأسه بعصابة . وكان الجزاء الصارم أن قيل لصاحب العصابة  
عصابة من نار تعصب بها رأسك (٨) . ولم يصلّ على الثاني لهذا الغلول .

(١) المصدر نفسه ج ١ ص ٣١٩

(٢) الخيات : الخيط

(٣) المحيط : الإبرة ينماط بها

(٤) غل من الغنم : خان وسرق

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٣

(٦) امتاع الأسماع ج ١ ص ٣١٩ ، ٣٢٠

(٧) المصدر نفسه ص ٣١٩

(٨) يحسن أن نذكر أن صاحب العصابة هو المسؤول عن حفظ الغنائم وتوزيعها ، ولشدة عمله وصعوبته استظل بالعصابة من حر الشمس

أمر لا يعرفه تاريخ الأمم والحروب في الدنيا إلا لدى الصف المسلم.

ومخالفة ثلاثة أن يوجد بين الألف والأربعمائه إنسان، رجل لم يملك نفسه أمام خوابي الخمر وهي تكسر، فشرب الخمر في لحظة ضعف، وكانت العقوبة الصارمة أن خفقه رسول الله ﷺ بنعليه، وخفقه المسلمين بنعاعالم، فتلقي العقوبة بصدر رحب، ولم يمض ليبيت ليلاً اغتيال رسول الله ﷺ وصاحبه هذه الإهانة بل أنهى العقوبة وراح يمزح ويضحك مع المسلمين، بل رفض رسول الله ﷺ لعنه، وقال عنه، وهو يتلقى عقوبة المعصية: إنه يحب الله ورسوله.

فليست مهمة العقوبة أن تسلخ الجندي من الصف، وتحوله إلى حاقد موتور. بل مهمتها تطهيره من الذنب ليغدو أهلاً للجندية في هذا الصف المسلم، وللعن يرفض، لأنه عقوبة فوق العقوبة. بل الثناء عليه ليبقى بقلبه الحي المؤمن لاصقاً بالصف متاحاً فيه.

وما أحوج صفتنا وجندنا إلى هذه المستويات حيث يتقبل الأخ المسلم العقوبة بصدر رحب. وحيث يفقه إخوانه فلسفة العقوبة لا لطرده وتخطيئه نفسيته، بل لتطهيره وضممه جندياً في الصف بريئاً من الذنب.

هذا هو الصف المسلم الذي انتصر بخير على اليهود. ويكتفي هذا الوصف. لنتعرف على الصف العربي الذي لا يزال يحارب اليهود ثلث قرن ويتلقي الهزائم المكررة:

نذكر ذلك الصف في خير. حيث يحقق شارب الخمر بالنعال. والصف العربي الذي قال عنه مدير مخابرات العدو، سوف أهزم العرب بما يحرمه عليهم دين محمد، بالخمر والنساء.

وفعلاً هزم الصف بالمعصية، إذ كان الطيارون ليلة الخامس من حزيران في عربدة مع الخمر والنساء وعلى رأسهم العقداء والألوية والفريق الأول قائد سلاح الطيران وذلك حتى الفجر.

وبهذه المقارنات ندرك من ذلك الجيش، ومن هذا الجيش، وفيه الغنى عن أي تعليق.

٣ - وبقيت مخالفة أرجأتها المقارنة مع صورة مقابلة. نلحظ من تلك المقارنة كيف يكون الحكم على الأشخاص لأن صف الحركة الإسلامية يستهجن وجود نوعيات انتهازية فيه:

(قال ابن اسحاق: فحدثني ثور بن سالم عن أبي هريرة قال: فلما انصرفنا مع رسول الله ﷺ عن خير إلى وادي القرى ونزلنا بها أصلأً مع مغرب الشمس، ومع رسول الله ﷺ غلام له، أهداه له رفاعة بن زيد، فوالله إنه ليضع رحل رسول الله ﷺ إذ أتاه سهم غرب<sup>(1)</sup> فأصابه فقتله. فقلنا هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: كلاً والذى نفس محمد بيده إن

(1) سهم غرب: سهم طائش

شملته<sup>(١)</sup> الآن لتحترق عليه في النار، كان غلُّها من فيء المسلمين يوم خير. فسمعها رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فأتاه فقال: يا رسول الله: أصبت شراكين لنعلين لي، قال فقال: يقدُّ لك مثلهما في النار<sup>(٢)</sup>.

نضع هذا الغلام الذي رأه الناس من أهل الجنة وهو يعيش في الصف المسلم منذ فترة غير قليلة، ثم أصبح من خواص رسول الله ﷺ وخدمه مع الغلام الآخر، الأسود الراعي الذي قصّ لنا ابن اسحاق خبره حين قال: يا رسول الله: اعرض على الإسلام فعرضه عليه، فأسلم وكان رسول الله لا يحقر أحداً أن يدعوه إلى الإسلام، ويعرضه عليه، فلما أسلم قال يا رسول الله إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟ قال: اضرب في وجهها فإنها سترجع إلى ربيها. فقام الأسود، فأخذ حفنة من الحصى، فرمى بها في وجهها، وقال: ارجعي إلى صاحبك، فوالله لا أصبحك أبداً، فخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن، ثم تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله، وما صلَّى الله صلاة قط، فأتَى به رسول الله ﷺ فوضع خلفه، وسجَّي بشملة كانت عليه، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه ثم أعرض عنه فقالوا: يا رسول الله: لم أعرضت عنه، فقال: إن معه الآن زوجتيه من الحور العين<sup>(٣)</sup>.

صورتان متقابلتان عجيتان لغلامين في الصف المسلم، ونهياتان أغرب وأعجب.

غلام رسول الله ﷺ ويقتل بين يديه، وهبأ بالجنة على ظاهر الأمر وغلام يهودي لم يصل الله صلاة قط، ويقتل على باب الحصن الذي خرج منه. والشاملة التي غلّها غلام رسول الله ﷺ وهي خيانة كانت كفيلة أن تشتعل عليه في النار، ويحرم من الجنة، ولم يشفع له خدمته لرسول الله، وماضيه السابق في الصف المسلم، وأمانة الغلام اليهودي تحولت كرامة له بحفنة من حصبة في وجه الغنم يقول لها: فوالله لا أصبحك أبداً، ويدخل في الإسلام طاهراً من يهوديته ومن ذنبه بهذه الأمانة العظيمة. وما هي إلا ساعة حتى يغدو الغلام اليهودي قتيلاً. فتتدلى له زوجاته من الحور العين تحفانه إلى الجنة.

يا شباب دعوة الإسلام:

ليكن هذا الدرس حيَا في نفوسكم، فالخطيئة الصغيرة تؤدي إلى النار ولو كانت شملة من غنيمة لا يؤبه لها. ولا يشفع معها قدم في الدعوة أو ماضٍ في الجهاد أو موقع في التنظيم. والاستقامة على المنهج ولو كانت من أعدائكم لحظة واحدة كفيلة بالشهادة في سبيل

(١) الشاملة: كباء غليظ يلتحق به

(٢) يقدُّ: يقطع

(٣) السيرة لابن هشام ج ١ : ٣٤٥

الله لا يحول دونها حرب عنيفة للإسلام، أو تحتاج إلى رصيد من الطاعة والعبادة. بل النية الصادقة والتصميم على الاستقامة تكفي في ميزان الله لدخول الجنة.

ودعوا عنكم المظاهر فالله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم.

وأن لقيادة الحركة الإسلامية أن لا تغالي في الحكم على الأشخاص وخاصة أبناءها من خلال القدر التنظيمي فترفع هذا الجندي إلى المستوى الأعلى عندها بغض النظر عن سلوكه وتربيته.

وأن لشباب الحركة الإسلامية أن لا يغالوا في المكابرة حين يأتيهم صادقاً إلى الصدف فيحرموا من كل ثقة لأنه لم يبر عليه قدر تنظيمي في الجماعة.

فقد يكون ذلك الأخ النقيب من أهل النار، وقد يكون هذا الجندي الجديد الذي لا تزال آثار حربه للإسلام بادية عليه من أهل الجنة.

ولتأخذ التربية الحقة دورها في الصدف المسلم وليكشف الشباب المسلم من غلوائه. في قضية الثقة بالمتسبين الجدد إلى الصدف ولبيق في ذهنهم ..

غلام رسول الله ﷺ وخيانة التي أودت به إلى النار.

والغلام اليهودي الذي لم يسجد لله سجدة وأمانته التي افتح بها إسلامه فقادته إلى الجنة وليكشف الشباب المسلم من غلوائه كذلك فيستبيح كل صور الغنيمة من العدو اذا ارتبطت بلوثة مع الإسلام وشباب الإسلام.

٤ - وحين نتناول هذه السمة بمظاهرها العامة سمة إنهاء الوجود اليهودي من جزيرة العرب وقد عرضنا للصدف المسلم وأمانته بينما استحق الصدف اليهودي أن تتحقق عليه لعنة الله وغضبه بعد أن خان الأمانة لا يغيب عن البال غدر كنانة بن أبي الحقيق والذي خان رسول الله وأخفي ما لديه من ثروة مع أنه هُدد بالقتل إن أخفي شيئاً من ذلك ثم قتل عقوبة له على غدره. لا ننسى أن الصدف الداخلي لليهود قد تمرق ومضى بعض أفراده ليذل المسلمين على ثغرات الحصون وثرواياتها. وما كان ذلك ليقع لو لا أن هؤلاء اليهود قد كفروا بقياداتهم فراحوا يتطلعون بإعطاء الأسرار للجيش المسلم دون مقابل بل ساهم بعضهم بكشف خيانة كنانة بن أبي الحقيق حين رأه يتربّد على خربة له وقد أخفي فيها ثروة يهود. ونلحظ معه كذلك المحاولات الإجرامية للاعتداء على المسلمين ونقض العهود حين يتاح لهم ذلك حيث قتلوا عبدالله بن سهل حين أمنوا إخفاء الجريمة وحاولوا اغتيال رسول الله ﷺ بوضع السم في الشاة التي أهدوها لرسول الله ومات على اثرها بشر بن البراء بن معروف رضي الله عنه واستحقوا هذه المزينة.

وحين يكون الصدف المسلم يمثل هذه الموصفات فستقع عليه العقوبة ويحال بينه وبين

النصر.

٥ - لكن هذه الأمور على مستوى الصف لا تعفي الصف من تقديم التضحيات المناسبة واللازمة فلقد عانى المسلمين من الجهد في هذه المعركة ما لم يعانوه في معركة سابقة فالخندق أطول معاركهم استمرت عشرين يوماً أو تزيد، وهم في بيوتهم وببلدهم وحصونهم، بينما نراهم هنا، ولا يملكون من الطعام حتى التمر، وهم في أشد الحاجة يصبرون قرابة شهرين على الحرب. فلم تتم نهاية اليهود بهذه السهولة، ولقد دافع اليهود دفاع المستيم عن وجودهم وحصونهم، وقاتلوا وصبروا، لكن المؤمنين كانوا أصبر الفريقين، وأشجع الفريقين وما بذلك أبطال المسلمين من بسالة وبذل في النفس والنفيس، فاق تصورات العدو، وكان البذل مشتركاً من الفريقين المهاجرين والأنصار.

فعلي بن أبي طالب والزبير بن العوام وعمر بن الخطاب في المبارزات الفردية وكذلك الحباب بن المنذر ومحمد بن سلمة وأبو دجانة سماك بن خرشة حطم كل البطولات الفردية عند اليهود الذين كانوا يحسبون كل بطل من أبطالهم بألف رجل.

والقتال العام الذي كان يستمر أياماً. فيضطر اليهود للانسحاب والتراجع، وقد شارك فيه الجيش كله بلا إستثناء يعني أن المعركة لم يدخل المسلمين عنها بشيء من أرواحهم ودمائهم وهي أطول معركة عجم فيها عودهم، واحتبر فيها صبرهم فكانوا على مستوى المعركة.

٦ - وتبدو ضراوة المعركة وضخامتها حين تتصور المعركة مع التحصين في القلاع والحسون من اليهود. وكما وصف القرآن اليهود (لا يقاتلونكم جيئاً، إلا في قرئ محسنة أو من وراء جدر يأسهم بينهم شديد تحسبهم جيئاً وقلوهم شتي) (١).

وكل هذه الحصون والقلاع لم تفل من عزيمة المسلمين، ولم توهن من مقاومتهم. وهذه طبيعة اليهود كذلك فمن وراء دباباتهم ومتاريسهم وتحصيناتهم يقاتلون المسلمين اليوم لكن مسلمي اليوم سرعان ما انكشفوا امام تلك التحصينات وكم أبى من الألوية العربية في الحروب امام حصون اليهود.

وحيث نقارن بين حرب الخامس من حزيران وبين فتح خير. فليست مقارنة عرضية. بل هي مقارنة حقيقة. فلقد أعلن موشي دایان وزير الدفاع الإسرائيلي بعد أن احتل القدس واكتسح بجيشه الأرض العربية في سوريا والأردن ومصر. قال وقد مس ثرى القدس: هذه بخير.

لقد لقي اليهود قبل خمسة عشر قرناً تلك الهزيمة النكراء التي أنهت الوجود اليهودي في جزيرة العرب ولم تنه عقد أو عقدين من الزمان أو لقرنين من الزمان. إنما أنهته لخمسة

(١) سورة الحشر: من الآية ١٤

عشر قرناً من الزمان لم يقم بعدها لليهود قائمة، ولم يرتفع لهم علم ولم تتحقق لهم رأية. إلى أن كان متتصف هذا القرن وقامت دولة إسرائيل فوق ربا فلسطين، ولم يغب عن ذهن اليهود مراة خبيرة وقد تبرعوا الذل والهوان فيها، وبقي الجيل بعد الجيل يروها، ويورث سلفهم الحقد لخلفهم ويذكره بالثار من رسول الله ﷺ. حتى كانت معركة الخامس من حزيران. حيث سلمت الجولان غنيمة باردة لليهود من الخائن العربي الأكبر. رغم الحصون الضخمة التي فيها، والتي كانت كفيلة أن تقاوم اليهود بعدة جنود قلائل أشهرًا طوالًا، سلمت بدون قتال، على الجبهة السورية، وانهارت تحصينات الجولان التي كان يقال عنها - خط ماجينو - لا بالشجاعة اليهودية ولكن بالخيانة العربية.

لقد كان النصر الإسلامي في خبيرة من القوة والضخامة بحيث أنهى الوجود العسكري لليهود. خلال هذه القرون الطوال. وفي غفلة من الزمن، وفي غياب لجنة الإسلام عن الأرض وفي غياب لخلافة الإسلام وحكم الإسلام بُرِزَ الوجود اليهودي من جديد.

٧ - وحين نعالج ذلك الواقع ندرس من خلاله الصيغة التي انتهى بها اليهود إليها أن يكونوا خولاً عند المسلمين وأجراء فيخدموا الأرض وهم نصف الثمر وللمسلمين النصف، ولقد كانت القيادة النبوية من العظمة ما جعلها فوق أحقاد اليهود، وجعل التعامل معهم بصفتهم بشراً ومدنيين غير مقاتلين بحيث لا يستغل جهدهم، ولو كانوا أعداء الله ورسوله، ولا تستنزف طاقاتهم بعيداً كالعبد، بل يمكن إيجاد جو من التعايش معهم. بحيث يستغلون بأرض المسلمين وهم نصف الثمر. والحركة الإسلامية اليوم بحاجة إلى فقه هذا المعنى. فمن أجل الجهاد رفض رسول الله ﷺ أن ينكح الجيش المقاتل الثائر على الزراعة، فيفقد جاهزيته ويفقد عسكريته، ويفقد جنديته، كما علمهم القرآن الكريم.

(ولا تلقو بأيديكم إلى التهلكة) (١).

وليس التهلكة إلا الإنشغال بالزراعة والضرع عن المعركة فلا بد أن توجه كل الطاقات للمعركة أما الأرض فلن تلهي عنها ولن تشغل عنها، واليوم والحركة الإسلامية تعد نفسها لمواجهة شاملة لا بد لها أن تجند كل طاقاتها للمعركة. فالإسلام لم يقبل هذا الموقف بعد النصر المؤزر المبين. فكيف تقبله الحركة الإسلامية وهي تخوض معركة وجودها أو لا وجودها في الساحة.

ومع ذلك. فقد استفاد رسول الله ﷺ من الخبرة الزراعية المختصة ، ولو كانت من اليهود لتلبى هذا القطاع وتؤمن حاجته ومضي العام الأول والثاني ورسول الله ﷺ والمسلمون ماضون في حربهم ، وتنقل لهم ثروات أرضهم فهل يستطيع المسلمون اليوم أن يعيدوا اليهود إلى الأرض

(١) البقرة: من الآية ١٩٥

## وتكلون لهم القيادة والسيادة من جديد؟

٨ - وإذا كان أمر التعامل مع اليهود وهم أذلة فإن هذا لا يعني في المفهوم الإسلامي بخسهم حقهم ولو كانوا مستضعفين أو مضطرين للعمل مع النبي ﷺ وصحابه وتذكر كتب السيرة عن ذلك الخرس الوحيد الذي قام به عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لعام واحد وهو يوزع الثمر مناصفة بين اليهود والمسلمين قالوا له : ما نراك عدلت . فيجيب رضي الله عنه : يا إخوة القردة والخنازير ، والله ما أحد على ظهر الأرض أبغض إليّ منكم وما يدفعني بغضي لكم أن أنقصكم نمرة واحدة . ووالله ما أحد على ظهر الأرض أحب إليّ من محمد ﷺ ، وما يدفعني حبي له أن أزيده نمرة واحدة . إن شئتم هذه أو شئتم هذه ، ويشير رضي الله عنه إلى الحصتين أمامه . أو كما روى ابن اسحاق : (قالوا له : تعديت علينا ، قال : إن شئتم فلكلم ، أو شئتم فلننا ، فنقول يهود : بهذا قامت السماوات والأرض) (١) .

وإذن فمفهوم دولة الإسلام وحكم الإسلام الذي نرقبه ونسعى له ، ونقاتل من أجله هو في تحقيق هذا العدل بين العدو الصديق والقريب والخصم وهو أكبر ميزان على تحقيق شريعة الله في الأرض أن يأمن العدو قبل الصديق ، والخصم قبل الأخ ، ولا يطبع شريف في ظلم ، ولا ي AIS ضعيف من عدل وأن يطمئن المسلم الآمن على ماله وعرضه وعقيدته وأرضه واليهود الذين عاشوا في ظل هذا الإسلام العظيم ، نعموا بهذا الأمن ، وطردتهم دول الأرض وأوتهم دولة الخلافة الإسلامية فكان جزاؤها أن هدموا هذه الخلافة إنهم يعلمون أن عدل محمد ﷺ لن يستطيعوه هم على أنفسهم ، ومن أجل ذلك قالوا : بهذا العدل قامت السماوات والأرض ، وأن يتعامل عبد الله بن رواحة وهو المبغض الألد لهم بنفس الصيغة التي يتعامل فيها مع حبيبه عليه الصلاة والسلام .

إنه مالم تقتنع قاعدة الحركة الإسلامية بأن قيادتها على الجادة ، وأنها تحقق العدل في صفوتها وتؤثر الحق على العاطفة في تعاملها ، فلن تخطو خطوة واحدة خارج صفتها في تحقيق الهدف الذي ترно إليه وعندما يطمئن الصف المسلم إلى أن قيادته رائدها العدل دائمًا وأنه لن يضيع حق لفرد من أفراده فيه . فحينئذ تستطيع أن تكون داعية لهذا المعنى في صفو الحصوم ، ولا بد أن يتربى الصف كذلك على قبول هذا العدل والرضوخ له ، ولو كان على حسابه ومن مصلحته .

فالقضية ذات طرفين متوازنين الطرف الأول : طرف القيادة الصارمة العادلة التي لا تأخذها في الله لومة لائم ، وتكون قوامة بالقسط شاهدة الله ولو على نفسها أو الوالدين والأقربين . وطرف القاعدة التي لا تعتبر الإسلام مغنياً ومكسباً ، وحقاً متسليطاً على رقاب العباد بل تعطي من ذاتها ونفسها ما يعين القيادة على تطبيق هذه العدالة وأن تخضع للحق ولا تستجيب للنزوة الطارئة

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ : ٣٥٤

أو الموى الجموع .

٩ - والمعنى الآخر الذي نلحظه من خلال خير هو إخراج اليهود من جزيرة العرب إذ لم يكن نقضاً للعهد كما يحلو للمغرضين أن يسموه ، بل كان جزءاً من الاتفاق الأول حين عرض اليهود على رسول الله ﷺ أن يعملوا مع المسلمين في الأرض فكان جوابه عليه الصلاة والسلام (فاعطاهم خير على أن لهم الشطر من كل زرع ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم) وعند ابن اسحاق : (وأقركم ما أقركم الله ) .

وعندما أصبحت المصلحة بإجلائهم عن خير ، وتأكد لأمير المؤمنين رضي الله عنه هذا المعنى ووصية النبي ﷺ لا يجتمع بجزيرة العرب دينان ، أمر بإجلائهم إلا من كان معه عهد من رسول الله ﷺ خاص به بالبقاء .

وتبقى دوماً مصلحة المسلمين العليا وأمنهم ، أهم من مصلحتهم العادلة في زرعهم وضرعهم ، ويضحى بكل شيء حفاظاً على هذه المصلحة على ما يأن المسلمين قد اكتسبوا الخبرة المطلوبة في الأرض . وصاروا قادرين على الانتاج ولديهم السعة للعمل في الزراعة بعد التمكين الكبير لهم فاستغنى عن هذه الطاقات كما تستغنى كل دولة وحركة عن خدمات وخبرات من هم خارج صفوها عندما تمتلك هذه الخبرات أو تستغني عنها وتعتمد الاكتفاء الذاتي في تسيير دولتها .

١٠ - ويزر المعنى الأخير في خير من خلال السبر العام لنفسية قريش حين جاءها الحجاج بن علاظ السلمي ، ولم تعط فرحتها لأحد بهزيمة محمد وأسره ، لكنها فوجئت بالصاعقة على رأسها حين عرفت أن الحجاج عبث بها حتى أخذ حقه وماه ورحل عنهم .

والذى يعنيها من هذا الدرس جانبان :

الجانب الأول : في التيقظ من المهددين ، والتعرف على حقيقة نفسياتهم وإمكانية نكثهم للعهد إن أتيح لهم ذلك وعلى الحركة الإسلامية أن تقدم الاختبارات المتالية للتعرف على نفسية الحلفاء والمسالمين .

الجانب الثاني : حق الجندي المعترف على شركه أن يصل إلى حقه عن طريق التضليل بالصف المشرك وإلا لحرم هذا الحق لإسلامه وطالما أن الأخ لم يعلن التزامه في الصف الإسلامي فالمجتمع الجاهلي يحمل وزر تصرفه لا المجتمع الإسلامي فالحجاج في ظاهر الأمر مشرك وأعطي المال على ضوء شركه واستعمل المخادعة للوصول إلى حقه لكنه لم يقدم على هذا الأمر إلا بعد استئذان قيادته .

وحيي بشباب الحركة الإسلامية خاصة السريين منهم الذين يحسبون في الأصل جواز مثل هذه التصرفات إلا تتم إلا من خلال الإذن من القيادة الشرعية التي تحدد حدود هذه التصرفات

والاجتهد الفردي مرفوض ولو كان صواباً محضاً واستئذان القيادة الشرعية ولو كان خطأ محضاً من حيث السلوك فهو صواب محض من حيث التنظيم .

١١ - ومن المعاني الواضحة في خير والتي لم تغب في كل لحظاتها الدعوة إلى الله تعالى فما من مواجهة بين اليهود وال المسلمين إلا والتوجيهات النبوية تؤكد على ضرورة الدعوة إلى الله قبل المواجهة .

( فأعطاه الرأي فقال : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، قال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجالاً واحداً خيراً من أن يكون لك حمر النعم ) (١) .

فإذن ليست الدعوة إلى الله في حالة المسلم فقط ، ومقابل المعركة ، إن المسلم وهو في قلب المعركة داع إلى الله تعالى قبل أن يكون مقاتلاً . والبطل العظيم علي رضي الله عنه يحمل الرأي بشهادة رسول رب العالمين . يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، ويفتح الله تعالى على يديه ، ومع ذلك فالدعوة إلى الله تعالى هي الأصل ، والمداية خير من القتل .

وهداية أمرىء واحد خير من حمر النعم ، فليدرك هذا الأمر شباب الحركة الإسلامية أن قضية الدعوة إلى الله يجب أن ترافق المسلم في كل لحظة من لحظات حياته قبل المعركة وخلالها وبعدها وأن يصبح تقييم القيادة والحركة من خلال المعركة ونسيان الأصل الذي قامت عليه الجماعة هو انحراف في الفهم الإسلامي ولا شك . ولئن كانت هذه المرحلة بعد صلح الحديبية هي مرحلة الانطلاق السياسية والدعوية وكانت معركة خير ظاهرة خاصة في قلب هذه الأحداث لكنها بقيت تحمل طابع الدعوة إلى الله مع اليهود الذين حاربوا هذه الدعوة منذ مهدتها وحاربوا سيد الدعوة محمد ﷺ منذ ولادته .

١٢ - ولا ننسى في النهاية دور المرأة المسلمة وقد شاركت في خير في أكبر تجمع نسوي بلغ عدده عشرين امرأة ، ورضخ رسول الله ﷺ لهن من الفيء وتبقى هذه الذكرى حتى لا ننسى دور المرأة المسلمة في الصف الإسلامي بجوار الرجل . فإذا كان لها دور في المعركة فمن باب أولى أن يكون لها الدور في الدعوة إلى الله . والمرأة نبهة لدعنة الشر في الأرض يريدون لها أن تُهدم الأسرة معها . وبالتالي يهدم المجتمع كله . ولعل القلادة التي أهداها النبي ﷺ للفتاة الغفارية تُعدّ كثيراً من غلوائنا ونحن نتعامل مع النساء وذلك كما روى ابن اسحاق عن امرأة من بنى غفار قالت : أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بنى غفار ، فقالنا : يا رسول الله ، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا وهو يسير إلى خير ، فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال :

---

(١) صحيح البخاري ٥٠٥ / ٢

على بركة الله . قالت : فخر جنا معه ، و كنت جارية حديثة ، فأرددني رسول الله ﷺ على حقيقة رحله ، قالت : فوالله لننزل رسول الله ﷺ إلى الصبح وأناخ ونزلت عن حقيقة رحله وإذا بها دم مني ، وكانت أول حية حضتها قالت فنقبضت إلى الناقة واستحيت ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما في ورأى الدم قال : مالك لعلك نفست ، قالت قلت : نعم قال : فأصلحي من نفسك ، ثم خذني إماء من ماء فاطرحي فيه ملحًا ، ثم أغسلني به ما أصاب الحقيقة من دم ثم عودي لمركبك ، فلما فتح رسول الله ﷺ خير رضخ لنا من الفيء هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطيتها ، وعلقها بيده في عنقي ، فوالله لا تفارقني أبدا )٢(



## السَّمَةُ الْعَاشُورَةُ قيادات العدوك تنصر الملا إسلام

اسلام عمرو بن العاص : قال ابن اسحاق : وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي ، عن حبيب بن أبي أوس الثقفي قال : حدثني عمرو بن العاص من فيه قال :

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق . جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ، ويسمعون مني ، فقلت لهم : تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً ، وإنني قد رأيت أمراً فما ترون فيه ؟ قالوا : وماذا رأيت ؟ قال : رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإذا نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد . وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا ، فلن يأتيانا منهم إلا خير ، قالوا : إن هذا الرأي قلت : فاجعوا له ما نهيه له . وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم ، فجمعتنا له أدمًا كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه .

فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه قال : فدخل عليه ثم خرج من عنده . قلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضمري . لو قد دخلت على النجاشي وسألته إيه فأعطيته ، فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك ، رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد . قال : فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحباً بصديقي ، أهديت إلى من بلادك شيئاً ؟ قلت : نعم . أيها الملك قد أهديت إليك أدمًا كثيراً ، قال : ثم قربته إليه ، فأعجبه وانتهاء ، ثم قلت له : أيها الملك ، إني قد رأيت رجالاً خرج من عنده ، وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطيته لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرفنا وخيارنا ، قال : فغضب ، ثم مدد يده فضرب بها أنفه ضربة ظنت أنك قد كسره فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه ، ثم قلت له : أيها الملك ، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألكه ، قال : أتسألك أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ! قلت : أيها الملك ، أكذاك هو ؟ قال : ويحيك يا عمرو ، أطعني واتبعه ، فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجندوه ، قلت : أفتبايعني له على الإسلام ؟ قال : نعم . فبسط يده فبايعته على الإسلام ، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه ، وكتمت أصحابي إسلامي (١) . . . .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ ص ٢٨٩

اسلام خالد بن الوليد (قال الواقدي : حدثني يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : سمعت أبي يحدث عن خالد بن الوليد قال : لما أراد الله بـي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام وحضرني رشدي فقلت قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ فليس في موطن أشهده إلا انصرف ، وأنا أرى في نفسي أني موضع في غير شيء ، وأن محمداً سيظهر ، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيلٍ من المشركين ، فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعسفان . فقمت بإزائه ، وترعررت له ، فصل بأصحابه الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم ثم لم يعزم لنا . وكانت فيه خيرة ، فاطلعت على ما في أنفسنا من الهم به فصل بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منا موقعاً ، وقلت : الرجل منع فاعتزلنا ، وعدل عن سير خيلنا وأخذ ذات اليمين فلما صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالرواح ، قلت في نفسي : أي شيء بقي ؟ أين أذهب إلى النجاشي ! فقد اتبع محمدًا وأصحابه عنده أمنون ، فأخرج إلى هرقل فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية . فأقيم في عجم ، فأقيم في داري بـن بقى ، فأنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء فتغييت ولم أشهد دخوله وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضاء فطلبني فلم يجدني فكتب إلى كتاباً فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك ! ومثل الإسلام جهله أحد ؟ وقد سألكي رسول الله ﷺ عنك ، وقال : أين خالد . فقلت يأتـي الله به فقال مثله يجهـل الإسلام ؟ ولو جعل نـكـايـته وجـدـه مع المسلمين كان خـيـراً لـه ، ولقدمنـاه على غيره فاستدرك يا أخي ما قد فاتـكـ من مواطنـ صـالـحة .

قال : فلما جاءني كتابـه نـشـطـتـ للـخـرـوجـ وزـادـنيـ رـغـبـةـ فـيـ الإـسـلـامـ وـسـرـنيـ سـؤـالـ رسولـ اللهـ ﷺ عـنـيـ ، وأـرـىـ فـيـ النـوـمـ كـأـنـيـ فـيـ بـلـادـ ضـيـقةـ مـجـدـةـ . فـخـرـجـتـ فـيـ بـلـادـ خـضـراءـ وـاسـعـةـ فـقـلـتـ : إـنـ هـذـهـ لـرـؤـياـ ، فـلـمـ أـنـ قـدـمـتـ الـمـدـيـنـةـ قـلـتـ : لـأـذـكـرـنـاـ لـأـبـيـ بـكـرـ ، فـقـالـ : مـخـرـجـكـ الـذـيـ هـدـاكـ الـهـ لـلـاسـلـامـ وـالـضـيـقـ الـذـيـ كـنـتـ فـيـ مـنـ الشـرـكـ . فـلـمـ أـجـمـعـتـ الـخـرـوجـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ قـلـتـ : مـنـ أـصـاحـبـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللهـ ؟ فـلـقـيـتـ صـفـوانـ بـنـ أـمـيـةـ فـقـلـتـ : يـاـ أـبـيـ وـهـبـ أـمـاـ تـرـىـ مـاـ نـحـنـ فـيـ إـنـاـ نـحـنـ كـأـضـرـاسـ ، وـقـدـ ظـهـرـ مـحـمـدـ عـلـىـ الـعـرـبـ وـالـعـجـمـ فـلـوـ قـدـمـنـاـ عـلـىـ مـحـمـدـ وـاتـبـعـنـاهـ ، فـإـنـ شـرـفـ مـحـمـدـ لـنـاـ شـرـفـ ؟ فـأـبـيـ أـشـدـ الـابـاءـ فـقـالـ : لـوـ لـمـ يـقـ غـيـرـيـ مـاـ اـتـبـعـهـ أـبـداـ . فـافـرـقـنـاـ ، فـقـلـتـ : هـذـاـ رـجـلـ قـتـلـ أـخـوـهـ وـأـبـوـهـ بـيـدرـ فـلـقـيـتـ عـكـرـمـةـ بـنـ أـبـيـ جـهـلـ ، فـقـلـتـ لـهـ مـاـ قـلـتـ لـصـفـوانـ بـنـ أـمـيـةـ فـقـالـ لـيـ مـثـلـ مـاـ قـالـ صـفـوانـ ، قـلـتـ فـاـكـتـمـ عـنـيـ . قـالـ : لـأـذـكـرـهـ . فـخـرـجـتـ إـلـىـ مـنـزـلـيـ فـأـمـرـتـ بـرـاحـلـيـ ، فـخـرـجـتـ بـهـاـ إـلـىـ أـنـ لـقـيـتـ عـثـمـانـ بـنـ طـلـحـةـ . فـقـلـتـ : إـنـ هـذـاـ لـيـ صـدـيقـ . فـلـوـ ذـكـرـتـ لـهـ مـاـ أـرـجـوـ ، ثـمـ ذـكـرـتـ مـنـ قـتـلـ مـنـ آـبـائـهـ فـكـرـهـتـ أـنـ ذـكـرـهـ ثـمـ قـلـتـ : وـمـاـ عـلـيـ وـأـنـ رـاحـلـ مـنـ سـاعـتـيـ فـذـكـرـتـ لـهـ مـاـ صـارـ الـأـمـرـ إـلـيـهـ فـقـلـتـ

: إنما نحن بمنزلة ثعلب في حجر لو صب فيه ذنوب من ماء لخراج وقلت له نحوً ما قلت لصاحبي ، فأسرع الإجابة ، وقلت له : إني غدوت اليوم . وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتي بفتح مناخة ، قال : فاتعدت أنا وهو بياجع إن سبقني أقام وإن سبقته أقمت عليه ، فأدخلنا سحراً ، فلم يطلع الفجر حتى التقينا بياجع ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدأة فتجدد عمرو بن العاص بها قال : مرحبا بالقوم فقلنا وبك . قال : إلى أين مسيركم ؟ فقلنا : وما أخرجك ؟ فقال : وما أخرجكم ؟ قلنا : الدخول في الإسلام ، واتباع محمد ﷺ قال : وذاك الذي أقدمني فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا فأخبرنا رسول الله ﷺ فسر بنا فلبست من صالح ثياب ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي : فقال : اسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسر بقدومك وهو يتضرركم ، فاسرعنا المشي فاطلعت عليه فما زال بيتسنم حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة ، فرد عليه السلام بوجه طلق ، فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال : تعال . ثم قال : الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقولاً رجوت أن لا يسلفك إلا إلى خير . قلت : يا رسول الله : إني قد رأيت ما كنت أشهد عليك من المواطن معانداً للحق ، فادعوا الله أن يغفرها لي ، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام يجب ما كان قبله . قلت : يا رسول الله على ذلك قال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صدٍ عن سبيل الله قال خالد : وتقديم عثمان وعمرو فبایعا رسول الله ﷺ ، قال : وكان قدومنا في صفر سنة ثمان قال : والله ما كان رسول الله ﷺ يعدل بي أحداً من أصحابه فيها حز به (١) .

كانت غزوٌ خيرٌ قد انتهت وحطمت ما بقي في نفسية مكة من مقاومة . فقد سقط حليف ضخم لها في المنطقة ، كانت تأمل أن يُنهي على محمد إن فاتها هي ذلك . وحتى غطfan ، فقد قام محمد ﷺ بغضوات لها في عقر دارها ، خلال هذه المرحلة ، وكان عمرو بن العاص بعيد النظرة ، حين حكم بعد الخندق بانتهاء قريش كقوة عسكرية بعد أن جيشت الجيوش وقدّرت عشرة آلاف مقاتل ل تستأصل شأفة محمد في المدينة ، ورجعت تجرجر أذىال الخيبة . فقد انتهى عمرو بن العاص رضي الله عنه كقائد حربي في مكة منذ الخندق ، كما حدثنا عن ذلك ، وصمم أن يغادر مكة إلى الحبشة لاجئاً سياسياً يعيش عند صديقه النجاشي ، تاركاً الأمور في أعتها حيث لا جدوى من المقاومة .

وكان الغزو النفسي لخالد رضي الله عنه إبان صلح الحديبية حين صلى رسول صلاة الخسوف في الوقت الذي هم فيه خالد بغضوه وأقسم أن الرجل منسوع . وتلقى عمرو بن العاص هزيمته الأخيرة بين يدي النجاشي حيث ثمنى لو أن الأرض ابتلعته فرقاً من النجاشي . ورواية الواقدي تقول إن النجاشي لم يضرب أنفه إنما ضرب أنف عمرو وتناثر الدم

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤ ص ٢٤٠ ط ٣ مكتبة المعرف ١٩٨٠

منه . وكانت تلك المزة الوجданية التي لامست عمر وفهزته من مفرق رأسه إلى أخص قدميه . ولم تنته إلا ببيعة عمرو للنجاشي على الإسلام في ذات اللحظة التي كان يود أن يضرب عنق عمرو بن أمية الضمري لو سلمه النجاشي إليه فلقد كانت المزة من العمق والضخامة بحيث كسرت أثقال الجاهلية وأغلالها وفتحت عينيه على الإسلام . وكانت الضربة العنيفة هي التي أعادته إلى رشده ، وقرر أن يرحل من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .

بينما كانت المزة الضخمة التي زلزلت كيان خالد بن الوليد رضي الله عنه تلك الرسالة الصغيرة المعدودة الكلمات . وقد غيرت كل مخطوطات حياته . فلقد غادر خالد مكة والغيط والحدق يأكل قلبه أن يدخل محمد مكة . بعد سبع سنوات من المقاومة دون أن يقف في وجهه أحد بل بإقرار قريش واعترافها ولا شيء على القائد العسكري أشد مرارة من المهزيمة . وأن يرى بأم عينيه خصميه مظفراً متتصراً ، ومن أجل ذلك غادر مكة عند دخول رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها ، بل فكر أكثر من ذلك بأن يفعل ما فعله عمرو وصحبه . أن يمضي إلى النجاشي أو كسرى أو قيسر . غير أنه وجد الذل واحداً وليس له من الصدقة عند النجاشي ما لصاحبه عمرو وسيكون نكرة في أي مكان يمضي إليه حتى ولو لم يكن مجاهلاً . فـأي معنى أن يضع إمكاناته وعمرقه لينصر فرساً على روم أو روماً على فرس . ومن أجل هذا ضاقت الدنيا في عينيه ، وهو يعرف في أعماقه أن موقعه الحقيقي في مكة .

وجاءت هذه الرسالة . لتعيد تركيبه من جديد . فلقد قدم مكة وخف الضغط على أعصابه أن محمداً صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد غادر مكة . ولم يكن غصة في حلقة أن يراه وهو يطوف حول الكعبة ويستلم الركن . ويرى من حوله أتباعه من كل مكان يسرحون ويهرون في بلده . وكانت رسالة أخيه عند والدته . وفض الرسالة ، ولم يأبه في بادئ الأمر إلى دعوة أخيه له للإسلام فهو لا يقيم هذا الوزن لرأي أخيه وطالما ساهم في حبسه ومنعه عن المسير إلى المدينة لكن الذي شدَّه ، وشد نظره أن يكون محمد رسول الله قد سأله عنه : وكاد يتلهم الكلمة التهاماً ليرى طبيعة السؤال ويرى دوافعه رأي محمد فيه ، وعلى الغالب أنه لم يخطر على باله دافعاً للسؤال عنه من محمد صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا الرغبة في إذلاله وإشعاره بالهزيمة والاستخفاف بهؤلاء المعاندين ، لكن المواجهة الضخمة التي هزت أعماقه هي هذه الكلمات العادية في الصحيفة المأهولة في التأثير والمعنى . ( فقلت : يأت الله به . قال : مثله جهل الإسلام ؟ ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين لكان خيراً له ولقدمناه على غيره ) .

فإذن ليس هو أمام قائد متعرجRF أذل كبرياته أو حتى غاضب ثأر لحروب ضخمة سابقة أو حتى عاتب لائم على مواقف معاندة مكابرة ، ليس أمام هذا كله . إنه أمام إنسان لا مثيل له في البشر . إنه أمام رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأعاد القراءة الثانية وما يكاد يصدق عقله ، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين لكان خيراً له ولقدمناه على غيره ، إذن فقد وجد ضالته ، ورأى موقعه ، تحت

## رأيَةُ مُحَمَّدٍ وَفِي الْمَوْقِعِ الْمَنَاسِبِ وَالْمَرْكُزِ الْمَلَائِمِ . إِذْنَ فَقِيمْ يَقْفَ؟ وَمَاذَا يَنْتَظِرْ؟

لقد حفقت هذه الكلمات القلائل تلك النقلة الهائلة خالد بن الوليد رضي الله عنه من الجاهلية إلى الإسلام . وكانت في ضخامة تأثيرها أشد بكثير من لطمة النجاشي . فلقد بقي عمرو ابن العاص رضي الله عنه شهوراً طوالاً قبل أن يعزز عزمه الأخيرة على المسير إلى المدينة أما خالد بن الوليد ، فقد كان التحول الضخم عنده ليهُىء متابعاً دون توانٍ ويمضي إلى محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وإن كان له من شبه في الأثر وفي تلك الضربة العمرية لختنه سعيد بن زيد وأخته وفي تلاوته لصدر سورة طه تلك الكلمات مستأعملاً عمر ومضى إلى دار الأرقام مؤمناً منياً بعد أن غدا قاتلاً . وهذه الكلمات اليوم حولت خالد بن الوليد من حاقد ناقم إلى مؤمن ملتزم .

ولم تستطع معارك عشرين عاماً وحوار عشرين عاماً أن يفعل فعله في خالد بن الوليد رضي الله عنه كما فعلت تلك الكلمات في أعماق خالد ، وهو يرى الأرض قد ضاقت عليه ويبحث عن الموضع الذي يضع قدميه فيه . فجاءه الرسالة لتقول له : تعال : هذا هو موقعك . وحلت أكبَر عقدة نفسية عنده .

ومضى ليستلقى قليلاً فيرى الرؤيا التي تناسب وهذا الوضع النفسي الجديد الذي خرج من صحراء قاحلة مجده إلى أرض خضراء موعرة .

والدعاة إلى الله اليوم بحاجة إلى وقفة طويلة مع هاتين القضيتين . قضية إسلام خالد ، وإسلام عمرو فأعمق الحادتين أكبر من الحدث الآني وهو دعوة ملحمة هؤلاء الدعاة أن يتعاملوا مع نفوس الناس . وأخص بالذكر الخصوم وقيادات الخصوم ، ليتحولوا تلك النفوس إلى الإسلام .

وليكن أعظم أهدافهم هو جعل طاقات وعيوب الخصوم تنصب في معين الإسلام وتندوّد عنه . تماماً كما قال عليه الصلاة والسلام ( ولو كان جعل جده ونكايته مع المسلمين ...) . ولتكن لدى الدعاة من سعة الصدر أن يقولوا لخصومهم ما قاله عليه الصلاة والسلام لأكبر أعداء الإسلام ذات يوم خالد بن الوليد ( ولقدمناه على غيره ) .

أن تنتصر الحركة الإسلامية في معركة حربية . فتجندل بعض القيادات قتلى ويلوذ بعض القواد بالفرار ثم يتاجج الحقد والرغبة في الثأر في معركة جديدة شيء عظيم لكن الأعظم منه بلا شك أن تنتصر الحركة الإسلامية في معركة النفوس الكبرى وفي حلبة الصراع العظيم بين الجاهلية والإسلام فتفتح هذه القيادات صدورها للإسلام وتنضوي تحت لوائه هو النصر الأكبر ولا شك . ومن أجل ذلك كان الفتح المبين في الحديبية . حيث أزيح السيف من الطريق ، وفتحت معركة العقيدة وسرعان ما انتصرت العقيدة في النفوس ، ومن أجل ذلك كان نصر الله والفتح ليس في هزيمة الجيش المكي الهزيمة المنكرة وعدد القتلى والجرحى فيه . إنما كان في دخول الناس في

دين الله أتواه فوجأاً ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفُتُحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجًاٌ فَسَبَعَ بِهِمْ رَبُّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا﴾.

النصر الحقيقي هو أن تدخل قادة العدو في الإسلام لا أن تهزهم في معركة من معارك الإسلام . وببقى هذا الهدف هو الأعلى .

نفس تحبها خير من إمارة لا تحبها ،

لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً لك من حمر النعم .

لكن فن الدعوة لا بد أن يلامس تلك النفوس لمساً حاداً، وينفذ إلى أعماقها نفوذاً حكيماً بحيث يكون هو المصير للمدعو ولا مصير غيره هو الحال ولا حل غيره .

أما إذا شعر العدو أو الخصم أن الإسلام هو الذي يذل، ويحطم مصالحه. فسيقى في إطار العداء لله على الدوام ،

ومن إسلام خالد إلى خطواته في الدعوة بعد لحظات إلى رفاق دربه صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وعثمان بن طلحة .

وحين شرح الله صدر خالد للإسلام صار على التوّداعية إلى الله وتذكر أحب الناس إليه هؤلاء الثلاثة وراح يعرض عليهم الإسلام فطروا عنه كشحاً، فلم تزلهم هزة خالد، ولم يشرح الله صدورهم بعد غير أن اقدامه على دعوتهم ليعطي دلالة واضحة على ضخامة هذه الهزة فلقد كان بإمكانه أن يكتم خبره ويفضي وحده إذا كان هذا الإيمان ذاتياً من جهة، وبرارداً من جهة ثانية، لكن حرارته وصدقه، مما اللذان دفعاه إلى عرض هذا الدين على رفاق الدرب معه بل أصبح يدرك بصيرة المؤمن، أن عناد هؤلاء الرفاق مرتبط بنزوات جاهلية عميقه ولما يمرّ عليه في الإسلام ساعات بعد، إذ أن مقتل آبائهم وإخوانهم هو الذي يعمي بصرهم عن الحقيقة ولن يدرك الحقيقة موتور ثائر إنما يدركها مخلص . بعيد عن الهوى والغرض .

ولعلنا قبل أن ننتقل مع القادة الثلاثة إلى المدينة نستمع لعمرو رضي الله عنه ينقل لنا طرفاً من الحديث من خلال رواية البيهقي عن الواقدي :

( . . . فغضب من ذلك ورفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظنت أنه كسره، فأبتدر منخرائي فجعلت أتلقي الدم بشبابي، فأصابني من الذل ما لم اشتقت في الأرض دخلت فيها فرقاً منه ثم قلت: أيها الملك لو ظنت أنك تكره ما قلت ما سألتك . قال فاستحيا، وقال يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، والذي كان يأتي عيسى لقتله؟ قال عمرو: غير الله قلبي عما كنت عليه . وقلت في نفسي ، عرف هذا الحقُّ العربُ والعجمُ

وتحالف أنت.. ثم دعا بسطت، فغسل عني الدم وكساني ثياباً وكانت ثيابي قد إمتلأت بالدم فألقيتها ثم خرجت على أصحابي فلما رأوا كسوة النجاشي سروا بذلك. وقالوا هل أدركت من صاحبك ما أردت؟ فقلت لهم: كرهت أن أكلمه في أول مرة. وقلت أعود إليه. فقالوا: الرأي ما رأيت. قال ففارقهم وكأنه أعمد إلى حاجة فعمدت إلى موضع السفن. فأجد سفينه قد شحنت تدفع قال: فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا إلى الشعبة، وخرجت من السفينه ومعي نفقة: فابتعدت بعيداً وخرجت أريد المدينة حتى مررت على مر الظهران ثم مضيت حتى إذا كنت بالهوة فإذا رجلان قد سبقاني بغير كثير يريدان منزلأً وأحدهما داخل في الخيمة والأخر يمسك الراحلتين، فنظرت فإذا خالد بن الوليد: قال: قلت: أين تريد؟ قال: محمدأً، دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحد به طעם ، والله لو أقمت لأخذ برقبنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها، قلت: أنا والله قد أردت محمدأً وأردت الإسلام فخرج عثمان بن طلحة فرحب بي فنزلنا جميعاً في المنزل ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة فـا أنسى قول رجل لقيناه بيئ أبي عتبة يصبح : يا رباح يا رباح فتفاءلنا بقوله وسرنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: أعطت مكة المقادمة بعد هذين وظنت أنه يعنيه يعني خالد بن الوليد، وولى إلى المسجد سريعاً فظننت أنه بشر رسول الله ﷺ بقدومنا فكان كما ظنت، وأنينا بالحرقة فلبسنا من صالح ثيابنا ثم نودي بالعصر فانطلقنا على أظلعنا عليه، وإن لوجهه تهلاً وال المسلمين حوله قد سروا بإسلامنا فتقدم خالد بن الوليد فبایع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبایع، ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه فـا استطعت أن أرفع طرف حياء منه فبایعه على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ولم يحضرني ما تأخر فقال إن الإسلام يجب ما كان قبله والهجرة تجب ما كان قبلها قال: فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزبه منذ أن أسلمنا. ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر بتلك المنزلة وكان عمر على خالد كالعادت.

ولقد عرضنا هذه الرواية الثانية التي تعطي ايساحات أكثر على إسلام عمرو رضي الله عنه . وتلقي أصواته على طبيعة شخصيته . فعمرو داهية العرب وقد بايع النجاشي على الإسلام لم يكن من سنته ولا من طبعه أن يطرح ما في نفسه على صحبه كما فعل خالد رضي الله عنه . بل كتم الأمر عنهم وأوهمهم بكسوة النجاشي أنه لا يزال على عهده واستحياناً طلب رسول محمد ﷺ هذه الهدية ، وانسل عن صحبه يبحث عن سفينه تقوده إلى يثرب .

وتبرز طبيعة شخصيه ثانياً حين التقى مع خالد ولم يظهر مقدمه للإسلام حتى اطمأن إلى خالد أنه ماضٍ إلى المدينة ليسلم . فشخصيته التي تقوم على أساس الحذر والحيطة المناسبين لطبيعة الداهية تقتضي منه هذه المواقف .

والملاحظ أن عرض عمرو رضي الله عنه لإسلامه وإسلام خالد بين يدي الرسول ﷺ لا

يختلف في المضمون لكن نرى في بعض الجزئيات إشارات لمعنى ضخم في طبيعة الدعاء فخالد رضي الله عنه يرى ابتسام رسول الله ﷺ له منذ لقياه . وأنه ينظر به وعمرو رضي الله عنه يرى تهلل وجه رسول الله ﷺ منذ أن رآهـا .

وَخَالِدٌ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ أَحَدٌ إِذَا حَزَّ بِهِ أَمْرٌ، وَعُمَرُ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْدِلْ بِهِمَا أَحَدٌ إِذَا حَزَّ بِهِمَا أَمْرٌ وَهَذِهِ الإِشَارَاتُ تَدْلِي عَلَى عَظِيمَةِ هَذَا النَّبِيِّ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَدَ آدَمَ فَكُلُّ صَاحِبٍ كَانَ يُشْعُرُ أَنَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّهُ مُوْطَنُ ثَقَفَتِهِ وَحْدَهُ مِنْ دُونِ النَّاسِ، وَهَكُذا كَانَ عُمَرُ وَخَالِدٌ يُشْعُرُانِ أَنَّهُمَا قَدْ احْتَلَا الْمَوْقِعَ الْمَنْاسِبَ وَأَنَّ كَفَاءَتِهِمَا الْعُسْكُرِيَّةُ وَالْسِّيَاسِيَّةُ لَمْ تَذَهَّبْ هَذِهِ أَوْ عَبْثًا بَلْ كَانَ لَهُمَا مَحْلُ الْقِيَادَةِ وَالرِّيَادَةِ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ رَغْمَ حَدَائِثِ دُخُولِهِمَا فِي إِسْلَامٍ .

ويبقى المعنى الأعمق والأشمل بإسلام هذه القيادات وأثر هذا الإسلام على المعسكر المكي الذي بدأ ينهار إثر هذه الضربة القاضية حتى أبو سفيان القائد العام شهد بأم عينه عند هرقل ما قاله قيسير في حق النبي ﷺ وكانت بداية الغزو النفسي له. لقد أهدت مكة إلى المعسكر الإسلامي ثلاثة أبطال من أبطالها وكل بطل ركن في عشيرته فخالد سيد بنى مخزوم وعمرو سيد بنى سهم، وعثمان سيد بنى عبدالدار وصدق فيهم قول رسول الله ﷺ لقد رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها، فهم قرة عين مكة، وقادتها الكبار ينضمون إلى معسكر النبوة.

ولإسلام عثمان بن طلحة أثر فوق هذه الآثار جميعاً هو أن مفتاح الكعبة معه، فبنو عبد الدار عندهم حجابة الكعبة، وعثمان بن طلحة قد انتهت إليه هذه المأثرة. وهذا الأمر يهدّي قريشاً هداً فهي تفاخر العرب باليت الحرام وأنها حاميتها والذائدة عنه فإذا كان حامل مفتاح الكعبة قد غدا جندياً في جيش محمد صلوات الله عليه فلقد انتهت ادعاءاتها في الحامية وصار عثمان بن طلحة المسلم صاحب الحجابة هو المسؤول أمام العرب عن حجابة الكعبة ورعاية البيت الحرام كما أن بني هاشم قد انتهت عندهم السقاية والرفادة وليس موقف العباس بتأييده المطلق الواضح لمحمد صلوات الله عليه بخافٍ عن أحد، وقد رأينا نموذجاً من هذا التأييد المطلق في خير، حيث ليس حلته تخلق بطيب، وممضي يطوف حول الكعبة ابتهاجاً بنصر ابن أخيه محمد عليه الصلاة والسلام.

وتبدو صورة هذه المعانى في وقتنا الحاضر حين ينضم إلى الحركة الإسلامية من كان يمثل موقعاً منهاً في المجتمع الجاهلي، كأن يكون سفيراً أو وزيراً أو ضابطاً قائداً فكما يكون مثل هذا الانضمام من أثر على قوة الحركة الإسلامية، وضررها نجلاء في صميم المجتمع الآخر. وحق لهذا العرض أن يكون سمة واضحة في هذه المرحلة من تاريخ الدعوة.

## السَّمَةُ الْخَادِيَّةُ عَشْتَهُ الصَّدَامُ الْأَوَّلُ مَعَ الرَّحْمِ - مَوْتُهُ

قال ابن اسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال:

بعث رسول الله ﷺ بعثة إلى موته في جمادى الأولى سنة ثمان واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فتجهز الناس ثم تهيؤوا للخروج. وهم ثلاثة ألف. فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم. فلما دع عبد الله بن رواحة من ودع من أمراء رسول الله ﷺ بكى. فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباية بكم. ولكنني سمعت رسول الله يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار «وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتىًّا مقتضياً». فلست أدرى كيف لي بالصدر بعد الورود فقال المسلمين: صحبتكم الله وردكم إلينا صالحين. فقال عبد الله بن رواحة:

وضربة ذات قرع تقدف الزبدا  
بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا  
أرشده الله من غازٍ وقد رشدا

لكنني أسأل الرحمن مغفرة  
أو طعنة بيدي حران مجهرة  
حتى يقال إذا مرروا على جدشي

ثم إنَّ الْقَوْمَ تَهْيَّأُ لِلْخُرُوجِ فَأَنِّي عَبْدُ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رَسُولِ اللَّهِ فَوْدُعَهُ ثُمَّ قَالَ:

ثبتت موسى ونصرًا كالذى نصروا  
الله يعلم أنِّي ثابت البصر  
والوجه منه فقد أزرى به القدر<sup>(١)</sup>

فثبتت الله ما آتاك من حسن  
إني تفرست فيك الخير نافلة  
أنت الرسول فمن يحرم نوافله

وسيعهم رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع، ثم وقف لهم حوله وقال: أوصيكم بتقوى الله وبين معكم من المسلمين خيراً أعزوا في سبيل الله فقاتلوا من كفر الله لا تغدوا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث. فايتهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكتف عنهم. ادعهم إلى الدخول في الإسلام فإن فعلوا فاقبل منهم واكتف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين فإن فعلوا فأخبرهم أن هم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم. فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله ولا يكون لهم في الفيء ولا في العنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبل منهم واكتف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

(١) السيرة لابن اسحاق ج ٣ ص ٣٧٣، ٣٧٤

وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزهم على حكم الله فلا تستنزهم على حكم الله ولكن انزلم على حكمك ، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تحمل لهم ذمة الله وذمة رسوله . ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله . وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين الناس فلا تتعرضوا لهم ، وستجدون آخرين في رؤوسهم مفاحص<sup>(١)</sup> فاقلعوها بالسيوف . لا تقتلن إمرأة ولا صغيراً ولا كبيراً فانياً ، ولا تغرن نخلاً ولا تقلعن شجراً ولا تهدموا بيتاً<sup>(٢)</sup> .

قال ابن اسحاق : ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم  
قال :

**خلف السلام على امرئ ودعته في النخل خير مشجع وخليل**

ثم مضوا حتى نزلوا معان فبلغ الناس أن هرقل قد نزل ماتب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم . وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهاء وبل إلى مائة ألف منهم ، عليهم رجل من بل ثم أحد إراشة يقال له مالك بن زافلة فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليثنين يفكرون في أمرهم وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما أن يدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره . فنمضي له . فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال : يا قوم ، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به . فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة . قال : فقال الناس : قد صدق والله ابن رواحة ، فمضى الناس فقال عبد الله بن رواحة في جسمهم ذلك شرعاً . ثم مضى الناس . حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ثم دنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ، فالتحق الناس عندها ، فتبعأ لهم المسلمون ، فجعلوا على ميمتهم رجالاً من بني عذرة يقال له : قطبة بن قتادة . وعلى ميسرتهم رجالاً من الأنصار يقال له عباية بن مالك . ثم التقى الناس واقتلو . فقاتل زيد بن حارثة برأسه رسول الله ﷺ حتى شاط<sup>(٣)</sup> في رماح القوم . ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألمه<sup>(٤)</sup> القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول

(١) المفحص : حيث تخشم القطا وتفرخ ، والمقصود عشاعة الشيطان بالفي

(٢) امتناع الأسماع ج ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦

(٣) شاط الرجل : إذا سال دمه فهلك

(٤) ألمه القتال : نشب فيه قلم يهدى مخلصاً .

رجلاً من المسلمين عفر (١) في الإسلام.

وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال: حدثني أبي الذي أرضعني، وكان أحد بنى مرة بن عوف. وكان في تلك الغزوة غزوة مؤته قال: والله لكانى أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء. ثم عقرها ثم قاتل حق قتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقتراها طيبة وبارد شرابها  
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها  
على إذ لاقيتها ضرائبها

قال ابن هشام : وحدثني من أثق به من أهل العلم : إن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء  
بسم الله فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضاً يه ، حتى قتل رضي الله عنه وهو ابن  
ثلاث وثلاثين سنة ، فأثنا به الله جناحين في الجنة يطير بها حيث يشاء . ويقال : إن رجلاً من الروم  
ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين .

قال ابن اسحاق: (وبالسند السابق):

فليا قتل أخذ الراية عبدالله بن رواحة، ثم تقدم بها، وهو على فرس فجعل يستنزل نفسه ويتrepid بعض التردد، ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنـه  
أن أجلب الناس<sup>(٢)</sup>، وشدوا الرنة<sup>(٣)</sup>  
قد طال ما قد كنت مطمئنة  
وقال أيضاً:

يَا نَفْرِ إِلَّا تَقْتَلِي نَمُوقٌ هَذَا حَامُ الْمَوْتِ قَدْ لَقِيتَ  
وَمَا تَنْيَتْ فَقَدْ أُعْطِيَتْ إِنْ تَفْعِلِي فَعَلَهَا هَدِيتْ  
يَرِيدُ صَاحِبِيهِ زِيدًا وَجَعْفَرًا، ثُمَّ نَزَلَ، فَلَمَّا نَزَلَ أَتَاهُ ابْنُ عَمِّهِ بَعْرِقٍ<sup>(٥)</sup> مِنْ لَحْمٍ فَقَالَ: شَدَّ  
بِهَذَا أَصْلَبَكَ، فَإِنَّكَ قَدْ لَقِيتَ فِي أَيَامِكَ هَذِهِ مَا لَقِيتَ، فَأَخْذَهُ مِنْ يَدِهِ ثُمَّ اتَّهَسَ<sup>(٦)</sup> مِنْهُ نَهْسَةً، ثُمَّ  
سَمِعَ الْحَطْمَةَ<sup>(٧)</sup> فِي نَاحِيَةِ النَّاسِ، فَقَالَ: وَأَنْتَ فِي الدُّنْيَا! ثُمَّ أَلْقَاهُ مِنْ يَدِهِ ثُمَّ أَخْذَ سِيفَهُ فَتَقدَّمَ.

(١) عقرها: صريب قوائمها وهي قائمة بالسيف (٥) العرق: العظم الذي عليه بعض اللحم

(٢) أجلب الناس: صاحوا واجتمعوا  
(٦) انتبه: أخذ منه يفهمه بسرّ

(٣) **الثانية:** صوت ترجيمه شبيه بالسكاء  
(٧) **الخطمة:** صوت ازدحام الناس

(٤) الشنة: السنة المائية

(٧) **الحطمة**: صوت ازدحام الناس، وحطمه بعضهم ببعض.

فقاتل حتى قتل.

ثم أخذ الراية ثابت بن أترم أخو بني العجلان فقال: يا معاشر المسلمين اصطلحوا على رجلٍ منكم. قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القوم وحاشى بهم<sup>(۱)</sup>، ثم انحاز وانحiz عنده حتى انصرف الناس.

وقد أورد ابن كثير روايات البخاري والنسائي والبيهقي حول نهاية الغزوة وبعض جزئياتها نسقها لتسكمل صورة هذه المعركة.

وروى البخاري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ نهى زيداً وجعفرأً وابن رواحة للناس قبل أن يأتיהם خبر فقال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، وعيشه تذران، حتى أخذ الراية سيف من سيف الله حتى فتح الله عليهم.

وروى البخاري عن عبدالله بن عمر قال: أمر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ﷺ إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة قال عبد الله: كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتل ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين من ضربة ورمية.

وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت خالد بن الوليد يقول:

لقد دقَّ في يدي يوم مؤته تسعة أسياف وصبرت في يدي صفحة يمانية.

قال الواقدي حدثني عبدالجبار بن عمارة بن غزية بن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم قال: لما التقى الناس بمؤته جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وكشف له ما بينه وبين الشام فهو ينظر إلى معتركهم فقال أخذ الراية زيد بن حارثة فجاء الشيطان فحبب إليه الحياة وكرَهَ إليه الموت وحبب إليه الدنيا فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تحبب إلي الدنيا، فمضى قدماً حتى استشهد، فصل عليه رسول الله ﷺ وقال: استغروا له فقد دخل الجنة وهو شهيد، وبُذُلت زيد أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة وكرَهَ إليه الموت ومناه الدنيا، فقال الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين ينفيي الدنيا، ثم مضى قدماً حتى استشهد فصل عليه رسول الله ﷺ وقال: استغروا لأخيكم فإنه شهيد دخل الجنة وهو يضر في جنة بجناحين من ياقت حيث يشاء ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة فاستشهد تم دخول جنة معترض فشق ذلك على الأنصار فقتل يا رسول الله: ما اعتراضه؟ قال: لما أصابته أخراج نكل فعدت نسمة فتشجع واستشهد ودخل الجنة فسرى عن قومه.

(۱) حاشى بهم: انحاز بهم

وقال الواقدي حديثي عبدالله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه قال :  
لما أخذ الرأبة خالد بن الوليد قال رسول الله ﷺ : الآن هي الوطيس .  
قال الواقدي وحدثني العطاف بن خالد قال : لما قتل ابن رواحة مساء بات خالد بن الوليد  
فلما أصبح غداً وقد جعل مقدمته ساقته وساقته مقدمته ، وميسرتها ميسرتها . وميسرتها فأنكروا  
ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيتهم وقالوا : قد جاءهم مدد ، فرعبوا وانكشفوا منهزمين (١) .

لقد كان قدر هذا الجيل أن يواجه أمم الأرض بهذا الدين وهذا نحن الآن أمام منعطف جديد  
في تاريخ دولة الإسلام هو الصدام المباشر مع الروم ، ويحسن أن لا يغيب عن البال أن السبب لهذه  
المعركة هو أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى ، فعرض له  
شريحيل بن عمرو الغساني ، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر ، فأوثقه رباطاً  
ثم قدمه فضرب عنقه (٢)

فالمعركة إذن نتجت عن الدعوة . ومقتل فرد مسلم يعني عند رسول الله ﷺ حرباً ضرساً  
مع المع狄ين ، ولعل هذا المعنى لا يغيب عن أذهان بعض الدعاة الذين يرون أن بالإمكان تجنب  
المعركة مع العدو إذا سالناه وعرضنا عليه فكرنا فحسب .

إن الصدام مع أعداء الله أمر لا مفر منه . لكن تحديد وقت الصدام وإمكاناته يعود إلى  
قيادة الجماعة المسلمة . الفقه النبوى يعني أن مقتل جندي مسلم - وهو رسول إلى العدو - إشعال  
معركة ضارية وقد فعلها رسول الله ﷺ مرتين :

الأولى : يوم الحديبية حين بلغه أن عثمان رضي الله عنه قد قُتل ، وأخذ البيعة من جيشه  
على الموت وهذه المرة الثانية . فلا بد إذن من توطين الحركة الإسلامية نفسها على المواجهة وهو  
تأكيد من جهة ثانية على الدرس السابق ، على أهمية الفرد المسلم عند قيادته وأن الجيش كله مستعد  
أن يخوض معركة للثأر له .

لكن الملاحظ أن هذا الأمر مرتبt بإمكانيات الجماعة المسلمة على ذلك ففي حالات  
الضعف كان كل ما يملكه رسول الله ﷺ أن يقول صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة ، أو يدفعهم  
إلى الذهاب إلى النجاشي الذي لا يظلم عنده أحد ، حتى المسلمين دولة ، قد تكون الدولة  
المسلمة عاجزة عن الثأر لشهادتها فمأساة بشر معونة والتي ذهب ضحيتها سبعون من خيار  
المسلمين لم يتمكن رسول الله ﷺ من الثأر لهم إلا بعد لأي .

لكن المعنى الأساسي يبقى ثابتاً في التحام الصف المسلم ، وقيمة الجندي فيه إنه

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦

(٢) الرحيق المختوم ٤٣٥

حين تكون الظروف مواتية. فلا يجوز أن يذهب دم الشهيد هدرأ، ولا بد أن يثار له.

ونقف أمام هذا العدد الضخم الذي تحرك لقاء الروم ، فلم يتحرك جيش خارج المدينة أكثر من ألف وخمسمائة مقاتل ، وأكبر جيش حشده المسلمون داخل المدينة هو جيش الخندق وكان قوامه ثلاثة آلاف مجاهد ، وما هو الجيش الإسلامي يتحرك اليوم مغادراً المدينة إلى الشام بثلاثة آلاف مجاهد ، وهنا نشير إلى الفتح المبين في الحديبية . حيث تضاعف عدد الجيش الإسلامي بعد الحديبية بستة ونصف على التقرير . وبدأت تظهر أسماء جديدة لم تكن تعرف من قبل فقائد ميمونة المسلمين في الحديبية قطعة بن قتادة وهو من بلي وهذا معنى مهم إذ القبائل التي تواجه المسلمين فيهم تجمع كبير من هذه القبيلة .

ونضيف في الحديث عن هذا الحشد إلى شعور الرسول ﷺ بخطورة المواجهة مع دولة عظمى ، فلن يصلح لهذه المواجهة عدة مئات .

ويؤكد هذا المعنى كذلك تعين الأمراء الثلاثة فلم يسبق لرسول الله ﷺ خلال المراحل السابقة أن عين أكثر من أمير على الجيش لكنه كان يعلم عليه الصلاة والسلام بما أوحى الله تعالى إليه أن الأمراء يلقون مصرعهم في هذه المعركة .

ولقد أدرك اليهود هذا المعنى حيث قال أحدهم : (إن الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا سموا الرجل على القوم فقالوا إن أصيب فلان فلان . فلما سموا مائة أصيبوا جميعاً ثم جعل يقول لزید : اعهد فإنك لا ترجع أبداً إن كان محمد نبياً قال زید : أشهد أنه نبي صادق )<sup>(١)</sup> وقد يقول قائل كان بإمكان رسول الله ﷺ تجنب هذه المواجهة مع العرب الغساسنة في الشام لكن الصورة المقابلة كذلك إن قتل هذا الرسول ولم يثار له . فقد يدفع عرب الشام مع الروم إلى غزو المدينة . وكثيراً ما يكون الهجوم وسيلة ضخمة من وسائل الدفاع عن النفس .

وإذا كانت قوة الجيش تقاس بمعنياته . فلن نجد أقوى من هذا الجيش والأصل أن يكون المسلمين اليوم في هذا الاتجاه عندهم بعض الخوف والتردد فهم يقدموه على حرب في البلقاء على تخوم الروم ، واحتمال المواجهة واردة معهم . ولم يسبق لهم رصيد من التجربة في الحرب مع الروم أو الفرس والدولتان الكبيريان آنذاك تقاسمان الأرض ومع ذلك فقد كان أحد القادة الثلاث يبكي وقد حضره المسيطر . ولم يكن سبب بكائه جزعاً من الموت إنما كان خوفاً لما بعد الموت ، خوفاً من النار التي يردد عليها الناس جميعاً : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتى مقتضياً ». وتصور الناس أن الدعاء بالسلامة هو الذي يتلخص الصدر فقالوا له والإخوانه : صحبكم الله ودفع عنكم وردمكم إلينا صالحين . فكان جواب القائد الشاعر ابن رواحة

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٢٤١ عن البيهقي

## طلب الشهادة في أرض الشام والمغفرة.

هذه نفسية الجيش وقيادته قبل التحرك.

وكانت أزمته الثانية عندما بلغه التجمع الهائل وهو في معان وهو وجود حوالي مائتي ألف من العرب والروم قد تهيأوا للقائهم ومضوا يناقشو الأمر وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره ولم يكن من بين الحلول المطروحة أن يعودوا إلى المدينة. وكل ما يخسونه أن تكون المواجهة مغامرة غير جائزة أن يواجهوا هذا العدد الضخم بقوتهم الضئيلة. وما اعتقد أن جيشاً في الأرض لا تنهار معنوياته أمام هذه المواجهة وبينهم هذا الفارق في العدد والعدة ولكن هذا الدين الذي ضرب جذوره في أعماق هذه العصبة المؤمنة، جعل منهم نموذجاً آخر لا يبارى في التاريخ وجعل لدى الجيش تلك الأرضية التي تقبل قول الأمر الشاعر ابن رواحة رضي الله عنه.

(والله إن التي تكرهون للي خرجتم تطلبون الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة).

وأمكّن لهذه الكلمة أن تفعل في الجيش كلّه فعل السحر، وانطلق الجيش للمواجهة قائلين قد والله صدق ابن رواحة.

إن فكرة الشهادة والأمل برضوان الله تعالى ودخول الجنة قد أثبتت التاريخ عملياً أنها أقوى دافع في هذا الوجود للمواجهة والموت. لأن المسلم على يقين أن ما عند الله خير وأبقى للمسلم من كل شيء فلا يتوانى لحظة واحدة عن الإقبال على الموت تغمره السعادة ويحددوه الرضا بقضاء الله وقدره. وكلا الأمرين لا يدرى أيها أحب إليه النصر أو الشهادة. وهذه الروح المعنوية التي رفقت الجيش المسلم في كل معاركه هي التي رجحت كفته دائمًا على عدوه. ودانت له الأرض بسبب ذلك.

وكانت الأزمة الثالثة العنيفة لحظة المواجهة، أو المفترض أن تكون الأزمة لكن الروح المعنوية العالية، على ما تذكر الروايات، لم تفارق الجيش وهو بعده الضليل أمام ذلك الجيش العمرم وكانت القيادات من الكفاءة بحيث تتسابق أمام جنودها على الموت. وكأنما هي تجهز له تجهيز العروس لعرosc.

(قال ابن اسحاق : ثم التقى الناس فاقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة برایة رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم .)

ومقتل قائد واحد خلال لحظات قليلة كفيل أن يعيد النظر في المواجهة حيث كان الأمير الثاني جعفر بن أبي طالب . لكن شوق الجنة هو الذي حدا بجعفر رضي الله عنه أن يقتسم عن فرسه الشقراء ويتراقص فرحاً بالجنة وهو يواجه العدو :

يَا حِبْدًا الْجَنَّةَ وَاقْتَرَابُهَا طَيْبَةٌ وَبَارِدٌ شَرَابُهَا  
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بِعَيْدَةٍ أَنْسَابُهَا  
عَلَى إِذْ لَاقَتِهَا ضَرَابُهَا

واستشهد القائد الثاني فجرى بعض الفتور في هذه الروح المعنوية عند ابن رواحة ، وكان الفرق واضحًا بين طلبه الشهادة وهو في المدينة وبين معايיתה وهو في مؤته . لقد كانت الرؤى الشعرية الوجدانية عنده أقوى من الواقع العملي . فراح ييرز خملجات نفسه في هذا الحديث الرائع

أقسمت يا نفس لتنزلنـه لتنزلنـه أو لتكرهـه  
قد طال ما قـد كنت مـطـمـثـة مـالـي أـرـاـك تـكـرـهـيـنـ الجـنـةـ  
ولـم يـكـفـ بـهـذاـ الحـدـيـثـ النـفـسـيـ ، فـراـحـ يـنـقـلـ حـدـيـثـاـ آـخـرـ:

يا نفس الا تقتلني ثمون  
إن تفعلني فعلهما هديت  
هذا حمام الموت قد لقيت  
أو تعرضي عليهم فقد شقيت

ولكن مهما تزعزع القائد إذا كان له من إيمانه ما يعصمه . فلا بد من الثبات بعد ذلك وهذا ما جرى لدى ابن رواحة فقد طغى التدفق الإيماني عليه ، وانخرط في القتال حتى قضى شهيداً في سبيل الله .

وكانَت الأزمة الأخيرة، وهذه الروح المعنوية العالية كفيلة أن تمحض أي روح منها سمت، وبعد مقتل الأمراء الثلاثة وانتهاء القيادة من المعركة. لم يعد إلا ذبيح هذا الجيش كلّه. فمن هؤلاء من مرضى لائذا بالفرار إلى المدينة لكن أكثرية الجيش عادت فتمالكت. وأخذ الرأبة ثابت بن أقْرَم رضي الله عنه، وهو يحس بثقل الأسانتة.

(وصاح : يا للأنصار . فاتاه الناس من كل وجه وهم قليل ، وهو يقول : إلى أيها الناس فلما نظر إلى خالد بن الوليد قال : خذ اللواء يا أبا سليمان ! فقال : لا آخذنه أنت أحق به ، أنت رجل لك سن ، وقد شهدت بدرًا قال ثابت : خذه أيها الرجل . فوالله ما أخذته إلا لك فأخذه خالد . . ) (١)

وهكذا استطاع هذا الجيش المسلم أن يواجه ذلك البحر المتلاطم من البشر بتلك الروح

٣٤٨ ) امتاع الاسماع ج ١ :

المعنوية العالية التي لم يرو لها التاريخ مثيلاً إلا في المحسن الإسلامي .

والذي نؤكده بحمد الله عز وجل أن هذه الروح المعنوية العالية بقيت خلال خمسة عشر قرناً في الأجيال الإسلامية يرثها الجيل بعد الجيل . وما تبنت فتاة مؤمنة بالإسلام إلا ووجدت في صفوتها هذه الروح ، حتى جيلنا المعاصر . فلم يعرف تاريخ الحركات السياسية اليوم بطولة نادرة واستبسال منقطع وضحايا في سبيل المهدى كما عرف تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة . وثيرى فلسطين وأفغانستان وحمة هي أصدق شاهد على ما نقول .

وإذا كان جيش العقيدة بهذه الروح المعنوية العالية فهو جيش المبادئ التي بقيت معلماً للبشرية خلال تاريخها الطويل حتى صحت البشرية اليوم ووضعت مبادئه في أصول الحرب ، لم ترتفع بعد إلى المستوى الإسلامي فوصية النبي ﷺ للجيش المعد لمقابلة أمم الأرض . توضح أن المهدى الأعظم فيه هي نشر هذه العقيدة وإبلاغ هذا الدين على يد هذه العصبة المؤمنة التي هيأها الله تعالى لذلك . (فادعهم إلى الإسلام فإن فعلوا فاقبل منهم واكتف عنهم) ليس الأمر طمعاً في مال أو أرض أو جاء إغاثاً دعوة الناس إلى الدخول في دين الله .

وحين يحال بين الناس وبين دين الله فلا أقل من لا يحال بينهم وبين شريعة الله والخضوع لهذه الشريعة من خلال الجزية كافية لانهاء الحرب والكف عن الدماء .

وما لم يكن هذا ولا ذاك ، فمن يحارب شرعة الله تعالى يُحارب ، ولا يجوز لجيش المبادئ أن يخالف المبادئ التي انطلق لتحقيقها والدعوة إليها ومن أجل ذلك نهى رسول الله ﷺ هذا الجيش عن الإخلال بهذه المبادئ قائلاً : (لا تغدوا ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليداً . . . وستجدون رجالاً في الصوامع معترزين الناس فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانياً) (١)

فهؤلاء الذين نشدوا السلام وهجروا الحرب كالوليد والمرأة والشيخ الفاني والمتبول للعبادة . ليس هم الإسلام القضاء عليهم بل هو يحارب من أجلهم ، ويقاتل الذين يشرعون سيافهم ورماحهم في وجه هذه العقيدة وهذه الشريعة ، ويحولون بين الناس وبين دين الله وشرعيته . ولا يقتل من المذنيين إلا دعاء البغي والانحلال (وستجدون آخرين في رؤوسهم مفاحضن فاقلعوها بالسيوف) .

وهؤلاء الذين انطلقا في الأرض وابتعدتهم الله ليخرجوا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ليسوا أوصياء على البشرية حين تستجيب لهم البشرية ، ولا يعني براءتهم . من الخطأ ، وأنهم الناطقون باسم الله ، بل هم بشر من خلق ومن أجل هذا يدعوهم رسول الله ﷺ إلى أن يتزلوا الناس على ذمّهم لا على ذمة الله ورسوله ، وبذلك يكون الخطأ عليهم لا على هذا الدين الذي

(١) امتناع الاسماع ج ١ : ٣٤٩

مضوا يدعون إليه ، ويدعوهم إلى أن يتزلوا الناس على حكمهم لا على حكم الله ورسوله (فإنك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا) .

وبذلك يتتحقق الخطأ بالإنسان لا بعقيدته ، بالقائد لا بدينه .

وهكذا نرى أن هذا الجيش المسلم هو كتيبة دعاة حضرت إلى أرض الشام لتابع رسالة المسلم الشهيد الذي قضى نحبه وهو يبلغ رسالة رسول رب العالمين .

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن مؤته إلا الوقوف عند أبوطاحا الكبار .

فلقد كان زيد رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ومن أخص خاصته . فلقد كان حب رسول الله ﷺ له حباً مشهوراً عند الصحابة جمِيعاً فيطلقون على ابنه أسامة الحبُّ ابن الحبِّ . وهو أول مولى على الأرض أشَرَّ قلبه بنور الإسلام ، والمهما الصعبة كانت عليه ، فهو المكلف بعد بدرٍ بياضِارِ أهل رسول الله ﷺ من قلب مكة ، وحين يحدِقُ الخطُر في أشد أحواله ، فليكنْ رجل المهمات الصعبة على رأسه ، وحين يقدِّمُ رسول الله ﷺ هذه المخاطر أحب الناس إليه ، لا يضن الناس بهجهم وأرواحهم بين يدي رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وكان الرجل الثاني . . . طرزاً رفيعاً من الرجال .

إنه جعفر بن أبي طالب ، الذي شهدناه داعية إلى الله عز وجل في الحبشة ، ورئيس الجالية الإسلامية فيها ، وأكرمه الله تعالى أن تسلم الملك على يديه فهو الذي أوضح الإسلام للنجاشي ، فاعتنته ، ولم نشهده إطلاقاً مقاتلاً في معركة ، إنه سفير فوق العادة لفترة خمسة عشر عاماً خلت في أرض الغربة لساناً ووطناً وديناً ، إذا به اليوم قائد معركة .

وليس في الإسلام ذلك الخط الفاصل بين السياسي والجندي والقائد . فكل مسلم هو جندي في المعركة منها علت مرتبته واحتلت وظيفته ، ولا ننسى أنه لم يمر على انضمام جعفر للصف الإسلامي في المدينة السنة ، أو تزيد قليلاً عن ذلك فقد وصل خير بعد الفتح ، وكانت خير في ربيع الأول لسنة سبع وكانت مؤنة لجمادي الأولى سنة ثمان .

عام واحد فقط . متع رسول الله ﷺ نفسه برؤيه حبيبه جعفر ، ويكتفي أن نعرف مبلغ حب رسول الله ﷺ لجعفر ، بعد غربة خمسة عشر عاماً عنه . إن رؤيته له كانت تعادل هزيمة اليهود ، فقال عليه الصلاة والسلام : (والله ما أدرى بما يهدا أنا أسر بفتح خير أم بقدوم جعفر) وعلى شدة هذا الحب ، وعلى طول تلك الغربة ، عندما لاحت بوارق الصدام مع الروم فكان الرجل الثاني لذلك جعفر بن أبي طالب ، وكان الدرس العلماً ، الأضخم أن يكون المولى زيد بن حارثة أميراً على جعفر بن أبي طالب القرشي المهاشمي .

وقد شهدنا جعفر رضي الله عنه يمضي من أرض الغربة إلى أرض الغربة فيسلح قراة

نصف عمره فيها ، وحين يحين القتال ، وهو لم يخض معركة من قبل قط ، يبدى من ضروب البسالة والقوة والمقاومة ما تتصاير أمامه الصناديد الأبطال ، يأخذ الرأية بيمينة فتقطع ، ثم يأخذها بشماله فتقطع ، ثم يأخذها بعنصريه ، ثم يسقط شهيدا وقد أفضى إلى ربه وقد انشق نصفين ، فلم يجد إخوته المؤمنون حرجاً أن ينظروا إلى عدد طعناته ورمياته فكانت تسعين ما بين ضربة سيف وطعنة رمح .

وكان لا بد لأنصار الله ورسوله من أن يشاركون في هذا الشرف العظيم على مستوى القيادة فكان الأمير الثالث هو شاعر الإسلام العظيم عبدالله بن رواحة .

وأن تكون قيادة الجيش بين مولىٰ وسفير وشاعر ، ليؤكد أن طاقات الإسلام كلها في خدمة المعركة . وأن قوتها في حالة الخطر هو كل شباب الإسلام .

وحافظ ثابت بن أقمر الأنباري بعد عبدالله بن رواحة الأنباري على الرأية حتى دفعها في صدر خالد بن الوليد .

وإذا كانت الغرابة عندنا أن ينضم جعفر رضي الله عنه وهو من أوائل من أسلم إلى جيش مؤتة بعد سنة من عودته . لكن الأغرب أن يكون خالد بن الوليد في هذا الجيش ولا يمض ثلاثة أشهر على انضمامه للصف الإسلامي بعد حرب عشرين عاماً ضد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فلقد أسلم في صفر ثمانٍ للهجرة . وتحرك للحجديبة في جاهي الأولى سنة ثمانٍ للهجرة كذلك ، أي أنه أمضى في مدرسة النبوة فقط شهر ربيع الأول وربيع الثاني وبقايا صفر وجاهي . هذه هي كل حياته في الصف الإسلامي ، ولو كان في الحركة الإسلامية اليوم لما حق له أن يوجه أسرة بله يقود معركة .

لقد مضى خالد رضي الله عنه بعزيمة الرجال يريد أن يطوي تلك الصفحة السوداء من حياته ليكتب صفحة جديدة من نور تغسل تلك الصورة القاتمة عن ماضيه في الصد عن سبيل الله ، ومن أجل ذلك فما أن لاحت بوارق التعبئة لمؤته حتى كان من أوائل المنضمين لهذا الجيش . ونفسه توق إلى تلك اللحظة التي يشهر فيها سيفه في سبيل الله .

ولكنه قدر الله تعالى الذي ادخل هؤلاء الرجال هذه الأزمات . . .

لم يكن يدري ابن الوليد أنه سيكون في موقع الاختبار ومنذ اللحظات الأولى ، في موضع قيادة العليا في الجيش ، والغريب أن الذي اختاره لذلك هو أنباري بدرى ورضي المسلمين بذلك . وكانت مفاجأة مذهلة لخالد ، هكذا وبكل هذه البساطة يغدو قائداً لجيش محمد عليه الصلاة والسلام ، ويسلمه القيادة وللواء الأنباري البدرى ثابت بن أقمر ، بل لم يدع المسلمين له لحظة اعتذار ، فهو بطل المرحلة ، والجيش الآن على أتون المذبحه الرهيبة بين يدي الروم لقد دفع إليه اللواء . والمسلمون معدون للفناء بسيوف الروم .

وظهرت معادن الرجال . ويطولات الرجال ، وعقبريات الرجال .  
ويا لعظمة هذا الدين .

خالد الذي هُم قبل عام ونصف أن ينقض على محمد ﷺ في صلاة العصر في الخديبية لينه  
هذا الصابء وجنته - على حد زعمه - يطلب منه الآن وبعد أقل من ثلاثة أشهر من إسلامه أن ينقذ  
جيش محمد صلوات الله وسلامه عليه من المذبحة المحتمة مذبحة الروم .

وخالد الذي انقضَّ فعلاً على محمد ﷺ قبل خمس سنوات من الخلف وحطم النصر المؤزر  
الذي حققه المسلمون يطلب منه اليوم أن يعيد الكراة ، فينقذ الجيش المهزوم المعروض للذبح من  
الفناء . مع فارق واحد هو إن جيشه الذي استعاد النصر فيه في أحد كان أربعة أضعاف جيش  
محمد ﷺ بينما يطلب منه الآن أن يستعيد النصر بجيشه قوامه ثلاثة آلاف مقاتل على جيش قوامه  
مئتي ألف أي يطلب منه أن يستعيد النصر على جيش يبلغ سبعون ضعفًا من جيشه على التقرير  
ومع ذلك ، فقد تحقق النصر ، وفتح الله تعالى على يديه .

إن روایات السیرة تذكر إنه نجا بالجیش وفر فيه ، لكن أصح الروایات . والتي سقنا ثلاث  
روایات منها في البخاری فقط ، تؤكد أن فتح الله تعالى قد تم على يديه ، وأن الروم قد هزموا هزيمة  
منكرة ، بعد أن استعمل حيلته الحربية البارعة في فت عصد الروم بتغيير مواقع جيشه .

ويجمع ابن كثير رحمه الله بين روایات السیرة التي تؤكد خروج أطفال المدينة للاقاء الجیش  
بالحجارة لأنهم فروا من المعركة وبين روایات البخاری عن رسول الله ﷺ بانتصار المسلمين في أن  
فصيلة من هذا الجیش وفيها عبد الله بن عمر رضي الله عنه قد فرت بعد أن أطبق الموت عليها  
ونجت بأنفسها إلى المدينة ، أما أكثرية الجیش فقد بقيت في أرض المعركة تذود عن حمى الإسلام ،  
 واستحق خالد رضي الله تعالى عنه في هذه المعركة أرفع وسام في الجیش الإسلامي ، وأعلى رتبة ولم  
ينل هذا الوسام أحد بعده ولا أحد قبله ، أعلنه رسول الله ﷺ على المنبر . فقال :

(وأخذ الرایة سيف من سیوف الله سلّه الله تعالى على المشرکین ، جعل الله النصر على يديه)  
إنها لفقرة هائلة في المیدان العسكري من جندي عادي مغمور إلى قائد فذ يقلده رسول الله ﷺ هذا  
الوسام ، ومضى معه حتى لقي به العرب والفرس والروم ، فقال له قائد جيش الروم في اليرموك :  
هل أنزل الله سيفاً من السماء فأعطياكه . فلا تسلّه على قوم إلا هزمتهم ؟ ولم ينزل الله تعالى سيفاً  
من السماء . بل أثبت هذا السيف من صلب الوليد بن المغيرة الذي هجاه الله تعالى في كتابه ،  
ونقله بعد عشرين عاماً من قلعة الشرك إلى قلعة الإيمان . فإذا معادن الرجال تبرز صارمة صارخة  
كما يقول عليه الصلاة والسلام : الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا  
فقهوا )١( .

---

(١) رواه البخاري في باب المناقب ، ومسلم كذلك

وتبدو أهمية هذه السمة في هذه المراحل في أنها كانت توطئة لفتح الاعظم في مكة ، وكانت كذلك تهيئة للقبائل العربية أن تنضم للإسلام . ولا شك أن ارتفاع معنويات المسلمين قد بلغ الذروة بعد غزوة مؤتة . حيث حدثهم رسول الله ﷺ عن الفتح الذي تم على يد خالد رضي الله عنه على المنبر ، وقبل وصول الجيش الإسلامي من مؤتة . وعاشت المدينة افراح النصر والام الصحايا في لحظة واحدة . وكان أطفال المدينة من اليقظة والوعي ما يشاهدون به يقظة ووعي أبطال الأرض ، فمع الحি�صة الأولى كانوا يقذفون الفصيل المنزه بالحجارة ويقولون : أنتم الفرار في سبيل الله ، ولم يخفف من وطأة هذا الهجوم إلا قول الرسول ﷺ لهم : بل أنتم الكاررون إن شاء الله ، ومع ذلك فقد عاشوا جوًّا من الهم والقلق . رغم عذر رسول الله ﷺ . بينما خرج الأطفال أنفسهم يستتدون مع رسول الله ﷺ يستقبلون الجيش المتصر وعلى رأسه سيف الله المسؤول خالد بن الوليد .

والحركة الإسلامية اليوم بحاجة إلى أن تتدبر هذه المعانى العظيمة في هذه المعركة . وتبحث عن افذاذ الرجال الذين يعدل الواحد منهم الألف بل المائة ألف . والذين غمراوا أو حالت الظروف دون بروزهم وظهورهم ، وقد يكون بين خصومها الأقوباء من يُذخره الله تعالى ليكتب نصره على يديه فما ندرى ؟ إذ ما الذي يمكن من أن تكرر تجربة أفلاد كبد مكة مرة ثانية . ولعل في رجالها وشبابها المنتشرين في أراضي الغربة في أوربة وأمريكا من هو مؤهل مثل هذه الواقع ، وما أحوج الدعوة إلى أمثال جعفر الطيار ، وسيف الله ابن الوليد .

لقد قال الله تعالى للمؤمنين الغاضبين الحانقين يوم صلح الحديبية :

«ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات أن تطؤوهم فتصيبكم منهم ميرة بغير علم ..»<sup>(١)</sup> .  
وتحقق موعد الله بالثورة الإسلامية التي قادها أبو بصير رضي الله عنه ، وأنقذ الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات ، وشاء قدر الله تعالى أن تتأجل المعركة كذلك رغم هم وغم المسلمين ثم كان الوعد الآخر .  
«.. ليدخل الله في رحمته من يشاء»<sup>(٢)</sup> .

وأدخل الله في رحمته بعد الحديبية هذه النماذج خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً)<sup>(٣)</sup> .

إنها الأقدار .. ولعل أقدار الحركة الإسلامية في هذا الجيل حين يبسطيء النصر . وتذهب المحنـة ، ويُفتح الخطـب . أن تكون إرهاصات لأن يدخل الله في رحمته من يشاء . فيكون منعطـافاً في تاريخ الأمة والحركة ، وينقـذ الله تعالى الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات . من براثـن الكـفر وأيديـ

(١) و(٢) و(٣) الآية ٢٥ من سورة الفتح

اللغة فيشاركون في معركة الحق الأجلج .. ويكونون الوقود الأساسي لمعارك الإسلام وهم عشرات الآلاف .

وفي أعقاب مؤتة وعلى خطاتها كانت غزوة ذات السلاسل ، وكان بطلها فلانة كبد مكة الثاني عمرو بن العاص ( وقد ذكرها الحافظ البهقي ها هنا قبل غزوة الفتح فساق من طريق موسى بن عقبة وعروة بن الزبير قالا : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من مشارف الشام في بل وعبد الله ومن يليهم من قضاة . قال عروة بن الزبير وبنو بل أخوال العاص بن وائل ، فلما صار إلى هناك خاف من كثرة عدوه فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمدءه فتدب رسول الله ﷺ المهاجرين الأولين فانتدب أبو بكر وعمرا في جماعة من سراة المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين ، وأمر عليهم رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح . قال موسى بن عقبة ، فلما قدموا على عمرو قال : أنا أميركم وأنا أرسلت إلى رسول الله ﷺ استمدءه بكم . فقال المهاجرون . بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أمير المهاجرين . فقال عمرو : إنما أنتم مدد أمدته . فلما رأى ذلك أبو عبيدة ، وكان رجلاً حسن الخلق لين الشكيمة . قال : تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلى رسول الله ﷺ أن قال : إذا قدمت إلى أصحابك فتطاوعا . إنك إن عصيتني لا طيعنك فسلم أبو عبيدة الإمارة لعمرو بن العاص .

قال الواقدي : حدثني ربيعة بن عثمان عن يزيد بن رومان أن أبا عبيدة لما آتى عمرو بن العاص فصاروا خمسة فسروا الليل والنهار حتى وطئ بلاد بل ودونها . وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان بهذا الموضع جمع فلما سمعوا بذلك تفرقوا حتى انتهوا إلى أقصى بلاد بل وعدرة وبليقين . ولقي في آخر ذلك جماعاً ليس بالكثير فاقتتلوا ساعة ، وتراموا بالنبل ساعة ، وحمل المسلمون عليهم فهزموا ، وأعجزوا هرباً في البلاد وتفرقوا ودواخ عمرو ما هناك وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه . وكان يبعث أصحاب الخليل فيأتون بالشاة والنعيم فكانوا ينحرون ويدبحون . ولم يكن في ذلك أكثر من ذلك . ولم تكن غنائم تقسم .

وقال أبو داود عن .. عمرو بن العاص قال : احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن أغتسلت أن أهلك ، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : يا عمرو وصليت بأصحابك وأنت جنب؟ قال : فأخبرته بالذي معنى من الاغتسال وقلت إني سمعت الله يقول : (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا) (١) فضحك نبي الله ولم يقل شيئاً .

وقال الحافظ البهقي عن أبي عثمان النهدي سمعت عمرو بن العاص يقول : بعثني رسول

(١) النساء (٢٩)

الله يَسْتَغْفِلُ على جيش ذات السلاسل وفي القوم أبو بكر وعمر، فحدثت نفسي أنه لم يبعشي على أبي بكر وعمر إلا لنزلة لي عنده ، قال فأتيه حتى قعدت بين يديه قلت : يا رسول الله ! من أحب الناس إليك ، قال : عائشة . قلت : إني لست أسألك عن أهلك قال : فأبواها ، قلت : ثم من قال : عمر ، قلت : ثم من ؟ حتى عدد رهطاً . قال . قلت في نفسي لا أعود أسألك عن هذا.

وقد خرجاه في الصحيحين ، وفي رواية : فسكت مخافة أن يجعلني آخرهم <sup>(١)</sup> .  
فقد كانت ذات السلاسل على غرار مؤنة وللهدف نفسه . ونجد هنا رسول الله يَسْتَغْفِلُ يختار عمر و مباشرة ليعجم عوده في الخط الإسلامي ، وبطبيعة عمرو الحذرة الذاهية طلب المدحية لما بلغه من كثرة العدو ، وكان مددًا من خيار أهل الأرض فمعظمهم من المهاجرين الأولين وأمر عليهم أبي عبيدة وفيهم أبو بكر وعمر .

إنها ليست معركة ، أو ساحة تدريب ، إنها مدرسة تربوية فلذة يشهد فيها عمرو بن العاص ابن ثلاثة أشهر في حضن الإسلام . كيف يمد بخيرة أهل الأرض أبي بكر وعمر ، ويشمخ أنفه أن يكون أميراً على الذين أمضوا قرابة عشرين عاماً في حضن الدعوة ، ولا يرضى أن يكون تبعاً لأبي عبيدة وعظمة أبي عبيدة وسماته ووصية رسول الله يَسْتَغْفِلُ له أن لا يختلفا دفعته للقول : لئن عصيتني لأطيعنك ، وسلم إمرة الجيش لعمرو بن العاص الذي كان قبل فترة وجيزة يخطط لضرب عنق رسول محمد يَسْتَغْفِلُ في الحبشة .

ومن حيث الحرب فلقد أبدى إمكانات فائقة ونفذ المهدف المرسوم كله ووطئ أرض  
قضاعة إذ كان مهياً لذلك فآمه أو أخواله من يلى من قضاعة .

إن أحاديث المعركة وتحقيق أهدافها العسكرية لا يعنينا كثيراً بمقدار ما يعنيها بناء هذا الصف  
المسلم .

هذا الصف الذي دخله من جديد أفواج ضخمة بالألفوف وفيهم من الشخصيات النابهة  
أمثال خالد وعمرو . إنه مجتمع يبني بسرعة فائقة . ويدع الحرب طاحنة فيها بعد فلا بد أن ينصره  
هذا المجتمع الجديد ، وتمكن القاعدة الصلبة الأولى أن تضم هذه العناصر الجديدة ، وتتكيف  
معها وتتكيفها مع الإسلام ، لا بد أن يقوم الرعيل الأول بالتجارب الرائدة الفلذة ، بالإشار  
المطلوب ، بالتضحية المناسبة بالبعد عن مراكز الشهرة ليتيح للطاقات الجديدة أن تأخذ مداها  
وحجمها وتبرز مكنون مواهبها .

واستطاعت هذه القاعدة الصلبة التي لم تكن تتجاوز ثلاثة الاف أن تفتح صدرها لثلاثة

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٢٧٥، ٢٧٦

أضعافها خلال هذين العامين ، وبسرعة هائلة امتصت هذه الطاقات دون أن يقع الصراع ، أو يقع التصادم ، أو تبرز الأنانيات ، والصراع على السلطة فيكون أبو بكر وعمر وأبو عبيدة رضي الله عنهم جنوداً تحت إمرة عمرو بن العاص .

نكتب هذا الكلام وتتفق الذاكرة عند واقع الحركة الإسلامية المعاصرة لتبين هذا النهج وإن لا تصور بعض قادة الكفر وقد هدأ الله تعالى للإسلام . كيف تكون نظرة الشباب المسلم الحادة له ، وتبالغ في الصفاء والتقاء والحديث عنه لدرجة تهم فيها قيادة الحركة بـ بِمَا لَهُ أَعْدَاءُ الأعداء والانطلاق في تيار الاحتواء . وأنصور كذلك هذه العواطف الصادقة ، وقد شهدت مثل حادثة الصلاة التي صلّاها عمرو رضي الله عنه . حتى ليصلّي بعد التيمم ، ويظهر أن الأمر لم يكن واضحاً لـ لِقَاعِدَةِ الإِيمَانِيَّةِ القاعدة الإيمانية بجواز التيمم على الجنابة ، ومن أجل هذا كان الأمر مستغرباً ، ووصل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ ويسأله : أصلحت بالناس وأنت جنب ؟

ومن ظاهر جواب عمرو رضي الله عنه أنه اجتهد دون الاستناد على حكم ثابت بجواز التيمم عن الجنابة ولذلك ذكر لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ اعتماده على قول الله عز وجل « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا » وضحك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ ولم يقل شيئاً .

لقد أقر عمراً على اجتهاده وليس ضحكه إلا دعابة له وموافقة على سلوكه .

أقول لو جرت مثل هذه الحادثة في الصف المسلم اليوم ، وأقدم قائد حديث العهد بالإسلام على هذا الأمر فصلّى بالناس وهو جنب لا تهمت قيادة الجماعة بالكفر البحاح وخرج أكثر الصف على هذه القيادة .

فالحركة الإسلامية اليوم تعاني أزمة ثقة ضخمة بقياداتها والأصل أنها تضعها موضع الشبهة والظننة والتهمة ، في صلاتها مع خصومها .

وما أحوج شباب الحركة الإسلامية الذين هم وقد معاركها ، أن يفتحوا صدرهم مثل هذه الحادثة من السيرة ، ويرروا أكبر أعداء الإسلام ، قد صار بعد ثلاثة أشهر من إسلامه أميراً على المهاجرين الأولين وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وأمثالهم ، ثم يصلّي بالناس على جنابته بعد التيمم ويقتدي به المهاجرون الأولون .

إن هذه التجربة الرائدة في تاريخ الأمم ما كانت لتسurge في إضافة ثلاثة أضعافها ونيف خلال سنتين وتأخذ هذه الأعداد موقفها الحقيقي في الصف وتقدم كل طاقاتها في سبيل الله ، لولم تكن القاعدة الصلبة الأولى على المستوى المطلوب من الانضباط والالتزام واللتزام والطاعة والصبر والإيثار والتفاني في سبيل الله وغياب الذات .

ونحن لا ننفي إطلاقاً بل نقول إن الدور الأضخم والأكبر الذي ساعد هذه القاعدة على تمثل هذه العناصر الجديدة هو شخص القائد الأعظم محمد بن عبد الله الموسى عليه من الله تعالى ، ومن أجل ذلك لا يقف الجندي المسلم ليفكر لحظة في مناقشة الأمر طالما أنه من رسول الله عليه لكنه يفكر في كيفية التنفيذ وسرعته في التو واللحظة .

فأبوعبيدة رضي الله عنه لم يقف ليوازن كثيراً نتائج تنازله عن الإمارة لعمرو ، واحتمالات أخطائه الكثيرة وهو الجديد على الإسلام ، بل كانت وصية رسول الله عليه مناراً هادياً له : ( لا تختلفا ، تطاوعا ) . فاستجاب على التو وقال . لئن عصيتني لأطيعنك .

وتبدو أهمية التربية لهؤلاء القادة الكبار الذين انضموا للصف الإسلامي من جديد من خلال العرض الأخير الذي عرضه لنا عمرو رضي الله عنه ، إذ حدثنا صراحة أن إمرته على أبي بكر وعمر وأمثالهم جعلت لديه غروراً بأنه أفضل من هؤلاء جميعاً . أو على الأقل أحب إلى رسول الله عليه منهم ، ولكي يؤكد هذا المعنى . يأتي ليسأل النبي الله عليه الصلاة والسلام عن أحب الناس إليه . وكان يتوقع الجواب أن يكون هو ذلك الإنسان فإذا به يفاجأاً بأن أحب الناس إلى رسول الله عليه بطيئة بعد عائشة زوجه هو جنديه الذي كان تحت إمرته أبو بكر وجنديه الذي كان تحت إمرته عمر ، وجنديه الذي كان تحت إمرته أبو عبيدة ، وعدد رهط من الصحابة ، واستحيا عمرو من ذكر هؤلاء الرهط حتى توقف عن الاستفسار خشية أن يكون آخرهم ، وكان لا بد أن يتلقى عمرو في مدرسة النبوة هذا الدرس الشديد حتى يفرق بين المهمة المحددة والموضع الأصيل ، يفرق بين التكليف والإكرام وبين الثقة بالمجاهدين الأولين الذين أمضوا حياتهم وأفنوا عمرهم في سبيل الله .

واكتفى بهذه الإجابات لتجعله ضمن المدى الذي حدد له ، ورضي الله عنهم أجمعين . فلم يغصب ولم تتحرك الجاهلية في كيانه ، بل أصبح لاحقاً بهذا الرعيل ، فيقدم لنا ذاته بخطأ تصوره وعظمة إكباره للشيوخين أبي بكر وعمر ، وإخوانها من المهاجرين الأولين .

وليستفيد الشباب المسلم من هذا الدرس كذلك ، ولippiضعوا ذاتهم خلفهم وليتقبلوا تقويم قيادتهم لهم في المهمات والملمات دون أن يضعوا أنفسهم فوق ما يستحقون ودون أن يحملوا على قيادتهم حين لا تستجيب لأهوائهم كما يستهون .

ونعرض أخيراً هذه الجوانب الجزئية كلها لتنتضم في إطار هذه السمة التي لاحظنا خطوطها العريضة في مواجهة الروم ، وفي بناء الصفة الداخلي المتلامس المذهل ، وأن هذه التوطئة قد كانت إيداناً بالتوجه نحو مكة لتحقيق الفتح الكبير ، وكان جنود المرحلة الأولى كأنما كلف كل واحدٍ منهم بالعديد من إخوانه يتحقق فقهها ويربيه سلوكاً . وينصحه قدوة ويبنيه مسلماً مخلصاً

خالصاً من براثن الجاهلية لتسع القاعدة الصلبة المتجهة إلى مكة إلى عشرة آلاف مقاتل .

والحركة التي تعجز عن استيعاب عناصرها الجديدة ، سوف تنفصل وتشتت إلى جماعات عددة .

وحركتنا الاسلامية التي تعاني من هذا الداء العضال ، يحسن أن تفقه هذا الدرس وتحفظ  
للاستيعاب الحقيقي للطاقات الجديدة الفتية . قبل أن تأكلها هذه الطاقات وتقضي عليها . بدل  
أن تكون البنيان المرصوص الجديد .



## السَّمَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَهُ : نَصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحُ : فَتْحُ مَكَّةَ

قال ابن اسحاق : ثم أقام رسول الله ﷺ بعد بعثه إلى مؤته جادى الآخرة ورجاً ثم إن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير :

فلم ظهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة وكانت في عقده وعهده خرج عمرو بن سالم الخزاعي ثم أحد بنى كعب حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، وكان ذلك مما هاج فتح مكة ، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهري الناس . فقال :

يا رب إني ناشد محمدا حلف أبيينا وأبيه الأئدا  
فإنصر رسول الله نصراً أعتصدا  
وادعوا عباد الله يأتوا مددنا  
إنه قريشاً أخلفوك الموعدا  
ونقضوا ميثاقك المؤكدا  
هم بيتوна بالوتير هجدا  
وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء  
قال : إن هذه السحابة تستهل بنصر بنى كعب ...

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه : فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني . قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ ، قال : يا بنية لقد أصابك بعدي شر .

ثم خرج أبا سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ ، فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ، فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ والله لو لم أجده إلا الذر لجاهدتكم به ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وعندته فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها وعندها حسن بن علي غلام يدب بين يديها ، فقال : يا علي إنك أمس القوم في رحمة ، وإن قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً . فأشفع لي إلى رسول الله ﷺ . فقال : ويحكم يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد هل لك أن تأمرني ببنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ بني ذاك أن يجير بين الناس إذ ما يجير أحد على رسول

الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ . قال : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت على فانصحي قال : والله ما أعلم لك شيئاً يغنينك ، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بارضك ، قال : أو ترى ذلك مغنىًّا عني شيئاً . قال : لا والله ما أظنه . ولكنني لا أجده لك غير ذلك . فقام أبوسفيان في المسجد فقال : أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره وانطلق فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت حمدًا فكلمته ، فوالله ما رأد على شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجده فيه خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب فوجده أدنى العدو ، ثم جئت علياً فوجده ألين القوم ، وقد أشار علي بشيء صنته ، فوالله ما أدرى أيغنى ذلك شيئاً أم لا ؟ قالوا : و بم أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت ، قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا قالوا : وبذلك إن زاد الرجل على أن لعب بك فما يغنى عنك ما قلت . قال لا والله ما وجدت غير ذلك .

**تجهيز الرسول لفتح مكة :** وأمر رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه فدخل أبو Bakr على ابنته عائشة رضي الله عنها ، وهي تحرك بعض جهاز رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ، فقال : أي بنية : الأمركم رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ أن تجهزوه ؟ قالت : نعم ، فقال : فما ترينه يريد ؟ قالت : لا والله ما أدرى ، ثم إن رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجذ والتهيؤ . وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ، فتجهز الناس .

**كتاب حاطب إلى قريش :** قال ابن اسحاق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة ابن الزبير وغيره من علمائنا قالوا : لما أجمع رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ من الأمر في السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ... وجعل لها جعلًا على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ، ثم قتلت عليه قرونها ، ثم خرجت به وأتى رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ الخبر من السماء بما صنع حاطب . فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنها فقال : أدركنا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أبعنا له في أمرهم . فخرجا حتى أدركاهما ( بالخلية ، خليقةبني أبي أحمد ) فاستنزلها فالتمسا في رحلها فلم يجدَا شيئاً فقال لها علي بن أبي طالب : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ولا كذبنا ، ولستخرين لنا هذا الكتاب أو لننكشفك ، فلما رأت الجد منه ، قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه فأنقذ به رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ، فدعاه حاطبًا فقال : يا حاطب ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ أما والله إني لؤمن بالله ورسوله ما غيرت وما بذلت ، ولكنني كنت امرأة ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة ، وكعإن لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليه . فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله دعني فلا ضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ، وما يدريك يا عمر ، لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فأنزل الله تعالى في حاطب : ( يا أيها الذين آمنوا لا

تتخذوا عدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة . . ) إلى قوله ( قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إننا برأء منكم وما تعبدون من دون الله كفربنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده . . )<sup>(١)</sup> إلى آخر القصة .

**خروج الرسول في رمضان :** قال ابن اسحاق : وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس قال : ثم مضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسفره واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين بن عتبة بن خلف الغفارى وخرج لعشر مضىن من رمضان فصام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصام الناس معه ، حتى إذا كان بالكديد بين عسفان وأمج أفتر ، ثم مضى حتى نزل مَرْ الظهران في عشرة آلاف من المسلمين فَسَبَعَتْ سَلِيمٍ ، وبعضهم يقول : أَلْفَتْ ، وألفت مزينة ، وفي كل القبائل عدد وإسلام ، وأواعب مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المهاجرون والأنصار فلم يتختلف عنه منهم أحد فلما نزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الظهران ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، فلم يأتهم خبر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يدرؤن ما هو فاعل ، وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به ، وقد كان العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببعض الطريق .

**هجرة العباس :** قال ابن هشام : لقيه بالحجفة مهاجراً بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيناً بمكة على سقايته ، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه راضٍ ، فيما ذكر ابن شهاب الزهرى .

إسلام أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية : وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضاً بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة فالتمسا الدخول عليه ، فكلمته أم سلمة فيها ، فقالت : يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، قال : لا حاجة لي بها ، أما ابن عمي فقد هتك عرضي ، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي ما قال ، قال : فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبي سفيان بنينا له . فقال : والله ليأذن لي أو لاخذن بيديبني هذا ، ثم لنذهب في الأرض حتى غوت عطشاً وجوعاً فلما بلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رق لها ثم أذن لها فأسلما .

قصة إسلام أبي سفيان على يد العباس : فلما نزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْ الظهران ، قال العباس بن عبد المطلب : فقلت : وأصبح قريش والله لئن دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة عنوة قبل أن ياتوه فيستأذنوه ؛ إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر قال : فجلست على بغلة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البيضاء ، فخرجت عليها ، قال : حتى جئت الأراك ، فقلت : لعلي أجده بعض الخطابة أو صاحب لين أوذا

(١) الآيات من أوائل سورة المتحنة

حاجة يأتى مكة ، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة . قال : فوالله إني لأسير عليها ، وألتمس ما خرجت له ، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبُو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسراً ، قال يقول بديل : هذه والله خزانة حشتها الحرب ، قال ، يقول أبو سفيان : خزانة أذل وأقل ، من أن تكون نيراناً وعسراً ، قال : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة ، فعرف صوتي فقال : أبو الفضل ؟ قال : قلت : نعم ، قال : مالك ؟ فداك أبي وأمي ، قال : قلت : ويحلك يا أبي سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس ، واصبح قريش والله ، قال : فما الحيلة ؟ فداك أبي وأمي ، قال : قلت : والله لئن ظفر بك ليضر بن عنقك . فاركب في عجز هذه البغة حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك . قال : فركب خلفي ورجع أصحابه ، قال : فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته حتى مررت بنار عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فقال : من هذا ؟ وقام إلى . فلما رأى أبي سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتند نحو رسول الله ﷺ وركضت البغة فسبقه مما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء . قال : فاقتصرت عن البغة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر ، فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله ﷺ ، فأخذت برأسه فقلت : والله لا ينادي الليلة دوني رجل ، فلما أكثر عمر في شأنه قال . قلت : مهلاً يا عمر فوالله أن لو كان منبني عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجالبني عبد مناف فقال : مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما ي إلا إني قد عرفت إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم . فقال : اذهب به يا عباس إلى رحلتك ، فإذا أصبحت فاتني به . قال : فذهبت إلى رحلي فبات عندي فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلم يأبه رسول الله ﷺ قال : ويحلك يا أبي سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظنت أن لو كان مع الله إله آخر غيره لقد أغنى عن شيناً بعد . قال : ويحلك يا أبي سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه والله فإن في النفس منها شيئاً فقال له العباس ، ويحلك ! أسلم وشاهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك ، قال : فشهاد شهادة الحق ، فأسلم قال العباس . قلت : يا رسول الله ، إن أبي سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : نعم : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلى بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن فلما ذهب ليصرف قال رسول الله ﷺ . يا عباس احبسه بضيق الوادي عند خططم<sup>(١)</sup> الجبل . حتى تمر به جنود الله فيراها

(١) خططم الجبل: انه حيث يضيق

قال : فخرجت حتى جبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله أن أحبسه . قال : ومرت القبائل على راياتها كلها مرت قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فاقول سليم : فيقول : مالي ولسليم ، ثم تمر القبيلة فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فاقول : مزينة فيقول : مالي ولزينة ، حتى نفذت القبائل ما تمر به قبيلة إلا يسألني عنهم ، فإذا أخبرته بهم قال : مالي ولبني فلان ، حتى مر رسول الله ص في كتبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد هؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً قال : قلت : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

ليس بعيداً أن تكون الأنبياء قد وردت متضاربة لأهل مكة حول نتائج سرية مؤته. لأن نقض قادة قريش للعهد لا بد أن يكون وراءه خلفية معينة حول ضعف محمد وأصحابه. فبعد خبر ارتفعت الثقة بقوة المسلمين، أما إذا وصلت الأنبياء إلى مكة عن فرار جيش محمد من الروم. فهذا يطمع في فتح هذه الجبهة، خاصة وأن الذين ساهموا في نقض العهد هم الذين أبremوه سهيل بن عمرو ومركز بن حفص، وحويطب بن عبد العزى، مع آخرين، وقد تكون القضية اندفاعاً وحية عمياً، إذ يذكر المقريزي (أن أنس بن زنيم الدبلي هجا رسول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه، فثار الشر بين بني بكر (حلف قريش) وبين خزاعة (حلف رسول الله ﷺ)).

وتبدو محاولة مكشوفة تلك التي بحثت إليها قريش في إرسال أبي سفيان لتلقي الأمر وزيادة المدة وتأكيد العهد. لأنه لن يغيب عن ذهن قريش أن خزاعة ستستجده برسول الله ﷺ حليفها الأكبر. ولقد أدرك أبو سفيان منذ اللحظات الأولى فشل مهمته حين تأكد من أن بد일 بن ورقاء الخزاعي قد وفد إلى المدينة والتلقى برسول الله ﷺ بعد أن فرك بعر راحلة بديل بيده وقال: أحلف بالله لقد جاء بُدَيلَ حَمْدًا، وذلك حين رأى النبوي في بعر البعير.

وكان ذهاب بديل وهو أحد قادة مكة رفداً لعمرو بن سالم الذي جاء المسجد وعرض قضية الغدر بأسلوب مشرق مثير. وذكر بضرورة الانتصار للمضطهددين من خزاعة. وقبل أن نتحدث عن رحلة أبي سفيان ملكة، لا بد من التركيز على بعض النقاط المهمة حين نتحدث عن فتح مكة بصفته سمة بارزة في العهد المدنى لا حدثاً تاريخياً من.

فالأصل في العهود بين المسلمين والشركين أن يكون الوفاء بها من الطرفين. ورأينا عظمة تمسك النبي ص بعهده وعقده، حتى ولو برفض قبول المؤمنين المستضعفين في المدينة، وقد شكل

(١) امتاع الاسماء - ١ ص ٣٥٧

هذا الأمر لرسول الله ﷺ إحراجاً كبيراً أمام هؤلاء المؤمنين الذين اختاروا الإسلام على الكفر.  
ومع ذلك أعاد أبو بصير التزاماً بالعهد وقال: إنه لا يحل في ديننا الغدر.  
هذه الصورة الإسلامية المشرقة.

بينما تقابلها تلك الصورة الغادرة من التواطؤ مع المع狄ين، والاشتراك معهم في غزو حلفاء  
محمد ﷺ من خزاعة.  
هذه هي القضية الأولى.

والقضية الثانية: هناك فرق واضح بين الاستقامة وبين الغفلة فالMuslimون لا بد أن يكونوا  
على يقظة تامة من تحركات مَنْ هادنوهـمـ، وأن يكون التعامل معهم بصدق لكن بحذر. ولعل هذا  
الأمر يوضح فيما بعد من تحرك أبي سفيان.

والقضية الثالثة: حول طبيعة الحلف في الإسلام فانضمام خزاعة ودخولها في عقد محمد ﷺ  
وعهده يعني كل مستلزمات هذا الحلف، علىـأـنـخـزـاعـةـ لمـتـكـنـ كـلـهـاـ مـسـلـمـةـ.ـ بلـ كـانـتـ قـيـادـتـهاـ لاـ  
تـزالـ خـاصـصـةـ لـالـمـشـرـكـينـ.ـ وـلـمـ تـلـعـنـ هـذـهـ الـقـيـادـةـ إـنـضـامـاـهـاـ إـلـىـ الـمـسـلـمـينـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ.ـ صـحـيـحـ قدـ  
تـفـشـيـ فـيـهـمـ إـلـاسـلـامـ،ـ وـلـكـنـ فـيـهـاـ الـمـسـلـمـ وـالـكـافـرـ،ـ وـعـنـدـمـاـ عـاهـدـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ خـزـاعـةـ عـاهـدـهـاـ  
عـلـىـ أـنـهـاـ مـشـرـكـةـ.ـ وـهـذـاـ يـعـنـيـ أـنـ مـنـ حـقـ الـدـوـلـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ حـيـنـ تـرـىـ مـصـلـحـتـهـاـ فـيـ حـلـفـ مـحـدـدـ.ـ لـاـ  
يـقـتـضـيـ بـالـفـرـورـةـ أـنـ يـكـونـ الـحـلـفـ مـسـلـمـاـ.ـ كـمـ أـنـهـ لـاـ تـنـاقـضـ بـيـنـ هـذـاـ التـحـالـفـ وـبـيـنـ مـوـادـ الـذـينـ  
يـمـاـدوـنـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ.ـ

إن الشباب المسلم بحاجة إلى التفريق بين قضيتين كبيرتين:  
الأولى: موادـةـ أـعـدـاءـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ الـذـينـ يـمـاـدوـنـ الـمـؤـمـنـينـ وـيـضـطـهـدـوـهـمـ منـ خـلالـ قـنـاعـاتـ  
فرـديـةـ لـلـشـابـ الـمـسـلـمـ دـوـنـ إـذـنـ أوـ عـلـمـ قـيـادـتـهـمـ.

الثانية: التـحـالـفـ معـ كـافـرـينـ إـنـخـارـاـهـاـ أـنـ يـكـونـواـ مـعـ الـمـؤـمـنـينـ ضـدـ عـدـوـ مـشـرـكـ هـمـ مـعـاـ.  
وهـذـاـ هـيـ الـصـورـةـ الثـانـيـةـ الـتـيـ تـمـتـ بـيـنـ خـزـاعـةـ وـالـمـسـلـمـينـ.ـ فـلـيـسـ الـكـفـرـ مـانـعاـ مـنـ هـذـاـ  
الـتـحـالـفـ وـرـسـوـلـ اللهـ ﷺـ قـدـ شـرـعـ لـنـاـ هـذـاـ الـأـمـرـ.

وتـبـقـىـ الـقـضـيـةـ الـخـلـافـيـةـ.ـ حـوـلـ مـشـرـوعـيـةـ هـذـاـ التـحـالـفـ هـلـ هـوـ مـرـتـبـطـ بـكـوـنـ الـمـسـلـمـينـ دـوـلـةـ  
قوـيـةـ يـحـقـ لـهـ ذـلـكـ فـقـطـ،ـ لـأـنـهـمـ وـهـمـ لـيـسـواـ دـوـلـةـ قـدـ يـتـلـعـمـ حـلـيفـهـمـ أوـ يـفـرـضـ عـلـيـهـمـ شـرـوـطـهـ؟ـ أـمـ  
إـنـ الـأـمـرـ عـامـ مـرـتـبـطـ بـحـاجـةـ الـمـسـلـمـينـ هـذـاـ الـأـمـرـ إـذـ ماـ رـأـواـ مـصـلـحـةـ فـيـ ذـلـكـ.ـ إـنـ كـانـ لـاـ دـلـيلـ عـلـىـ  
التـخـصـيـصـ وـاـضـحـ فـيـ دـخـلـ الـأـمـرـ.ـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ.ـ ضـمـنـ إـطـارـ تـقـديرـ الـمـصـلـحـةـ.

القضية الرابعة: هي الجدية في تنفيذ بنود التـحـالـفـ.ـ فـعـنـدـمـاـ وـقـعـ اـعـتـدـاءـ عـلـىـ خـزـاعـةـ وـثـبـتـ

رسول الله ﷺ تواطأ قريش مع بني بكر. لم يتمالك ان أعلنتها في المسجد صريحه مدوية نصرت يا عمرو بن سالم، أو قوله: إن هذه السحابة لستهل بنصر بني كعب أو قوله: لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي.

فهذه الجدية في تنفيذ بنود الحلف تجعل الثقة لدى الآخرين بأن ينضووا تحت لواء المسلمين لضمان نصرهم وعوهم. لكننا لو تصورنا أن رسول الله ﷺ لم يعر اهتماماً لهذا الأمر، فهذا قد يدفع خزاعة إلى البحث عن حليف قوي ينصرها، أو التخلّي على الأقل عن حلف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

القضية الخامسة: هي أثر هذا التحالف في صف المتحالفين، فهذا الأمر يكسر الحدود المصطنعة بين هؤلاء الحلفاء والإسلام، أولاً، وبينهم وبين المسلمين ثانياً. فهي فرصة مواتية لكي يُعرض الإسلام على حقيقته دون غيش في صفوف هؤلاء الخصوم، وفرصة مواتية ثانية ليتعرف الحلفاء على طبيعة المسلمين وأخلاقهم وأفكارهم عن كثب. فتكون القدوة والدعوة من خلاها مهيئة أمام الآخرين.

وكل هذه القضايا هي في رصيد الحركة الإسلامية ذات بال تحتاج إلى استيعابها وتوضيحها لقواعدها حتى يزول اللبس في الأمور لدى شباب الحركة الذين يسيطر عليهم دائمًا نقاء الصفة وتميزه وظهوره.

وننتقل إلى مهمة أبي سفيان في المدينة.

فقد قدّر رسول الله ﷺ هذا الأمر سلفاً بثاقب نظره، وعميق فكره فقال: (كأنى بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة).

ووصل أبو سفيان المدينة، وكان يفاجأ بالفشل أيتها مضى ، وكيفما اتجه وذلك لأن الصف الداخلي القوي كان قلعة منيعة في وجهه ، عجز من أن يتسلل إليه ولو من ثقب إبرة، ويكتفي أن نعلم أن في هذا الصف المسلم القوي ابنة أبي سفيان وألصق الناس به . وقد تلقى منها منذ اللحظات الأولى أقسى درس في حياته . لا ينساه ما عاش . وذلك حين طوت فراش رسول الله ﷺ عنه لأنه نجس على شركه .

ولو استطاع أن يتسلل من هذه الثغرة ل كانت أخطر ثغرة على الإطلاق . فهو بيت النبي ﷺ ، ولا شك أن العدو يحاول دائمًا أن ينفذ من مثل هذه الثغرات إلى الصف المسلمة .

ولم يكن لدى رسول الله ﷺ حرج من أن تستقبل أم حبيبة بنت أبي سفيان أبوه في بيت رسول الله فهو مطمئن إلى أهل بيته، وائق بزوجه .

وما أروع الثقة حين تسود في الصف المسلم، فلم يتطرق الشك إلى رسول الله ﷺ ولا إلى أصحابه الأدرين والأبعدين، ولا إلى بيوت أزواجه الأخرى فيغزل من قناعة نصرتهن أم حبيبة. وحتى طوي فراش النبي ﷺ عن أبي سفيان لم يكن بإيمان نبوي بمقدار ما كان فطرة إسلامية خالصة وهذا نذكر الشباب المسلم بالفرق بين المواجهة وبين المعاملة الدبلوماسية الالزمة.

فلم ينهش المسلمون عرض أم حبيبة رضي الله عنها وهي تستقبل أباها وترحب به. ولم تتهم في دينها أو ممالاتها للكفار، وأبو سفيان يمثل في هذه المرحلة مسؤولية غدر قريش ونقضها للعهد. وهي رضي الله عنها لم تجد حرجاً في مثل هذا الاستقبال وهذه الضيافة فهي مطمئنة إلى ثقة النبي ﷺ، وال المسلمين بها، لكنها من الطرف الآخر، ووصلت بالتميز والفاصلة مع أبيها أكثر من المطلوب منها حين منعت أباها عن الجلوس على فراش رسول الله ﷺ ولا شك أن عصبة تصل الثقة في صفوتها أن تخلي بين قائد العدو وابنته في جلسة خاصة. دون أن يتطرق الشك بهذه المرأة هي عصبة مؤهلة أن تحكم الأرض ويدين لها الخافقان.

ثم كانت المواجهة الثانية بين النبي ﷺ وأبي سفيان:

يقول أبو سفيان: (يا محمد إني كنت غائباً في صلح الحديبية، فاشدد العهد وزدنا في المدة. فقال رسول الله ﷺ: ولذلك قدمت يا أبو سفيان؟ قال: نعم! قال: هل كان قبلكم حدث؟ قال: معاذ الله! قال: فنحن على مدعنا وصلحنا يوم الحديبية) (١)

لقد كان أبو سفيان القائد العام لجيش المشركين يريد أن يضع كل عقريته في عقد جديد يلغى ما كان من إخلاله قبله. وتذرع بغيابه عن صلح الحديبية. ولكن أن له أن تسرى أحابيله بين يدي رسول رب العالمين فقال له عليه الصلاة والسلام: ولذلك قدمت يا أبو سفيان؟ قال: نعم! وكان بإمكان النبي ﷺ أن ينفع ويغضب، ويكشف غدر قريش. لكن العلاقات السياسية لا تخل عن طريق الانفعالات. ثم استجره أكثر لعله يعترف بغدر قريش. فسألة: هل كان قبلكم حدث؟ قال: معاذ الله.

وأبو سفيان مضططر لنفي الأمر رغم معرفته به ورغم توقعه أن يكون محمد ﷺ قد عرف به، لأن الاعتراف فيه قد يؤدي بضرر عنقه، أو علمه على الأقل بهذا الغدر، ومع هذا النفي فكان الجواب الخامس: فنحن على مدعنا وصلحنا يوم الحديبية.

يقول الشاعر:

ليس الغبي بسيءٍ في قومه لكنَّ سيد قومه المتغابي  
وأن تكون هذه الصورة فعلًا حقيقة، وهي نجاح أبي سفيان في مهمته، أو إيهام النبي ﷺ

(١) إمتناع الأسماع ج ١ ص ٣٥٨

بالوفاء التام. فهو عبقرية من أبي سفيان ولا شك لكن هذه العبرية تبدو سذاجة أمام عبقرية النبي ﷺ في أيام أبي سفيان بأنه اقتضى بجوابه. وأن العهد لا يزال على ما هو عليه. فلقد سد المنافذ كلها على أبي سفيان. إذ ما معنى تجديد العقد وزيادة المدة، طالما أن قريشاً على عهدها ومدتها.

ول تمام نجاح هذه المهمة. فلقد كانت الأسرار في الصف المسلم من المناعة، ومن الكتمان بحيث لا يمكن أن تبرز ولو من صفحات الوجه أن المسلمين على علم بعذر قريش. وهكذا بربت البراعة السياسية بأعلى صورها حين سدت على العدو كل منافذه وسبله.

لقد كان بإمكان أبي سفيان أن ينجح بشيء من مهمته. لو أن لحظة انفعال أو غضب سيطرت على أحد الجنود الذين التقى بهم أبو سفيان وكان يمكن أن ينجح في شيء من مهمته لو أن سرًا قد أفضي من أسرار المسلمين من خلال لقاءات أبي سفيان في المدينة.

وحين يرتفع الصف المسلم إلى هذا المستوى. فلن يكون العدو قادرًا على تحقيق التزرايسير من مهمته. بله الأمر الكبير. فليس الذهاب هو الذي يخدع الآخرين فقط، بل الأدهى منه هو الذي يوحى له بجواز خدعته عليه.

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يعقل أبو سفيان أو يهدّه ولكن لم يكن تخطيط النبي ﷺ أن يُحلّ الأمر بالطرق السلمية أو بحلولٍ محدودة لقد رأى أن الأولان قد آن لفتح مكة. بعد أن أصبح حراماً من العقود والعقود التي تقضها العدو. ومن أجل ذلك حرص على إخفاء أية صورة من صور التحدي والإثارة أمام أبي سفيان ثم كانت خطوات أبي سفيان المتلاحقة في اللقاء مع أبي بكر وعمرو وعثمان وعلي، بين من يراه أمس الناس رحمة به، ومن يراه أعدى العدو ولشن اختلافت لهجة الاستقبال من عظيم إلى آخر لكنها كانت جميعاً ذات مضمون واحد هي أنه لا يغير أحد على رسول الله ﷺ ولا يقبل أحد أن يكون وسيطاً في قضية رفضها رسول الله عليه الصلاة والسلام. ولم يتورع أبو سفيان في الوساطة أن يطلب من فاطمة بنت محمد، والحسن بن فاطمة بنت محمد رضي الله عنهم أن يكونوا وسطاء في زيادة المدة وتجديد العهد. وفاطمة أحب خلق الله تعالى إلى أبيها وكان الجواب واحداً لا يتغير. فلن يشفع أحد عند رسول الله ﷺ في هذا الأمر. بعد أن صدر الجواب الحاسم. فتحن على مدتنا وصلحنا يوم الخديبية لا نغير ولا نبدل.

وهو درس كذلك لقواعد الحركة الإسلامية وقياداتها في أن لا تخرج أمير الجماعة في أمر أعلنه والتزم به خاصة حين يكون هذا الأمر مع خصوم الجماعة أو أعدائها أو حلفائها على السواء أو أن يبرز خلاف في الرأي أمام هذا الخليفة أو ذاك العدو منها كانت الأسباب الموجبة لذلك فالأسهل أن يصدر الجميع عن رأي واحد خلف قيادتهم وبدون تردد.

وأبو سفيان يدرك أن رسول الله ﷺ لن يرد شفاعة وجاه أقرب المقربين إليه مثل أصحابه الأربع، وابنته وابن ابنته، وإدراكه هذا المعنى عند أبي سفيان جعله يقول لفاطمة رضي الله عنها: يا ابنة محمد هل لك أن تأمرني بنيلك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر<sup>(١)</sup>? لأنه يتصور أن هذه الإجارة ستوقف حرباً ضروساً بين مكة والمدينة لأنه يعلم أن الأخبار لا بد واردة إلى النبي ﷺ. ولن يقبل محمد أن يكون مهيباً الجناح، فيسكت على ذبح حلفائه.

وننظر هنا إلى الخطوط العامة التي سادت مكة بعد عودة أبي سفيان فنراها تنصب على الاتجاه الذي سلكه رسول الله ﷺ في أمر الناس بالتجهز والتهيؤ في بادئ الأمر، حتى أن أبا بكر الوزير الأول ما يدرى لأي مكان الاتجاه ويسأل ابنته عائشة عن الأمر: فأين ترينـه يريد؟ قالت: لا والله ما أدرى ثم يوضح المدفـ بعد ذلك بإعلام الناس بالتهيؤ إلى مكة. مع المحافظة على سرية التحرك: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها).

ولم يند عن هذه السرية في المدينة إلا حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه. وكانت زلة ضخمة دفعـ لها حرصـه على ولـه وأهـله. ومثل هذا المستوى مرفوض من حاطـ البـدرـيـ، وهو من الثقة لدى رسول الله ﷺ أنـ كانـ بهـمـةـ ضـخـمـةـ بـعـدـ الـحـديـبـيـةـ،ـ بـأـنـ كـانـ مـثـلـ الرـسـوـلـ ﷺـ إـلـىـ الـمـوقـوسـ وـقـامـ بـدـورـ إـيجـابـيـ ضـخـمـ فيـ شـرـحـ رسـالـةـ إـلـاسـلامـ،ـ وـمـعـ ذـلـكـ كـانـ هـذـهـ السـقطـةـ مـنـهـ.ـ وـرـأـيـ عـمـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ فـيـهـ أـنـهـ نـفـاقـ يـسـتـحـقـ صـاحـبـهاـ القـتـلـ.ـ غـيرـ أـنـ الـماـضـيـ الـعـظـيمـ حـاطـبـ شـفـعـ لـهـ عـنـ دـرـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ حـيـثـ أـجـابـ:ـ (لـعـلـ اللـهـ اـطـلـعـ عـلـىـ أـهـلـ بـدـرـ.ـ يـوـمـ بـدـرـ فـقـالـ:ـ إـعـلـمـواـ مـاـ شـتـمـ فـقـدـ غـفـرـتـ لـكـمـ).ـ وـلـاـ شـكـ أـنـ خـطـيـةـ الـقـدـوـةـ ضـخـمـةـ فـيـ صـفـوـفـ الـعـامـةـ.ـ وـمـثـلـ حـاطـبـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ فـيـ مـوـطـنـ الـقـدـوـةـ.ـ غـيرـ أـنـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ لـاـ يـسـتـغـنـيـ عـنـ أـحـدـ مـنـ أـصـحـاـبـهـ.ـ وـيـكـفـيـ مـاـ جـاءـ مـنـ الـمـحاـكـمـةـ الـعـلـىـ أـمـامـ النـاسـ،ـ وـالـقـرـآنـ الـكـرـيمـ الـذـيـ جـاءـ بـإـدـانـتـهـ عـلـىـ هـذـاـ التـصـرـفـ.

وتـأـقـيـ خـطـورـةـ الـقـضـيـةـ فـيـ أـنـهـ تـمـتـ دـوـنـ عـلـمـ الـقـيـادـةـ،ـ وـدـوـافـعـهـاـ مـصـلـحةـ الـأـهـلـ وـالـوـلـدـ.

وهـذاـ الـدـرـسـ يـعـنـيـ بـالـنـسـبةـ لـلـشـابـ الـمـسـلـمـ أـنـهـ لـاـ مـعـصـومـ إـلـاـ مـنـ عـصـمـهـ اللـهـ تـعـالـىـ،ـ وـقـدـ تـقـعـ الـزـلـةـ وـالـخـطـيـةـ مـنـ هـمـ فـيـ مـوـقـعـ الـوـلـاـيـةـ وـالـمـسـؤـلـيـةـ وـالـذـيـنـ هـمـ أـصـحـاـبـ الـأـسـرـارـ الـعـامـةـ وـالـخـاصـةـ وـمـثـلـ هـذـهـ خـطـيـةـ تـسـتـحـقـ القـتـلـ فـهـيـ بـمـثـابـةـ الـخـيـانـةـ الـعـظـمـىـ،ـ وـلـعـلـ هـذـهـ الـخـاصـيـةـ.ـ حـضـورـ بـدـرـ.

(١) لم يكن أبو سفيان يدرى أنه يتكلـمـ فـيـ ظـهـرـ الغـيـبـ وـأـنـ الـحـسـنـ بـنـ عـلـيـ صـارـ سـيدـ الـعـربـ وـالـمـسـلـمـيـنـ إـلـىـ آخـرـ الـدـهـرـ،ـ وـذـلـكـ بـعـدـ ثـلـثـ قـرـبـ منـ فـتـحـ مـكـةـ عـلـىـ التـقـرـيبـ حـيـنـ أـجـارـ بـيـنـ النـاسـ،ـ وـأـوـقـفـ نـزـيفـ الدـمـاءـ بـيـنـ الـمـسـلـمـيـنـ بـعـدـ سـتـةـ أـشـهـرـ مـنـ خـلـافـتـهـ،ـ وـحـقـقـ نـبـوـةـ جـدـهـ عـلـيـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ حـيـنـ قـالـ فـيـ:ـ (إـنـ أـبـنـيـ هـذـاـ سـيدـ،ـ وـلـعـلـ اللـهـ يـصـلـحـ بـهـ بـيـنـ فـتـيـنـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ).ـ وـكـانـ سـيـادـتـهـ تـكـمـنـ فـيـ حـقـنـهـ لـلـدـمـاءـ بـعـدـ عـشـرـاتـ الـأـلـفـ مـنـ الـقـتـلـ فـيـ صـفـوـفـ الـمـسـلـمـيـنـ،ـ وـلـاـ نـبـعـدـ أـبـداـ أـنـ يـكـوـنـ حـدـيـثـ النـبـيـ ﷺـ عـنـ أـبـنـهـ الـحـسـنـ فـيـ تـلـكـ الـفـتـرـةـ،ـ وـعـقـدـ كـلـمـةـ أـبـيـ سـفـيـانـ لـأـنـ النـبـيـ ﷺـ تـوـفـيـ وـلـاـ يـنـاهـرـ الـحـسـنـ مـنـ الـعـمـرـ خـمـسـ سـنـينـ.

هي التي شفعت حاطب رضي الله عنه، وما أعتقد أن أي عمل في الإسلام اليوم يعدل حضور بدر إذ أن ذلك وحي من الله تعالى غير أن المعنى العام الذي يفقهه الدعاة هو أن بلاء الرجل وجهاده قد يشفعان له في تخفيف العقوبة لا بإلغائها. وهو ضلال عن سوء السبيل كما ذكره القرآن الكريم.

وتأتي الصورة الأخيرة في الاستئثار العام للعرب جيئاً من المدن والحضر الذين دخلوا في دين الله وكانت صيغة الاستئثار: (من كان يؤمّن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة...) وبعث رسلاً في كل ناحية حتى قدموا فقدموا أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع المدينة وأتت بنو سليم بقديد، وعسّكر بيثر أبي عنبة، وعقد الألوية والرايات).

ومع كل هذا التوسيع فقد حافظ المسلمون جيئاً على سرية التحرك، وكان الدرس القاسي الذي نزل قرآناً يتلى بحق حاطب رضي الله عنه قد تعمم على الجيش كله. ولم يجرؤ أحد بعد وفي قلبه إيمان بالله ورسوله أن يخون هذه الخيانة، ونجحت سرية التحرك دون أن تصل الأخبار إلى مكة.

وما كان مثل هذا التحرك الضخم أن ينجح لولا قوة هذا الصف وسلامته.

ولم تكن الخطيبة الكبيرة من حاطب لتغير من هذه النظرة. رغم أن المهاجرين والأنصار لا يبلغون نصف الجيش (فقد كان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثة فرس، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس، وكانت مزينة ألفاً فيها مائة فرس ومائة درع، وكانت أسلم أربع مائة فيها ثلاثة فرساً، وكانت جهينة ثمانمائة معها خمسون فرساً، وكانت بنو كعب بن عمرو خمسمائة).

وبمقارنة هذا العدد الهائل والاستجابة للتغير العام مع التباطؤ والتلاؤم الخديبية، نلاحظ الفرق بين تحرك الناس قبل التمكن وتحركهم بعده. ولقد قرئ القرآن الكريم في سورة الفتح أولئك الأعراب الذين تباطؤوا وتخاذلوا عن هذا التغير حتى حرموا من حضور خير بعدها، هم هم أنفسهم اليوم يتضمنون بالألاف إلى الجيش الإسلامي، وهذا المعنى يرتبط بالفتح المبين يوم الخديبية. ثبات التفر القليل أيام المحنّة والأيام السود هو الدرس الحي الذي يقود جحافل الناس بعد المحنّة. ثبات التفر القليل هو الذي هيأ الجيوش مثل هذه المعاهدة، وهذا الجُو هو الذي فتح القلوب للإسلام، والجُو المفتوح بعيد عن الخوف، الحالي من المخاطر، هو الذي هيأ المجال للتحرك الجاد من القاعدة الصلبة إلى نفوس الناس المتعطشة لهذا الدين، وما كان مثل هذا التجمع أن يعطي فعاليته لولا ثبات الرواد الأوائل على الطريق، وقدرتهم على ضم هذه الأعداد الهائلة إلى المعركة.

ونلتقي مع أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية والعباس بن عبد المطلب من أهل بيت النبي ﷺ يتحركون للإسلام أما مهمة العباس فقد انتهت فكان لا بد له أن يدرك المجرة وأما أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية هم أعدى العدو بالحسام وبالبيان . ولقد رفض رسول الله ﷺ بادئ ذي بدء قبوره بقوله: (أما ابن عمي فقد هتك عرضي ، وأما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال) . وقول عبدالله بن أبي أمية بقى جرحاً غائراً يمحف في قلب النبي ﷺ بعد مرور ما ينوف عن خمسة عشر عاماً . فهو الذي قال : (والله لا أؤمن بك حتى تصعد إلى السماء ، وتدخل فيها ثم ترجع ومعك كتاب ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أن هذا من عند الله ولو فعلت هذا ما أظن أنني أصدقك )، وضاقت الأرض بما رحبت بهذين الطريدين فقال أبو سفيان : والله لياذن لي أو لاخذن بيدي بني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً . ويلجأ أبو سفيان بن الحارث لابن عمه علي بن أبي طالب ، ويشكو عبدالله بن أبي أمية لأم المؤمنين أم سلمة (فقالت : يا رسول الله لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقي الناس بك ، وقال علي لأبي سفيان بن الحارث : أئت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطشين) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قوله منه . ففعل ذلك أبو سفيان فقال له رسول الله ﷺ (لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) ومسحت حرب عشرين عاماً من الهجاء والإذاع بكلمة واحدة أمام أعظم نفس بشرية لأن مفتاحه أنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قوله<sup>(١)</sup> فلقد أدرك علي رضي الله عنه مفتاح شخصية النبي ﷺ وهذا المفتاح هو أنه قمة الكمال البشري . فلا يرضى عليه الصلاة والسلام لنفسه موقفاً أدنى من غيره وهو المؤهل للقدوة العليا للبشرية في الأرض .

ومن الموضع نفسه نشهده مع أبي سفيان بن حرب وقد جاء به العباس بن عبد المطلب ليأخذ له أماناً من النبي ﷺ عليه ينقذ مكة من المواجهة وما يتلخص الصدر أن تكون رواية العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بين أيدينا ، وهو يعرض لنا حرصه على نجاة مكة .

(فقلت : واصبح قريش . والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر) .

ونجد أن هذا الاتجاه لا يخرج عن رغبة النبي ﷺ ، فهو حريص على أن تستسلم مكة دون قتال . وهو حريص على حرق الدماء في مكة لتسليم له قلوب أهلها . وتكون مستعدة بالمعاملة الحسنة الكريمة الطيبة أن تنضم إلى الإسلام .

فتحن لسنا أمام قائد عسكري فقط ، وهو سيد القادة في الأرض تهيئة وتحيططاً . وإعداداً

(١) الرحيق المختوم ص ٤٤٨ ، ٤٤٩

ومواجهة لكتنا كذلك أمام رسول رب العالمين، لا ي يريد أن يشقى أحد على يديه. فهو الرحمة المهدأة. ولكن حريصاً على هداية قومه حتى ليعباته ربه عزوجل بذلك (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا)<sup>(١)</sup>. ولم تغير حرب عشرين عاماً من نفسه الطاهرة الشريفة بأن يكون الانتقام رائده. بل بقي النور الذي يغمر الظلام منها استد. ويمثل هذه النفسية العليا في الأرض رؤيا أبي بكر وتفسير النبي عليه الصلاة والسلام لها: (فرأى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، في الليلة التي أصبح فيها بالجحفة، أن النبي ﷺ لما دنوا من مكة خرجت عليهم كلبة تهر، فلما دنوا منها استلقت على ظهرها. فإذا أطباوها<sup>(٢)</sup> تُشَخِّب لبناً، فذكرها أبو بكر فقال رسول الله ﷺ : ذهب كَلْبُهُم<sup>(٣)</sup>. وأقبل درهم. هم سائلوكم بآرحامكم! وأنتم لا قون بعضهم فلإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه)<sup>(٤)</sup>.

لقد أطلقنا على هذه المرحلة. مرحلة الجهاد السياسي، ولكنه من أعلى مواقع القوة العسكرية.

فليس هذا الاتجاه عن عجز أو وهن. بل لأن القوة الضاربة هي التي تلجم اندفاعات العدو وتکبح جماحه وتتيح الفرصة لصوت الحق أن يظهر فحرص النبي ﷺ على سلامة مكة من حرب ضروس هو الذي دفعه لأن يدعوا (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبعثها في بلادها) وحرص العباس على سلامة قريش هو من مشكاة النبوة يريدها أن يُسقط في يدها فتستسلم دون حرب وتستأمن لنفسها، فلا تجد حرجاً أو غضاضة بعدها في الإسلام، أما لو وقعت المقتلة العظيمة في كل بيت من قريش وفي بطحاء مكة. فستدخل هذه القلوب في الإسلام ذليلة. ويتبين حرص النبي ﷺ على هذا المعنى كذلك من موقفه من سيد الخزرج سعد بن عبادة فقد كانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبي سفيان قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرماء، اليوم أذل الله قريشاً، فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال: يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: وما قال؟ فقال: كذا وكذا. فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة: فقال رسول الله ﷺ : بل اليوم يوم الرحمة، اليوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله قريشاً، ثم أرسل إلى سعد فترع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد، وقيل بل دفعه إلى الزبير)<sup>(٥)</sup>

(١) الكهف: الآية ٦

(٢) أطباوها: جمع طبي. وهي حلمات القرع التي فيها اللبن

(٣) كَلْبُهُم: سعار بأخذ الكلاب فتنبع وتعض

(٤) امتناع الاسماع ج ١ ص ٣٦٧، ٣٦٨

(٥) الرحيق المختوم ص ٤٥٢. وقد وردت عند ابن اسحاق وابن عساكر وموسى بن عقبة بروايات متقاربة.

فعز قريش وتعظيم الكعبة والحرصن على حقن الدماء هو الخط العام الذي يتحرك رسول الله ﷺ من خلاله لكنه مع ذلك لا يريد أن يؤذى أكبر أنصاره سعد رضي الله عنه وهو الذي كان والخرج كتائب الفداء الأولى في الإسلام فأخذ الراية وأعطها لابنه قيس ، وقيس في حلمه ورجاحة عقله ودهائه ما يجعل رسول الله ﷺ يطمئن إلى جانبه ألا يندفع في ثورته ونقمته على قريش بمقدار ما يندفع ضمن الخط النبوى المرسوم .

وكان ذلك اللقاء التاريخي بين قائد جيش العدو - أبي سفيان - الذي وصل شبيه الأسيرين يسدي محمد ﷺ . وتحقق نبوءة عتبة بن ربيعة ند أبي سفيان الذي قال له ذات يوم في بطحاء مكة ( لكأني بك يا أبو سفيان تساق إلى محمد كما يساق الجدي ليقتل بك ما يشاء ) .

وها هو بين يدي رسول الله ﷺ . ولا يتحمل الأمر أكثر من إشارة ، أو حركة في العين ليطاح رأسه عن جسده . لكن سيد الدعاء ﷺ لا ينسى أن إسلام أبي سفيان يعني تحولاً تاماً في مكة وفي بني أمية بالذات . وهم أعدى الأعداء . ورمى عليه الصلاة والسلام عداء عشرين عاماً خلف ظهره ليقول لأبي سفيان : ( أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله ؟ فيجيبه : بائي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . والله لقد ظنت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنىعني شيئاً بعد ) إنه وهو الذي لا يزال على جاهليته يصعقه نبل محمد ﷺ ويزمه في أعماقه . فيغدوه بأبيه وأمه وما يمتلك عن القول : ما أحلمك وأكرمك وأوصلك . ثم يأتي السؤال الثاني ألم يأن لك أن تعلم أبي رسول الله قال : بائي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً .

وإنها لقمة الانتصار في موازين الرجال وفي معارك النفوس أن يهت القائد العام للعدو بخلق خصميه الأول فلا يمتلك عن الثناء على حلمه وكرمه وصلة للرحم بل يغدوه بأبيه وأمه . وأدرك العباس رضي الله عنه أن عدم إسلام أبي سفيان لن يضمن تجديد معركة وحرب وفي هذه الحالة فقتل أبي سفيان قبل أن يحيش الجيوش من جديد هو الذي تقتصيه طبيعة الخطة النبوية ، ومن أجل ذلك قال العباس لأبي سفيان : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك . قال : فشهاد شهادة الحق فأسلم . ومع أن هذا الإسلام واضح أنه خوف من السيف . لكن ليس من طبيعة زعيم كأبي سفيان أن يرضى غدرة من خلال إسلامه أو يرضى تلطيخ تاريخه أنه جبن أمام رسول الله محمد . فتمضي سبة عليه بين العرب والعباس الخبر بنفس أبي سفيان طلب من رسول الله ﷺ شيئاً من الفخر لابن حرب فقال عليه الصلاة والسلام : من دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

فالميزة التي أخذها من هذا الفخر ، إظهار لزعامته في قريش ، وهذا حق مكتسب له لكن دون أن يبني عليها تعديل ذرة واحد من الخطأ ، وحين لا تتعارض الجزئية مع الكليات العامة فلا

ضير في ذلك .

ولتحقيق المدف الأساسي من تفويت الفرصة على قريش في أن لا تعد العدة ولا تواجه الحرب كان لا بد من استعراض القوات الإسلامية المسلحة أمام أبي سفيان وذلك عند خطم الجبل حتى يأس نهائياً من المقاومة فيقنع قريشاً بضرورة الاستسلام وها هي نفسيته تلوح وهو يشهد قبائل العرب التي كانت قبل عامين كلها معه ضد محمد . فيقول وهو يرى الكتبية الخضراء بعد أن هدته القبائل (ما رأيت مثل هذه الكتبية قط ولا أخبرنيه غبر ما لأحد به طاقة ولا يدان ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً) . إنما خطتان تمشيان جنباً إلى جنب .

الخطة الأولى : تلامس نفس هذا القائد في أعماقه وتدعوه إلى الإسلام لفت في عضد قريش فماذا بعد إسلام قائدتها الأكبر أو استسلامه .

الخطة الثانية : أن يحطم نفسية المقاومة عنده بحيث يشهد بأم عينه جيش النبوة الذي تهتز الأرض اعتزازاً به . وهو يعلم أنه فشل في حربه ولا يتجاوز جيش محمد ثلاثة رجال فكيف به أمام عشرة آلاف مقاتل ؟

ولا يسعنا قبل أن نغادر أبي سفيان أن نعرض له وهو يرى سيف عمر بن الخطاب يتذكر أمر رسول الله ﷺ ليهوي عليه فيقطع رأسه عن جسده . ويرى الحاج عمر وال الحاج العباس فيه حتى ليكادان يختصمان عليه وفيه . فيرحميه رسول الله ﷺ ويراجع رصيده قبل عامين وهو في بلاط قيسر الذي يقسم أن ممداً سيطاً ما بين رجليه . وأنه يتمتع أن يكون عنده فيقبل الأرض بين قدميه ونستطيع القول ، أن إنهاء أبي سفيان من المعركة هو القضاء على ثلثي العدو فيها . وكم يكون ربع الحركة الإسلامية في القمة حين يُنهي جيش العدو بالإجهاز على قائدته . وليس إجهاز الإنفاء ، بل هو إدخاله في الإسلام . وأن تختبئ معركة بتحييد قائدتها لصالح الإسلام مع أن الطريق الوحيد لذلك هو القوة الرادعة القادرة على أن تقنع هذا القائد فتعطيه عوضاً عن الذل ، حليماً وكرماً وصلة تجعله يفدي أمير المسلمين بأمه وأبيه . إنه الشوط الطويل لكنه هو الطريق .

## نصر الله والفتح

رجوع أبي سفيان إلى أهل مكة :

قال : قلت النجاء إلى قومك ، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معاشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيها لاقبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة

فأخذت بشاربه . فقلت : أقتلوا الحميت الدميم الأحس<sup>(١)</sup> قبح من طليعة قوم ! قال : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله وما تغنى عنا دارك ، قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وصول النبي إلى ذي طوى : قال ابن اسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى . وقف على راحلته متجرأً بشقة برد حبرة<sup>(٢)</sup> حمراء وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عنثونه ليكاد يمس واسطة الرحل .

دخول جيوش المسلمين مكة : وحدثني عبد الله بن أبي نجيح أن رسول الله ﷺ حين فرق جيشه من ذي طوى ، أمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كدي ، وكان الزبير على المجنبة اليسرى ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء<sup>(٣)</sup> .

طريق المسلمين في دخول مكة : قال ابن اسحاق : وقد حدثني عبد الله بن أبي نجيح في حديثه : أن رسول الله ﷺ أمر خالد بن الوليد . فدخل من الليط ، أسفل مكة في بعض الناس . وكان خالد على المجنبة اليمنى ، وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ ودخل رسول الله من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة ، وضررت له هناك قُبته .

تعرض صفوان في نفر معه للمسلمين : قال ابن اسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي نجيح وعبد الله بن أبي بكر أن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناسا بالخدمة ليقاتلوا ، وقد كان جناس بن قيس بن خالد ، أخوبني بكر يُعد سلاحا قبل دخول رسول الله ﷺ ويصلح منه ، فقالت له امرأته : لماذا تُعد ما أرى ؟ قال : لحمد وأصحابه قالت : والله ما أراه يقوم لحمد وأصحابه شيء : قال والله إني لأرجو أن أخدمك بعضهم ، ثم قال : إن يُقبلوا اليوم فمالي علّه هذا سلاح كامل والله<sup>(٤)</sup> ذو عزارين سريع السُّلْه<sup>(٥)</sup>

ثم شهد الخدمة مع صفوان ، وسهيل وعكرمة ، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد

(١) الحميت الدميم الأحس : الشديد اللحم والمعنى على تشبيه الرجل بالزرق لعبالله وسمنه

(٤) الله : الحرية لها سنان طويل

(٥) ذو عزارين : ذو حدين

(٢) الحربرة : ضرب من ثياب اليمن

(٣) جبل بأهل مكة (كداء)

ابن الوليد ناوشوهم شيئاً من قتال ، فقتل كرز بن جابر ، أحد بني محارب . . . وخنيس بن خالد حليف بني منقذ وأصيب من جهينة سلمة بن الميلاء ، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثنى عشر رجلاً ، أو ثلاثة عشر رجلاً ، ثم انهزموا فخرج جماس منهزاً حتى دخل بيته ، ثم قال لأمراته : أغلقي علي باي قالت : فلما كنت تقول ؟ فقال :

إذا فر صفوان وفر عكرمة  
وابو يزيد قائم كالموقة  
يقطعن كل ساعده وجحمة  
لم نحيت خلفنا وهمة

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وحنين والطائف شعار المهاجرين يا بني عبد الرحمن ، وشعار الخزرج : يا بني عبد الله وشعار الأوس : يا بني عبيد الله .

عهد رسول الله إلى أمرائه وأمره بقتل نفر من سماهم : وإن كان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين ، حين أمرهم أن يدخلوا مكة ، أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا أنه قد عهد إلى نفر سماهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم عبدالله بن سعد . . . وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله لأنه قد كان أسلم وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي . فارتدى مشركاً راجعاً إلى قريش . ففر إلى عثمان بن عفان وكان أخيه للرضباءة فغيثه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن الناس وأهل مكة فاستأمن له فزععوا أن رسول الله ﷺ صمت طويلاً ثم قال نعم . فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله من أصحابه لقد صمت ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه . فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلي يا رسول الله ؟ قال : إن النبي لا يقتل بالإشارة . وعبد الله بن خطل رجل من تيم إنما أمر بقتله أنه كان مسلماً . فبعث رسول الله ﷺ مصدقاً وبعث معه رجل من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه . وكان مسلماً فنزل منزلأ ، وأمر المولى أن يذبح له تيساً فتصنع له طعاماً . فنام واستيقظ ولم يصنع له شيئاً ، فعدا عليه فقتله ، ثم ارتدى مشركاً وكانت له قيتان : وكانت تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ فأمر رسول الله بقتلها معه . والخويرث بن نقيد . وكان من يؤذيه بمكة . (قال ابن هشام : وكان العباس بن عبد المطلب قد حل فاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ من مكة يريدهم بها المدينة ، فنحس بها الخويرث فرمى بها إلى الأرض ) وبيقيس بن حبابة . وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله ، لقتل الأنصاري الذي كان قتل أخيه خطأ ورجوعه إلى قريش مشركاً وسارة مولاً بني عبد المطلب ، وعكرمة بن أبي جهل وكانت سارة من يؤذيه بمكة . فاما عكرمة فهرب إلى اليمن ، وأسلمت امراته أم حكيم بنت الحارث بن هشام . فاستأمنت له من رسول الله ﷺ فآتته . فخرجت في طلبه إلى اليمن حتى أتت به إلى رسول الله ﷺ فأسلم ، وأما عبد الله بن خطل فقتله سعيد بن حرير وأبو بربة الإسلامي ،

اشتركا في دمه ، وأما مقيس بن حبيبة فقتله ثيلة بن عبد الله زجل من قومه وأما قينتا ابن خطل فقتل إحداهما ، وهربت الأخرى ، حتى استؤمن لها . . . وأما سارة فاستؤمن لها فأمنها . . وأما الحويرث بن نقيد فقتله علي بن أبي طالب .

حديث الرجلين اللذين أمتها أم هانٌ : قال ابن اسحاق : وحدثني سعيد بن أبي هند عن أبي مرة مولى عقيل بن أبي طالب ، أن أم هانٌ ابنة أبي طالب قالت : لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة ، فرَّ إِلَيْهِ رجلان من أحماقى ، من بني مخزوم . وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، قالت : فدخلت علىٰ عليًّا بن أبي طالب أخي فقال : والله لاقتنيا ، فأغلقت عليهما باب بيتي ، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغسل من جفنه إن فيها لأثر العجين ، وفاطمة ابنته تسره بشوبه ، فلما اغسلت أخذ ثوبه فتوسح به ، ثم صلَّى ثماني ركعات من الصحن ، ثم انصرف إلىٰ فقال : مرحباً وأهلاً يا أم هانٌ ، ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليٰ ؛ فقال : قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت ، فلا يقتلنها .

طوف الرسول بالبيت وكلمته فيه : قال ابن اسحاق : وحدثني محمد جعفر بن الزبير ، عن عبدالله بن عبد الله بن أبي ثور ، عن صفية بنت شيبة ، أن رسول الله ﷺ لما نزل مكة ، واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت ، فطاف به سبعاً على راحلته ، يستلم الركن بمحجن في يده ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ، فدخلها ، فوجد فيها حامة من عيدان فكسرها بيده ، ثم طرحتها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكشف<sup>(١)</sup> له الناس في المسجد .

قال ابن اسحاق : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الديمة مغلظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها . يا معاشر قريش . إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء الناس من آدم ، وأدَم من تراب ثم تلا هذه الآية : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم حير». ثم قال : يا معاشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخي كريم قال : أذهبوا فأنتم الطلقاء .

إقرار الرسول ﷺ ابن طلحة على السданة : ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلِّ الله عليك . فقال رسول

(١) استكشف له الناس : تجمعوا له وتخلعوا حوله

الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة فدعني له . فقال : هال مفتاحك يا عثمان اليوم يوم برووفاء .

أمر الرسول بطمسم ما في البيت من صور : قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم ، أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح ، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصورةً في يده الأسلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأسلام ، ما شأن إبراهيم والأسلام «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» ثم أمر بتلك الصور كلها فطمسـت .

سبب إسلام عتاب والحارث بن هشام : قال ابن هشام : وحدثني أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال ، فأمره أن يؤذن وأبو سفيان بن حرب عتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيداً لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغطيـه . فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه حق لاتبـعـته ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرـتـ عنـ هذهـ الحصـىـ ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال : قد علمـتـ الذي قـلتـ ثم ذـكـرـ ذلكـ لهمـ : فقالـ الحـارـثـ وـعـتـابـ : نـشـهـدـ أـنـكـ رـسـوـلـ اللهـ وـالـلـهـ مـاـ اـطـلـعـ عـلـيـ هـذـاـ أحـدـ كـانـ مـعـنـاـ فـنـقـولـ أـخـبـرـكـ .

سقوط أصنام الكعبة بإشارة من الرسول : قال ابن هشام : وحدثني من أثق به من أهل الرواية في إسناده عن ابن شهاب الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته ، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول : ( جاء الحق وذهق الباطل إن الباطل كان زهقاً ) . فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه . حتى ما بقي منها صنم إلا وقع . فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك : وفي الأصنام معتبر وعلم من يرجو الشواب أو العقابـ

كيف أسلم فضالة : قال ابن هشام : وحدثني : أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل الرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح . فلما دنا منه . قال رسول الله ﷺ : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله : قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال لا شيء كنت أذكر الله ، قال : فضحك النبي ﷺ ثم قال : استغفر الله ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرـيـ حتىـ ماـ منـ خـلـقـ اللهـ شـيـءـ أـحـبـ إـلـيـ مـنـهـ . قال فضالة : فرجعت إلى أهلي . فمررت بأمرأة كنت أتحدث إليها ، فقالـتـ : هلـمـ إلىـ الحديثـ فـقـلتـ : لاـ . وـأـبـعـثـ فـضـالـةـ يـقـولـ :

قالـتـ هـلـمـ إـلـىـ الـحـدـيـثـ فـقـلتـ لـاـ يـأـبـ عـلـيـكـ اللـهـ وـالـاسـلامـ

لو ما رأيت محمداً وقبيله      بالفتح يوم تكسر الأصنام  
لرأيت دين الله أصحي بيننا      والشرك يغشى وجهه الإظلم

أمان الرسول لصفوان بن أمية : قال ابن اسحاق : فحدثني محمد بن جعفر ، عن عروة بن الزبير ، قال : خرج صفوان بن أمية يريد جدّه ليركب منها إلى اليمن ، فقال عمير بن وهب : يا نبى الله إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ، ليقذف نفسه في البحر فأنه صلى الله عليك ، قال : هو آمن ؟ قال : يا رسول الله فاعطني آية يعرف بها أمانتك ، فأعطيه رسول الله عمامته التي دخل فيها مكة ، فخرج بها حتى أدركه ، وهو يريد أن يركب البحر . فقال : يا صفوان ، فداك أبي وأمي . الله في نفسك أن تهلكها . فهذا أمان من رسول الله قد جئتكم به ، قال : ويحك ! أغرب عني فلا تكلمي . قال : أبي صفوان ، فداك أبي وأمي أفضل الناس وأبر الناس ، وأحلم الناس ، ابن عمك ، عزّه عزّك وشرفه وملكه ملكك قال : إن أخافه على نفسي ، قال : هو أحلم من ذاك وأكرم ، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله فقال صفوان : إن هذا يرغم أنك أمنتني . قال : صدق ، قال : فاجعلني في الخيار شهرين ؛ قال : أنت بالخير فيه أربعة أشهر .

إسلام عكرمة وصفوان : قال ابن اسحاق : وحدثني الزهرى : أن أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، وفاحتة بنت الوليد ، وكانت فاختة عند صفوان بن أمية ، وأم حكيم عند عكرمة بن أبي جهل ، أسلمتا ، فلما أتى حكيم فاستأمنت رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ فأنه . فلحقت به في اليمن فجاءت به . فلما أسلم عكرمة وصفوان أقرّهما رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ عندهما على النكاح الأول .

إسلام ابن الزبوري : قال ابن اسحاق : وحدثني سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت . قال : رمى حسان ابن الزبوري وهو بنجران بيت واحد ما زاده عليه :

لا تعدمن رجلاً أحلك بغضنه      نجران في عيشٍ أحدٌ ليثم  
فليبلغ ذلك ابن الزبوري خرج إلى رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ فأسلم ، فقال حين أسلم :

يا رسول الملك إن لسانِي رائق ما فتقـت إذ أنا بـور  
إذ أباري الشـيطـان في سـنـنـ الغـيـ وـمـنـ مـالـ مـيـلـهـ مـثـبـورـ  
آمن اللـحـمـ وـالـعـظـامـ لـرـبـ ثم قـلـبـيـ الشـهـيدـ أـنـتـ النـذـيرـ  
إـنـيـ عـنـكـ زـاجـرـ ثـمـ حـيـاـ منـ لـزـيـ وـكـلـهـمـ مـغـرـرـ(1)  
إسلام سهيل بن عمرو : وكان سهيل بن عمرو أغلق عليه بابه ، وبعث إلى ابنه عبد الله بن سهيل أن يأخذ له أماناً فأنه رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال : من لقي سهيل بن عمرو فلا يُشـدـ النـظرـ اليـهـ

(1) مقتطفات من السيرة لابن اسحاق من ص ٤٠٥ - ٤١٩ ج ٤ ط. دار الكنز الأدبية

فلعمري إن سهيلًا له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يوضع<sup>(١)</sup> فيه أنه لم يكن له بنافع . فخرج عبدالله إلى أبيه فأخبره فقال : سهيل : كان والله برأ صغيراً وكبيراً فخرج وشهد حنين وأسلم بالجعرانة<sup>(٢)</sup> .

نتحدث عن هذا النصر والفتح من خلال النقاط التالية التي تحدد معالم هذه السمة : أو تتمة معالها .

- أولاً : إنهايار المقاومة المسلحة .
- ثانياً : رسول الله ﷺ في مكة والبيت الحرام
- ثالثاً : المحكوم عليهم بالإعدام
- رابعاً : إسلام القيادة جائعاً

النصر يتبدىء ذاتياً عندما تتحقق المزية النفسية في صفوف العدو ، وكان أبو سفيان هو بطل الاستسلام الرسمي فهو القائد العام لمكة وكان كل اهتمامه ينصب على حماية مكة من التدمير ، ولن تتم حمايتها إلا إذا أعلنت الانسحاب والتخلّي عن المقاومة . ولا نشك أبداً أن إسلام أبي سفيان رضي الله عنه كان دافعاً قوياً لفتح الطريق أمام محمد ﷺ لدخول مكة .

غير أن التطورات كانت على غير ما يهوى أبو سفيان . لقد حلّت هند بنت عتبة زوجه لواء المعارضه ضده ، ودعت إلى قتله لأنه استسلم ، وراحت تهيج المشاعر والآفوس للمقاومة واستطاعت أن تقود تياراً قوياً مع القادة الشباب الذين عز عليهم أن تمرغ كرامتهم بالتراب لجذوراً إلى بيوتهم مذعورين خائفين ، وضبط القائد العام لمكة أعصابه على هول الصفعه من زوجه هند ، واكتفى للمحافظة على الهدف أن يقول : لا تفرنكم هذه عن أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به .

وكان الجيش الإسلامي كما وزعه رسول الله ﷺ مكلفاً بدخول مكة من عدة محاور . وكان خالد بن الوليد على المجنة اليمنى وكلف بدخول مكة من أسفلها وتحت إمرته أسلم وسليم وغفار ومزيينة وجهينة . وكان سلاح الفرسان مع هذه الكتيبة . وخالد هو قائد سلاح الفرسان ذاتياً إذ أن أسلم وحدها ، حين انضمت للجيش الإسلامي قدمت بآلف فرس وفارس .

وتحركت القيادات الشابة تقود الكثير من هؤلاء الشباب للمقاومة وشاء قدر الله أن يلتقي رفاق السلاح في مكان واحد ، فخالد قبل أقل من عام هو قائد سلاح الفرسان لقريش وقبل أقل من عام كان يخطط مع صفوان وعكرمة وسهيل لمواجهة محمد ﷺ وهذه أول سمعة يقف فيها خالد

(١) يوضع . يجتهد ويشتت . كنایة عنها كان يبعد

(٢) امتع الأسماع ج ١ ص ٣٩١

تجاه أعز أصدقائه من قبل ، وأقرب أقربائه الأدرين تجاه عكرمة وصفوان اللذين دعاهم إلى الإسلام من بين كل الناس حين مضى إلى المدينة ليسلم .

ولكنها العقيدة هي التي فرقت بينه وبينها اليوم ، وهم يعرفون من خالد بن الوليد ، وكانت مفاجأة صاعقة لهم أن يواجهوا به ، وإن كان المهم وغيرظهم منه أكثر من كل من سواه ، فهو الذي تخلى عنهم ، وانضم إلى صف محمد وهم المutorون منه . وحاول خالد رضي الله عنه أن يحول بين المواجهة غير أنه عجز عن ذلك ، فلقد كان الغرور والعجرفة هو الذي يسيطر على هؤلاء المقاتلين ، وقد رأينا مدى ثقتهم بقوتهم أن كان حماس بن قيس يعد أمراته أن يخدمها أحدهم . فسيكون المسلمون أسرى بين أيديهم وكما يقول :

إن يقبلوا اليوم فمالي عله هذا سلاح كامل وإله  
وذوغرارين سريع السلة

ولن تستطيع قوة الشرك أن تصمد أمام قوة الإيمان حين يكون جند الإيمان هم القلة فكيف إذا كانوا هم الكثرة عدداً وعدة ، ومن أجل هذا ما تملك المشركون ساعات حتى تباري القادة بالفرار صفوان وعكرمة وسهيل ، ومع فرار القيادة لاذ الجنود بالفرار والمسلمون في ظهورهم كالنار المشتعلة كما وصفهم حماس نفسه :

لم نحيت خلفنا وهممة لم تنطقي بالعلوم أدنى كلمة  
ونلاحظ أن الخسائر كانت قليلة ، فقد قتل من المشركين حوالي ثلاثة عشر رجلاً بينما استشهد من المسلمين ثلاثة بينهم اثنان ضلا الطريق فوقعوا بين يدي العدو . وقلة القتلى بين الفريقين ناتجة عن سرعة فرار المشركين من جهة بعد فرار قيادتهم . وعدم رغبة المسلمين في متابعة القتال حسب أوامر الرسول ﷺ من جهة ثانية .

والدرس الذي نفقهه من خلال هذه المواقف أن نحسب كل الحسابات في مواجهة العدو . فلا يكفي الاعتماد على الاستسلام العام له إذ أن بعض فصائل هذا العدو قد تثور على من وقع وثيقة الاستسلام . فلا بد أن يُعَذَّل مثل هذا الأمر في التخطيط الذي تقوم به القيادة . والإرهاب بالقوة في أحيان كثيرة ليس هدفه القتل والذبح بمقدار ما يهدف إلى إحباط مقاومة العدو . والحركة الإسلامية تستفيد كثيراً من هذا الدرس حين تُفتَّ في أعضاد خصومها بما تملكه حقيقة من قوة رادعة لهؤلاء الخصوم . ولقد رأينا مثل هذا الموقف في عمرة القضاء حين قال المشركون : سيأتكم محمد وجيشه قد أوهنتهم حتى يثرب ، فاضطرب رسول الله ﷺ بردائه وقال لجيشه والمشركون ينظرون إليهم من دار الندوة : رحم الله أمراً أراهم من نفسه قوة ومضى عليه الصلاة والسلام يهروه والمسلمون وراءه . لا بد أن تملك الحركة الإسلامية القوة الرادعة . أو تخطط لذلك ، وهذا

هو الضمان الوحيد الذي يمنع الخصوم من حربها ، وامتلاك هذه القوة الرادعة لا يعني أن تحول إلى عصابة قاتلة بل تستطيع بهذه القوة أن تهطم التفوس المعاندة وتردع العدون الكامن . وفي معظم الأحيان نجد أن هزيمة العدو مرتبطة بهزيمة قيادته . فمع فرار صفوان وعكرمة وسهيل انتهت الحرب .

وعلى الحركة الإسلامية أن تقدم إضافة إلى القوة الرادعة القوة المكافحة . فخالد هو الذي واجه سهيلاً وصفوان وعكرمة . وهو الأدرى بهم وبإمكاناتهم . وهذا يعني كذلك أن الحركة الإسلامية لا بد أن تعد الوسائل المكافحة كذلك لمواجهة خصمها ، وتجربة الحركة الإسلامية حين خاضت حرباً ضرورياً ضد أعدائها قبل أن تمتلك السلاح والرجال المكافحين للخصم فكانت كارثة مروعة راح ضحيتها عشرات الآلاف من القتلى والجرحى والمفقودين . ولا بد أن تأتي الفرصة التي تحدد فيها مسؤولية هؤلاء المسؤولين عن هذه المرحلة . إن فرطوا في هذه الأمانة .

ونمضي مع رسول الله ﷺ إلى مكة :

أولاً : فلقد كان وهو القائد المنتصر الذي دانت له رقاب العرب بعد أن أهدر دمه . وقال عنه ربه ﷺ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الدين كفروا ثانية اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفل ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم (١) .

من ذلك الموقع الذي يقول فيه أبو بكر رضي الله عنه ، لو نظر أحدهم إلى خلل قدمه لرأى . إلى هذا الموقف ويحيط به عشرة آلاف مقاتل على قلب رجل واحد . يفتح بهم الأرض ، ويقضي إلى الذين حاربوا عشرين عاماً أو تزيد وما هو اليوم يدخل في قلب هذا النصر (يضع رأسه تواعداً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثونه ليكاد يمس واسطة الرجل) . فهو الآن عبد الله ورسوله الذي أنعم الله تعالى عليه بالفتح ، وليس هو كما تقول الجاهلية بطل النصر ، وصانعه ومفجره ، بل كان الهاكف الإسلامي الخالد :

لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده لا شيء قبله ولا شيء بعده .

فالنصر هو نصر العقيدة ، نصر كلمة التوحيد ، وليس انتصار الذات ، أو انتصار الثأر أو انتصار الموى وبالتالي فالتدليل لله تعالى في هذه الساعات هو الذي يتنزل فيها نصر الله . وهذا الدرس لكل قادة الأرض الذين حفل بهم التاريخ أن يتعلموا من معلمهم الأول كيف يكون القائد المنتصر بين يدي ربه الذي أعطاه هذا النصر .

(١) سورة التوبة : ٤٠

وكم يغيب هذا المعنى عن القادة المسلمين بله الفرد العادي من المسلمين فتأخذه نشوة النصر فلا يكاد يطا له أحد وهو قد انتصر بمظاهرة أو كلمة ألقاها أو كلمة عابرة اثنى عليه بها عابر سبيل .

ثانياً : ودخل رسول الله ﷺ مكة بعد أن أعلنت استسلامها الأخير وكان أول ما يقصده الذي يدخل مكة هو البيت . ولا بد أن نقارن بين طوافين . لقد كان الطواف الأول في عمرة القضاء وال المسلمين معه والأصنام الثلاثمائة والستون تملأ فجاج الكعبة وأركان البيت . ولكنه كان عاجزاً عن المساس بها . وليس له الحق في ذلك . إذ أن دخول الكعبة في عمرة القضاء دخول سلمي بحماية قريش وموافقتها . فطاف والأصنام قائمة أما اليوم فقد اختلف الأمر ، لقد دخل مكة فاتحاً ، واستسلمت بعد قتال ، غزيت بعد نقض للعهد . فالسلطنة العليا له . ولا عهد لأحد عليه . فكان أول ما أقدم عليه رسول الله هو تحطيم الأصنام . (فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقائه ، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم إلا وقع) .

وليت شباب الحركة الإسلامية يدركون هذه المقارنة . ويدركون أن الإسلام لا يطبق طفرة واحدة ، فمع أن المسلمين دولة قوية في عمرة القضاء لكن لا سلطة ولا سلطان لهم على مكة . والذين صالحوهم وهادنوه منحوم حق العمرة في مكة فقط ولأيام محدودة دون مس بأمن مكة أو شعائرها أو عقائدها ، لكن لا يطوفون بإعلان شعائر غيرهم كذلك فالMuslimون يعلنون كلمة التوحيد في مكة وهذا نقض كامل لمبادئ قريش . غير أنهم عاجزون عن القضاء على شعائر المشركين ومقدساتهم من الأصنام . ولقد قبل رسول الله رسول الله هذا الواقع من خلال معاهدة أقبل على توقيع بنودها ، وهو درس هام وهو جدأ للحركة الإسلامية يوضح خطوط تحركها ، ويوضح المرحلية في الوصول إلى أهدافها ، فيما كان جائزًا من خلال معاهدة بين قريش ورسول الله رسول الله وهو عدم التعرض للأصنام قريش . لم يعد جائزًا . بعد مرحلة القوة الجديدة التي فتحت أبواب مكة أمام رسول الله رسول الله دون قيد أو شرط .

فقد تقدم الحركة الإسلامية على ميثاق هدنة أو صلح أو تحالف لا يتم من خلاله التمييز الكامل لشعائر الإسلام ، أو التنفيذ الكامل لمبادئ الإسلام . لكن الذي لا عذر فيه أن يقدم المسلمون شعائر جاهلية . أن تشترك الشعائر كل حسب مقدساته . فلا غرابة في ذلك ، إذ لم ثبت أن المسلمين وهم يطوفون حول الكعبة منعوا طواف بقية الناس ، ومنعوا إعلان شعائر الشرك التي تقول : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إلا شريكًا هو لك وما ملك . أو منعوا السجود للأصنام وتقديسها أثناء الطواف لكن كان لهم كامل الحق أن يطوفوا بشعائرهم دون أن يتقيدوا بشعائر المشركين .

وهذا التدرج الذي يصل المسلمين إليه خطوة بعد خطوة لا بد أن يفقهه الدعاة إلى الله

تعالى . ولا يسأرعوا إلى التيل من قياداتهم حين تسير في هذه الخطوات في التدرج حسب القوة التي تمتلكها . إن معاملة القاعدة للقيادة دائمًا على أن عليها أن تطبق أحكام الإسلام النهائية كما هي بعدبراءة . فهو ظلم لهذه القيادة من جهة ، وجهل بحقيقة هذا الدين ومرحلته وحركته في الوصول إلى أهدافه . وحين نبين الحد الواضح بين الاحتواء الذي يمثل نطقنا بفكر غيرنا الذي لا نؤمن به أو يحارب عقیدتنا وبين التعامل الذي يحفظ لكل طرف حقه في شعائره وعقيدته . والدليل على هذه المرحلة كما نرى هو اختلاف الموقف بين طواف عمرة القضاء وطواف الفتح . فقد رافق طواف الفتح هدم للأصنام في الكعبة ، وإعلان كلمة التوحيد على بابها . والمشركون لا يملكون حتى رفع بصرهم إلى رسول الله ﷺ خوفاً ورهبة وإجلالاً كذلك هذا الانفصال بين الطوافين هو الذي يعلمنا كيف نطلق بهذا الإسلام في منهجه الحركي ، ومن خلال سماته . المتتابعة التي تحقق نصراً عقب نصر من خلال خطة واضحة المعالم ، محددة المراحل في ذهن رسول الله ﷺ الذي خطط لفتح مكة دون أن يضطر لقيد واحد أو شرط واحد على الفتح . بينما قام رسول الله ﷺ بذاته الشريفة في إعلان مبادئه المهدنة المشتركة بين قريش و محمد بن عبد الله .

ومما كسر كذلك صنم قريش الأكبر الذي كان مفتر عزها ، وهو الذي نادى أبو سفيان باسمه يوم أحد فقال : أعل هبل .. ولم يترك الزبير رضي الله عنه هذا الأمر . فذكر أبو سفيان بذلك قائلاً له : ( يا أبو سفيان قد كسر هبل أما إنك كنت يوم أحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم ! فقال : دع هذا عنك يا ابن العوام فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان ) . ومع انتهاء الطواف . وإلغاء كل مظاهر الوثنية الظاهرة . كان الناس ينظرون إلى القائد العظيم بثيابه الحربية الدرع والمغفر وعلى راحلته وهو بينهم حيث قام عليه الصلاة والسلام بعد الطواف بالشرب من ماء زمزم وال موضوع منه استعداداً لخطوات لاحقة .

ثالثاً : ثم كان دخول الكعبة المشرفة . حيث دعا عثمان بن طلحة رضي الله عنه وأخذ منه مفتاح الكعبة ودخلها فكسر شعائر الوثنية داخلها وهي الحمامات من العيدان ، وصورة ابراهيم عليه الصلاة والسلام وهو يستقسم بالأزلام . وصل بالكعبة ثم خرج إلى الناس . وكانت فرصة مواتية ، أن طلب العباس بن عبد المطلب ضم الحجابة إلى السقاية وتكونان لبني هاشم .

وكان هذا أمام الناس جميعاً ، ومن يستطيع أن ينافش رسول الله ﷺ في أمر ، حتى عثمان بن طلحة ، فلقد غدا جندياً مسلماً ينفذ أمر رسوله والناس جميعاً كان على رؤوسهم الطير ، وهم يتتظرون ما تتحرك به شفتي النبي ﷺ في هذا الأمر وبيده أن يلغى الحجابة ويضعها في يده . أو يعطيها لبني هاشم رهط النبي من بعده . لكن المسلمين والمشركين فوجئوا برسول الله ﷺ يقول : ( ادعوا إلى عثمان بن طلحة ) . وكان ﷺ قال له يوماً بحكة : وهو يدعوه إلى الإسلام ، ومع عثمان المفتاح . فقال : لعلك ستري هذا المفتاح يوماً بيدي أضعفه حيث شئت . فقال له عثمان : لقد

ملكت إذن قريش وذلت ، فقال ﷺ بل عمرت وعزت يومئذـ . فأقبل عثمان فقال له عليه الصلاة والسلام ، خذوها يا بني أبي طلحة نالدة خالدة ، ولا ينزعها منكم إلا ظالم ! يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته ، فكلوا بالمعروف . فلما ولى عثمان ناداه عليه الصلاة والسلام فرجع إليه فقال له : ألم يكن الذي قلت لك ؟ فذكر عثمان قوله له بمكة . فقال : بل أشهد أنك رسول الله ، فقال : قم على الباب ، وكل بالمعروف . ودفع عليه السلام السقاية إلى العباس رضي الله عنه(١) .

ونقف أمام هذا الدرس العظيم العجيب الذي يفسره قول رسول الله ﷺ : (ألا إن كل ربا في الجاهلية أودم أو مال أو مأثرة فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج) .

ولا بد من التذكير أن هذا التوزيع لهذه المأثر بالأصل هو توزيع جاهلي بحت على يدي قصي بن كلاب مؤسس دولة قريش . (وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد في حياته ، وكان عبد الدار بكره فقال له قصي لأحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك ، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش فأعطاه دار الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وكان قصي لا يخالف ولا يردد عليه شيء صنعه . وكان أمره في حياته وبعد موته كالدين المتبوع . فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناءه بني عمهم عبد الدار في هذه المناصب ، وافتقرت قريش فرقتين وكاد يكون بينهما قتال ، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح واقتسموا هذه المناصب ، فصارت السقاية والرفادة إلى بني عبد مناف ، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بني عبد الدار . ) (٢) .

ومع أن هذا التقسيم كما رأينا أعراف جاهلية ودين متبع عندهم . لم يكن لدى رسول الله ﷺ وهو من بني هاشم أن يعيد المفتاح إلى عثمان بن طلحة ابن عمه البعيد . تقيداً بأعراف مكة . التي تختلف الإسلام . بينما أعلن عليه الصلاة والسلام أن بقية المأثر تحت قدميه .

ونحن نعلم أن هذا الأمر من رسول الله ﷺ هو من عند الله لأن الله تعالى أقر نبيه على ذلك . وشاءت إرادة الله تعالى أن تبقى حراسة بيته بيد بني عبد من عبيده وهو عثمان بن طلحة . وحتى خمسة عشر قرناً من الزمان . لم يتغير الأمر طالما أن رسول الله ﷺ هو الذي شرعه . وأما السقاية فقد تحولت على يد زبيدة زوج الرشيد (العباسية) ابنة العباس بن عبد المطلب إلى سقاية رسمية من خلال مشروع المياه الذي مددته من الطائف إلى مكة نسقاية لحجيج حين لم يعد زرم زرم كافياً لذلك .

ونفقه من هذا الدرس كذلك أن أن بإمكان الحركة الإسلامية وهي في ذروة قوتها أن تحافظ

(١) إمتناع الأسماع ج ١ ص ٣٨٧ ، ٣٨٨

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٧

على بعض المأثر التي لا تتعارض مع المفهوم الإسلامي . حفاظاً على مشاعر الأمة أن تصدم فيها حين تدخل في صميم حياتها أما ما دون ذلك فمن حق دولة الإسلام أن تلغيه حين يتعارض مع الإسلام ، أو مصلحة المسلمين والجماعة الإسلامية .

لقد حافظ رسول الله ﷺ في بداية الأمر على اللواء . حتى أحد حيث كان بيد مصعب بن عمير رضي الله عنه العبدري . لكنه بعد ذلك تخلى عنه ، ولم يدخل اللواء في إطار هذا الخلود . لأن الله تعالى يعلم أن ألوية المسلمين سوف تملأ فجاج الأرض . وسوف تنتشر تحت كل نجم ، فلا يمكن أن يحصر في إنسان بل في أمة بل في جيل من الأجيال . أما حين يرد سكان الأرض إلى البيت الحرام . فلا يصعب أن تكون سدانته في يدي بني أبي طلحة ، ولا تزال في عهدهم إلى اليوم ، حتى إن سادن الكعبة قد أعلن عن وفاته قبل عشرة أعوام فقط . وقد استلم ابنه بعده وسيبقى إلى يوم الدين كما قال عليه الصلاة والسلام . خذوها تالدة خالدة ، لا يتزعها منكم إلا ظالم .

ونقول في نهاية المطاف مع هذه الفقرة : إن المسلمين وهم في ذروة نصرهم ، حيث لا يملك أحد أن يحول بينهم وبين ما يريدون ومع هذا كله فيستطيعون المحافظة على أعراف وتقالييد الدولة التي كانت قبل الحكم الإسلامي مالم يتعارض ذلك مع الإسلام .

رابعاً : ثم كانت الخطبة التي أعلنت فيها عليه الصلاة والسلام في بداية الأمر عفوه عن قريش (يا عشر قريش ما تظنون أي فاعل بكم ، قالوا خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت . فقال فاني أقول لكم . كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا فأنتم الطلقاء ) .

ثم أعلنت مبادئ الحكم الإسلامي صريحة مدوية . والتي سيبدأ بتنفيذها على التو . بعد أن صار عليه الصلاة والسلام قادرًا على تنفيذ هذا الحكم : وما نحن نرى هذه المبادئ .

أ - إعلان إسلامية الدولة : الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

ب - اسقاط الثارات والأمجاد السابقة : أة إن كل ربا في الجاهلية أوردم أو مال أو مأثر فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج .

ج - إسقاط الرابطة الجاهلية : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكثرها بالأباء . كلكم لأدم وأدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم .

د - جرمة الكعبة : ألا إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرام الله لم تحل لأحد كان قبله ، ولا تحل لأحد كائن بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعة من النهار ، ألا لا ينفر

صيدها ولا يعتصد<sup>(١)</sup> عصاها<sup>(٢)</sup> ولا تحل لقطتها إلا لمشد<sup>(٣)</sup> ولا يختل خلامها<sup>(٤)</sup>. فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لا بد منه للقبور وظهور البيوت. فسكت ساعة ثم قال: إلا الإذخر فإنه حلال.

هـ - في مجال المرأة: ولا وصية لوارث، وأن الولد للفراش وللعاهر الحجر، ولا يحل لامرأة أن تعطي من مالها إلا بإذن زوجها.

و - إعلان الرابطة الجديدة: والمسلم أخو المسلم. وال المسلمين إخوة وال المسلمين يد واحدة على من سواهم يتكافئون دماءهم، يردد عليهم أقصاهم، ويعقد عليهم أدناهم، ومشدّهم على مضعفهم ومسيرهم على قاعدهم.

ز - بعض الحقوق للطوائف الأخرى: ولا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين.

ح - بعض الأحكام الاقتصادية: ولا جلب ولا جنب<sup>(٥)</sup>، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا في بيوتهم وبأفنيتهم ...

ط - في النكاح: ولا تنكح المرأة على عمتها وخالتها.

ي - في القضاء: والبينة على من ادعى ، واليمين على من انكر

ك - في المحارم: ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة إلا مع ذي حرم .

ل - في العبادات: ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح ، وأنهاكم عن صيام يومين يوم الأضحى ويوم الفطر.

م - في الألبسة: وعن لبستين : لا يحب أحدكم في ثوب واحد يفضي بعورته إلى النساء ، ولا يشتمل الصياء ولا إخالكم إلا قد عرفتموها<sup>(٦)</sup> .

ومع نهاية الخطبة الغي الوجود الجاهلي ، وصار الحكم للإسلام . وتم تنفيذ حكمين شرعين خلال وجود رسول الله ﷺ في مكة .

أولهما: دية القتيل من بكر <sup>﴿وقد قتلت هذا القتيل والله لأدنيه فمن قتل بعد مقامي هذا</sup>

(١) ويعتصد، يقطع

(٢) العصا: شجر عظام له شوك

(٣) اللقطة: الملقي في الأرض والمشد: المُرُف بالضالة

(٤) الخلا: الحشيش، وانخلق قطع

(٥) لا جلب ولا جنب: يجلب أموال الزكاة أو تخبيها له

(٦) أورد المقرizi هذه الخطبة في إمتناع الأسماع ج ١ ص ٣٨٧ وهي وإن لم تثبت كاملاً في هذا اليوم لكنها ثابتة بحسبتها إلى النبي ﷺ باحاديث صحيفة.

فأهلة بالخيار إن شاؤوا فدم قتيلهم وإن شاؤوا فعقله .

ثم أمر خزاعة يخرجون ديته فأنخرجوها مائة من الإبل فكان أول قتيل وداء رسول الله ﷺ في

## الإسلام

ثانيهما: المرأة المخزومية التي سرقت. وكانت امتحاناً مباشراً لدولة الإسلام في الأرض، وبينو خزوم من أشراف الناس وبذلت الوساطات من كل جانب وكان أسامة بن زيد رضي الله عنه أحب الناس إلى رسول الله ﷺ. فجاء يشفع في حدها. فكان الجواب قاسياً جداً عليه: يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله !!

ثم أعلن عليه الصلاة والسلام. أسباب عق الأمم وهلاكها: إما أهلك من كان قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد.

ثم أعلن كذلك ﷺ، أنه لا أحد في هذه الأرض فوق حدود الله بعد بلوغها للحاكم: والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها).

والحركة الإسلامية تهلك يوم لا تعدل في أحكامها بين قيادتها وقواعدها، وطالما أنها ترعب أن تقول كلمة الحق في صفحها، فلن تعلن كلمة الحق في الناس، وميزان الحكم على النصر والهزيمة من خلال هذه الكلية الضخمة. وإنه لامتحان عسير أن تساوى القيادة في أحكامها على ابنائها مع الآخرين، وحين تنفذ ذلك فتكون لها القوامة على الآخرين.

أما الذين أهدر رسول الله ﷺ دمهم، وكانوا ستة نفر فكان أغلبهم من المرتدين أو الذين آذوا رسول الله ﷺ في هجاء مقدع أو اعتداء أثيم .. وقد قتل نصفهم ونجا نصفهم. وتقبل رسول الله ﷺ على كره منه - وساطة عثمان في عبد الله بن سعد في الوقت الذي أتاح فيه للمسلمين أن ينفذوا حكم رسول الله ﷺ فيه، وشاءت إرادة الله أن لا يتتبه المسلمون لذلك فينجو عبد الله، ثم يسلم فيحسن إسلامه. وعثمان الذي تستحي منه الملائكة. كان رسول الله ﷺ يستحي منه ويقول: لا تستحي من تستحي منه الملائكة. جعلت رسول الله يوافق بعد لاي وإلحاح لثلاث مرات على إجارته.

وهو موقف كريم من النبي كريم. مع صحابي كريم من صحابته. نرى من خلاله إلى أي مدى ترتفع قيمة الجندي عند قائدته ولو في تغيير خطلة أعلنها على الملا. وكرامة عثمان عند رسول الله ﷺ. كانت يوم ثمت بيعة الحدبية على الموت ثاراً له بعد إشاعة مقتله. وهذا هو اليوم في مكة يشفع لمرتد لا يمكن أن ينجو لولا الموافقة النبوية على ذلك.

والإشارة العظيمة إلى أن النبي لا يقتل بالإشارة ذات دلالة على شرف النبوة التي لا تتعامل

بالغدر من الناس منها كانت التكاليف الباهظة في حقها.

إن كرامة العهد غالبة جداً على المسلم.

وكرامة الرجل المسلم غالبة جداً على الحركة الإسلامية.

وكرامة حدود الله غالبة جداً على الجيش المسلم.

ولا بد من الموازنات بين هذه الأمور بحيث لا يطغى جانب على جانب.

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ، رفض قبول شفاعة زيد ووساطته من أجل المرأة المخزومية التي سرقت. بينما قبل وساطة عثمان في حد المرتد. ولكن في هذا الأمر شبهة لجوئه إلى مكة. بينما حدثت السرقة في ظل الدولة الإسلامية دون أية شبهة، ودائماً تدراً الحدود بالشبهات.

والحركة الإسلامية التي تحمل عبء إقامة دولة الله في الأرض، لا بد لها أن تتحمل مسؤولية التطبيق العملي لذلك، منها كان الشمن غالياً. وال مجرمون الذين يحملون كبر الاجرام من كبار العترة في الأرض لا بد من عقوبتهم دون مراعاة لعواطفهم طالما أنهم قادوا لهذا الشر أو مراوغون مرتدون ثبت غدرهم وكفرهم. هذا بالنسبة لخارج الصف المسلم. وكذلك الأمر داخل هذا الصف فليست الغرابة أن يقع فيه الخطأ. بل نقول أكثر من ذلك إن الغريب ألا يقع الخطأ في هذا الصف. لأن طبيعة النفس البشرية محبولة على الخطأ.

﴿لَوْمَ تَذَنَّبُوا لِذَهَبِ اللَّهِ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يَذَنَّبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَهُمْ﴾(١).

إنما الأشد غرابة أن يقع الخطأ في كبيرة أو حدي من الحدود. ويتهانون به، وينفذ على الصغير دون الكبير، وعلى الضعيف دون الشريف. فهذه قاصمة الظهر للجماعة وللحركة الإسلامية كاملة فالحركة الإسلامية العاجزة عن تحقيق العدل في صفوفها هي من باب أولى عاجزة عن تحقيقه في صفوف غيرها.. ومن هنا تأتي أضخم أزمة ثقة بين القيادة والقاعدة في صف الحركة حين يصبح المثل المحذى. والقدوة محل نقد وشك من شباب الدعوة، وجندوها الأوفياء.

### القيادات جيماً تعتنق الإسلام

ولم يحدث في تاريخ الأرض كلها أن يدخل قادة جيش العدو في دين عدوهم إلا في تاريخ الإسلام.

الثلاثة الكبار: وهم قادة جيش العدو صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن

(١) رواه الإمام أحمد عن ابن عباس ومسلم عن أبي هريرة.

عمره. وإسلام كل واحد منهم ملحمة فخار في تاريخ هذه الدعوة.

أما عكرمة : فهو الذي قال لابن عمّه خالد عندما دعاه للإسلام : لولم يبق غيري ما اتبعته أبداً.

ولاذ بالفرار إلى اليمن ليهوي حياته هناك . غير أن المفاجأة أذهلتة وهو يرى زوجه قد قدمت إليه وحسب أنها فارة إليه . ولكنها الآن تدعوه إلى أمان محمد بن عبد الله رض وعكرمة يعرف عهد محمد ووفاه وكراهيته للغدر.

وعلى الصيغة نفسها كانت دعوة صفوان بن أمية للإسلام إذ لحق به صديقه السابق عمير بن وهب أما سهيل فاختباً في بيته ينتظر أماناً من رسول الله رض فأعطاه إيه.

وطبيعي أن يفر هؤلاء الثلاثة أو يختبئوا . فقد رفضوا الأمان الأول ، وحاربوا الجيش الإسلامي ، وأعلنوا العداء الصريح الواضح أن لا لقاء مع محمد إلا من خلال السيف .

لكن حرص النبي صل على طوي صفحة الحرب حتى مع هؤلاء القادة المحاربين . كان واضحاً بحث أعطي أمانه لهم دون تردد . وحمل هذا الأمان زوجة وولد وصديق .

(وطلبت أم حكيم أماناً لعكرمة وقد هرب إلى اليمن . فأمنه . فخرجت إليه حتى قدم ، فلما دنا من مكة قال رسول الله صل : يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً ، فلا تسروا أباًه . فإن سب الميت يؤذني الحي ولا يبلغ إليه ! فلما رأه وثبت إليه فرحاً ، فوقف ومعه امرأته متنة ، فقال : يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمنتني . فقال : صدقت . فأنت آمن : فأسلم) (١).

وحين تذكر الحالات في التاريخ تبرز أم حكيم في ذروتها . فهي التي استطاعت أن يغلب حكمها جهلهما والمرأة تنطلق من الحب والكره أكثر بكثير من الرجل . ولم تكتف بذلك بل اعتبرت رسالتها الحقيقة هي أن تقنع زوجها بالإسلام ، وكم تشق بنفسها حين تقطع الأرض إلى اليمن باحثة عن زوجها تدعوه إلى أمان رسول الله صل ، وطاغة إلى إسلامه . وهي في أعمى بيته عداء للإسلام . فآباؤها الحارث بن هشام . الذي لم يدخل الإسلام بعد ، وعمها أبو جهل ، وزوجها عكرمة . فالبيئة تنضح بالكره لمحمد والخذل عليه . ومع ذلك استطاعت أن تتجاوز هذا كله . وتمضي الداعية العظيمة في فجاج الأرض لتعود بزوجها إلى رسول الله صل .

ومدرسة النبوة الحية في عظمة حلمها وصلتها وبرها تجل عن الوصف . حتى إن النبي صل يوصي المسلمين بالامتناع عن سب أبي جهل أمام عكرمة . وتواتر سب أبي جهل في الصف

(١) امتناع الأسماع ج ١ ص ٣٩٢

الإسلامي هو مدرسة بحد ذاتها. فلم يشتف المسلمون من كافر شفاءهم من أبي جهل. ورغم هذا الحقد المتواتر في النفوس والكره المستاصل فيها. فقد صدرت أوامر النبي ﷺ بإغلاق هذه المدرسة. إكراماً لعكرمة المؤمن المهاجر. وإذا كان المسلمون قادرين على كبت مشاعر الحقد والكره على أبي جهل فرعون هذه الأمة. لكنهم عاجزون تماماً عن إبداء مشاعر الحب إلى الذي بقي حتى آخر لحظة يحارب الإسلام ويحارب الله تعالى ورسوله. لكن النبي ﷺ الذي يحمل في قلبه تاريخاً كاملاً من أذى أبي جهل وحربه له ولعقيدته. كان أكبر من بشر الأرض جميعاً في سموه، واستطاع أن يظهر كل معانى الحب والود لعكرمة. فيثبت إليه فرحاً منذ رؤيته. أو لا يحسن عكرمة رضي الله عنه أنه يذوب حياءً من رسول الله ﷺ، وأنه أعجز من أن يصمد لحظة واحدة أمام هذا الاستقبال العظيم بعد الحرب الكبيرة. وأنه لن يقدر على هذا إلا أولوا العزم من الرسل أو بالأحرى سيد هؤلاء الرسل جميعاً. ومع ذلك تمالك وتجدد وتتأكد قبل أن يعلن إسلامه من أمان رسول الله ﷺ له. وأعلن إسلامه بعد أن نال أمانه.

إنها مدرسة في التربية وليس درساً فقط، تجري أمام هذا الجيش المسلم. تتجلّى في هذه المعلم الثلاثة كظم الكره والحقن عن أكبر كفار في التاريخ و مجرميهم أبي جهل إكراماً للعدو الألد ابنه الذي يأتي للإسلام. القيام والتوبة لاستقبال هذا العدو الألد. ومظاهر الفرج تملأ كيان النبي ﷺ، ولا يعلن عكرمة إسلامه بعد.

إعطاء الأمان لعكرمة قبل أن يعلن إسلامه وهو الذي ملا الدنيا حرباً ضد الإسلام والمسلمين. وهكذا دخل عكرمة في هذا الدين دون أن تخندش كرامته أو تمس. فقد كان بإمكانه أن يغادر مكة، أو يبقى على كفره بهذا الأمان إلى فترة محددة. ولكنه حرص على أن يدخل في هذا الدين دون أن يكون لهذا الأمر تحت وطأة السيف وطريق الإرهاب. واستطاع النبي ﷺ أن يستل حقده كله، وأن يضبط عواطف جيشه كله. فلا ينال من عدو الله أبي جهل إكراماً لهذا المستأمن أولاً، ثم المسلم بعد ذلك.

والذي يؤكّد هذا المعنى هو صفووان بن أمية الذي طلب أماناً لشهرين فأعطيه رسول الله ﷺ الأمان لأربعة أشهر. وتأنّر في إسلامه حتى حضر حنين مشركاً.

والذي لا شك فيه أن معاملة هؤلاء القادة كانت معاملة خاصة استثنائية. فلا أمان لكافر محارب في الأصل. وإعطاؤه الأمان هو فسح الصدر لهذه النفوس أن تهدأ وترعوي.

وصفووان رضي الله عنه. بلغ من حقده أنه رفض في بداية الأمر أن يكلم صديق عمره، عمير بن وهب الجمحي الذي لم يكن حقده عليه أقل من حقده على محمد ﷺ حين عاهده في الحجر بعد بدر على قتل محمد ﷺ، وراح يحدث القوم: سيأتيك عمير بخبر تتحدث به الركبان.

وجاء الخبر بإسلامه، فاقسم أن لا يكلمه. وها هو الآن يلحق به إلى البحر ويدعوه ويلاطفه ويطلع عليه ويدركه بابن عمه محمد ﷺ أب الناس وأوصل الناس وأحل الناس حق تلين قناته. وتهدا نفسه. وعاد يطلب الأمان. وقبل منه أن يدخل مدرسة المسلمين وهو على شركه. إنه يعيش وسط البيئة المسلمة. وهو على شركه وهو على حقه. وجرت حادثة كان من الممكن أن توتر الجو حين جاءه رسول محمد ﷺ.

حيث بعث رسول الله ﷺ يستقرض من صفوان خمسين ألف درهم، وأدراعاً من عنده للحرب فقال: أغصباً يا محمد، قال: لا. ولكن عارية مؤداة. وأدأها رسول الله ﷺ له من غنائم حنين، ولشن كفت المعاملة الطيبة لعكرمة مباشرة في دخوله في الإسلام. لكن صفوان تأخر بعد حنين حتى أسلم يقول رضي الله عنه:

والله ما كان على ظهر الأرض أحد أبغض إلى من محمد، فما زال يعطي من غنائم حنين حتى لم يعد أحد على ظهر الأرض أحب إلى من محمد.

ولشن كان الوثوب لاستقبال عكرمة والأمان والنبي عن سب أبي جهل استطاعت أن تسل حقد عكرمة فيسلم. وكانت غنائم حنين كفيلة بأن تستل حقد صفوان بعد شهرين. فكان لجواب رسول الله عليه ﷺ لسهيل بن عمرو. أعظم الأثر في استلال حقد. وكانت مدرسة سهيل بن عمرو من مدرسة خالد بن الوليد رضي الله عنه. حيث أسلما من خلال الكلمة الطيبة.

كانت كلمة رسول الله ﷺ لخالد: ما مثل خالد يجهل الإسلام، وعقله عقله، ولو جاء إلينا لقدمناه على غيره.

وكانت كلمة رسول الله ﷺ لعبد الله بن سهيل عن أبيه:

من لقي سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فلعمري إن سهيل له عقل وشرف، وما مثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن بنافع.

قال سهيل، كان والله برأ صغيراً وكبيراً.

فخرج وشهد حنيناً وأسلم بالجعرانة.

إن هذا الصبر القليل على هؤلاء القادة الثلاثة. جعلهم يدخلون الإسلام كما قال ابن الزبيري. بعد أن أسلم اللحم والعظام لربهم، ولا يدخلونه خفية أو نفاقاً.

إن الشخصيات العظيمة لا تتقن النفاق، فقد كان بالإمكان أن يموتون طریدین مشردین، حاقدین على الإسلام. لكن عظمة المعاملة النبوية. نقلتهم وهم قادة إلى الصف المسلم ليتبؤوا موقع القيادة فيه. ويكونوا سادة على قومهم يقاتلون بهم أعداء الله. ويسقطون شهداء في المعارك.

لقد مثل هذه الصورة واحد فقط من قادة مكة هو هبيرة بن أبي وهب زوج أم هانه ولم يتراجع عن حقده، ومات في اليمن طریداً على كفره. فماذا يذكر التاريخ عن هبيرة. وأم هانه رضي الله عنها، استطاعت أن تنفذ اثنين من احاتها ليدخلوا في حظيرة الإسلام. ولم تتمكن أن تفعل مع زوجها ذلك.

شيخ مكة: وكان إسلامهم وهم يثون حقدهم على رؤية بلال رضي الله عنه يؤذن فوق الكعبة تقول جويرية بنت أبي جهل وهي تسمع وأشهد أن محمد رسول الله - (قد لعمري رفع لك ذكرك أما الصلاة فسنصلّي . والله لا نحب من قتل الأحبة أبداً . ولقد كان جاء أبي الذي جاء محمدأ من النبوة فردها وكره خلاف قومه) .

عتاب بن أسيد: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم.

الحارث بن هشام: واثکلاه! ليتني مت قبل هذا اليوم : قبل أن أسمع بلاً ينهى فوق الكعبة .

الحكم بن أبي العاص: هذا والله الحدث العظيم، أن يصبح عبد بني جمع على بنية أبي طلحة<sup>(١)</sup>.

سهيل بن عمرو: إن كان هذا سخطاً لله فسيغيره، وإن كان رضي فسيقره.

أبو سفيان بن حرب: أما أنا فلا أقول شيئاً، لو قلت شيئاً لأنخبرته هذه الحصباء. فأن جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبره خبرهم<sup>(٢)</sup>.

(فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: قد علمت الذي قلت ثم ذكر ذلك لهم: فقال الحارث وعتاب: نشهد إنك رسول الله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك).<sup>(٣)</sup>. وهكذا انضم الحارث شيخ بني مخزوم إلى الإسلام ، وهو أخو أبي جهل. وانضم الشاب الفقي عتاب بن أسيد إلى الإسلام كذلك.

لسان مكة: وكان الناطق الرسمي باسم مكة ابن الزبيري الذي أمضى حياته ووطنه شعره ووظفه في حرب محمد ﷺ . وفر إلى اليمن . فأرسل إليه حسان بن ثابت بيت المشهور:

لا تعدمن رجلاً أحلك بنفسه نجران في عيش أحد ليتم وحرّك هذا البيت مشاعر ابن الزبيري ، فتقدم إلى مكة ، حيث كان رسول الله ﷺ يحيى

(١) بنية أبي طلحة: الكعبة ودميت لأبي طلحة نسبة لأبي طلحة بن عبد الدار سادتها.

(٢) امتناع الأسماع ج ١ ص ٣٩٠، ٣٩١

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ٣٠٢

الجلو لقدمه ويقول في صحبه: هذا ابن الزُّبُرِي ومعه وجه فيه نور الإسلام ولا يغيب عن البال  
الشاعر الفحل الآخر، كعب بن زهير الذي فَرَّ هارباً إلى الطائف فجاءته رسالة أخيه المسلم بجير  
بن زهير يقول فيها:

تلوم عليها باطلأً وهو أحزم  
فتنتجو إذا كان النجاء وتسليم  
من الناس إلا ظاهر القلب مسلم  
ودين أبي سلمى علىٰ حرم  
من مبلغ كعباً فهل لك في التي  
إلى الله لا العزى ولا الالات وحده  
لدي يوم لا ينجو وليس بمفلت  
فدين زهير وهو لا شيء دينه  
فلما بلغ كعب الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره  
من عدوه وقالوا: هو مقتول. فلما لم يجد من شيء بدأ قال قصيده التي يمدح بها رسول الله ﷺ وذكر  
فيها خوفه وإرتجاف الوشاة به. ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من  
جهينة، كما ذكر لي، فగְדָא אֶלָי רَسُולُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلَاةِ الصُّبُوحِ فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ثُمَّ أَشَارَ لِهِ إِلَى  
رسول الله ﷺ - فقال هذا رسول الله فقم إليه فاستأمهنـه فذكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ فجلس  
إليه ووضع يده في يده وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال:

يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن  
جئتك به؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال: إذن أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

قال ابن اسحاق : فحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أنه وثب عليه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : دعه عنك فإنه جاء تائباً نازعاً<sup>(١)</sup> .  
وكان مما قاله :

نبئت أن رسول الله أوعدنا  
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة  
إن الرسول لنور يستضاء به  
في عصبة من قريش قال قائلهم  
نسوة قريش : وأسلمت هند بنت عتبة، وأم حكيم بنت الحارث امرأة عكرمة بن أبي  
جهل، والبغوم بنت المعدل امرأة صفوان بن أمية، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وهند بنت منه  
ابن الحجاج أم عبد الله بن عمرو بن العاص في عشرة نسوة من قريش ، فأتين رسول الله صلواته  
بالأبطح ، وعنده زوجاته وفاطمة ابنته ، في نساء من نساءبني عبد المطلب ، فبايعته ولم تمس يده يد

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٦٩

امرأة. (ورويت فيهن هند بنت عتبة وهي متنكرة لأجل صنيعها بمحنة رسول الله ﷺ): أبايعك على أن لا تشركن بالله شيئاً، فباع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً فقال رسول الله ﷺ: ولا تسرقن. فقالت هند: إن أبا سيفيان رجل شحيح. فإن أنا أصبحت من ماله هنأت؟ فقال أبو سفيان: وما أصبحت فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال: وإنك هند؟ قالت: نعم، فأعف عن سلف يا نبي الله، عفا الله عنك فقال: ولا يزنين. فقالت: أو ترني الحرة؟ فقال: ولا يقتلن أولادهن. فقالت: ربناهم صغاراً وقتلتهم بيذر كباراً فأنت لهم أعلم. فضحك عمر حتى استلقى، فتبسم رسول الله ﷺ فقال: ولا يأتين بهتان فقالت: والله إن إيتان البهتان لقبع، وما تأمنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: ولا يعصينك في معروف فقالت: والله ما جلسنا مجلسك هذا وفي أنفسنا أن نعصيك.

ولما رجعت جعلت تكسر صنمتها وتقول: كنا منك في غرور(١).

ها هي مكة بشيوخها وشيوخها ونسائهم وقادتها وشعرائها تدخل في الإسلام؛ أو في أمان رسول الله ﷺ. وحقق النبي عليه الصلاة والسلام هدفه الأكبر بالنسبة لقريش: اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله قريشاً.

وكان عزها في دخولها أفواجاً في دين الله، واستطاع الرسول ﷺ. أن يتتجنب مجزرة فيها فناء قريش كلها من جهة. وأن تدخل قريش كلها في الإسلام. وهذه هي عظمة الجهد السياسي المسلح. الجهاد الذي ينطلق من القوة الضخمة التي تجعل العدو قد أحبط به، فيستسلم على ضوء ذلك.

وهذا هو الفقه الأكبر للنفوس الذي شهدناه من خلال الفتح الكبير. والحركة الإسلامية التي تحمل لواء الدعوة في سبيل الله. لا بد أن تنتقل إلى الخط المسلح الذي يمنع عنها الإبادة من العدو ولكن هذا الأمر لا يتم إلا من خلال خطة متكاملة محددة المراحل، في طبيعة الصراع مع الباطل والطاغوت، وقمة انتصارها حين تصبح قوة مرهوبة الجانب، عندئذ يدخل خصومها معها في حوار، وينتقلون للاعتراف بها كأمر واقع. وكلما استطاعت أن تقدم في مضمار القوة أكبر. كلما استطاعت أن تسمع صوتها أكثر للجميع، واستطاعت أن تجد الأذان الصاغية لها ولدعاتها. ولا يجوز أن تفتتها القوة عن هدفها. بحيث تنسى مهمتها الأولى في أن تكسب الناس جميعاً لهذا الدين الخصوم والأصدقاء على السواء.

ومن الفقه الأكبر كذلك التعرف على نفسيات القيادات والشخصيات الضخمة للعدو. بحيث تتتجنب أسلوب الإرغام والإذلال لها. لأن هذا الأسلوب سيقود هذه الشخصيات إلى الحقد الأسود على الداعية والدعوة، ويوجهها إلى الثأر والانتقام من جهة، أو إلى الممالأة والنفاق

---

(١) الرحيل المختوم عن مدارك التنزيل للنسفي ص ٤٦٠

ثم الكيد والتآمر في الخفاء من جهة أخرى.

وعلى الحركة الإسلامية كذلك أن تعير قضية المرأة اهتماماً كبيراً. فهند بنت عتبة، أشهر الحاقات في التاريخ، هي التي قادت نسوة قريش إلى الإسلام. وبلغ حقدها أن هاجمت زوجها ودعت إلى قتلها حين دعا إلى الاستسلام، ومع ذلك أمكن تفتيت هذا الحقد إذ تقول لرسول الله ﷺ بعد انتهاء البيعة:

والله يا محمد ما كان على ظهر الأرض أحد أحب إليّ من أن يذل من أهل بيتك وخيالك.  
والله ما عاد على ظهر الأرض أحد أحب إليّ من أن يعز من أهل بيتك وخيالك.

فيقول عليه الصلاة والسلام: وأيضاً والذي نفس محمد بيده<sup>(١)</sup>

فلو استطاعت الحركة الإسلامية أن تقنع رائدات الانحراف من النساء بطبعية هذا الدين لامكن أن يحولن المسار كله نحو الإسلام، والاهتمام بالقيم الكبرى التي تقع في أعماق القيادات وتحتفظي وراء بعض المظاهر الخادعة. يمكن أن يساهم مساهمة فعالة في تحقيق الهدف العظيم:

«إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً».



---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٣١٩ عن البهجهي بسنده

## السَّمَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرُهُ إِنْهَاءُ الْجَيْوَبِ الْوَثْنِيَّةِ الْمُتَبَقِّيَّةِ

### أ - هدم الأصنام العربية

وأقام رسول الله ﷺ بعكة تسعه عشر يوماً يجدد معالم الإسلام ويرشد الناس إلى الهدى والتقوى ، وخلال هذه الأيام أمر أبا سيد الخزاعي فجدد أنصاب الحرم . وبث سراياه للدعوة إلى الاسلام ، ولكسر الأواثان التي كانت حول مكة ، فكسرت كلها ونادى مناديه بعكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته شيئاً إلا كسره .

السرايا والبعث : ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزي لخمس ليالٍ بقين من شهر رمضان (سنة 8هـ) ليهدمها . وكانت بنخلة ، وكانت لقرיש وجميع بني كنانة . وهي أعظم أصنامهم . وكان سدنتهما بني شيبان . فخرج إليها خالد في ثلاثين فارساً حتى انتهى إليها فهدمها ، ولما رجع سأله رسول الله ﷺ : هل رأيت شيئاً؟ قال : لا . قال : فإنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها . فرجع خالد متغليضاً قد جرد سيفه ، فخرجت إليه امرأة عربانه سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها . فضربها خالد فجزلها اثنين ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : نعم ، تلك العزي . وقد أیست أن تعبد في بلادكم أبداً .

٢ - ثم بعث عمرو بن العاص في نفس الشهر إلى سواع ليهدمه ، وهو صنم لهذيل برهاط على ثلات أميالٍ من مكة ، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادسون : ما تريده؟ قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه ، قال : لا تقدر على ذلك ، قال : لم؟ قال : تُمنع . قال : حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحلك . فهل يسمع أو يصر؟ ثم دنا فكسره ، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئاً ثم قال لل السادسون : كيف رأيت؟ قال : أسلمت الله .

٣ - وفي نفس الشهر بعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً إلى مناة وكانت بالمشليل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم . فلما انتهى سعد إليها قال له السادسون : ما تريده؟ قال : هدم مناة . قال : أنت وذاك ، فأقبل إليها سعد ، وخرجت امرأة عربانة سوداء ثائرة الرأس ، تدعى بالوليل ، وتضرب صدرها . فقال لها السادسون : مناة دونك بعض عصاتك . فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره . ولم يجدوا في خزانته شيئاً<sup>(١)</sup> .

(١) الرحيق المختوم للمباركفورى ص ٤٦١

٤- ولا رجع خالد بن الوليد من هدم العزى (بعثه رسول الله ﷺ إلى بني جذية داعيًّا ولم يبعه مقاتلًا و معه قبائل من العرب . فوطشوا ببني جذية . فلما رأه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا . فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك : فكثروا ؛ ثم عرضهم على السيف . فقتل من قتل منهم . فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء ، ثم قال : اللهم إني أبرا إليك مما صنع خالد بن الوليد .. ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال : يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم . فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك . فخرج عليٌ حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ . فودي لهم الدماء وما أصيّب لهم من الأموال ، حتى إنه ليدي ميلفة<sup>(١)</sup> الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداء ، بقيت معه بقية من المال ، فقال لهم علي رضوان الله عليه حين فرغ منهم : هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم ؟ قالوا : لا . قال : فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطًا لرسول الله ﷺ ما يعلم ولا تعلمون . ففعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر : فقال أصبت وأحسنت ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائمًا شاهراً يديه حتى إنه ليروى ما تحت منكبيه ، يقول : اللهم إني أبرا إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات . وقد قال بعض من يعذر خالدًا إنه قال : ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبد الله بن حذافة السهمي وقال : إن رسول الله ﷺ أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام :

قال ابن اسحاق : وقد كان جحدهم قال لهم حين وضعوا السلاح ورأى ما يصنع خالد بيني جذية : يا بني جذية ضاع الضرب ، قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه . قد كان بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف فيما بلغني كلام في ذلك . فقال له عبد الرحمن بن عوف : عملت بأمر الجاهلية في الإسلام . فقال : إنما ثارت بأمرك ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : كذبت ، قد قتلت قاتل أبي . ولكنك ثارت بعمك الفاكه بن المغيرة ، حتى كان بيئها شر . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : مهلاً يا خالد دع أصحابي ، فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم انفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي أو روحه<sup>(٢)</sup> .

٥- هدم اللات : فلما فرغوا من أمرهم ، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، في هدم الطاغية ، فخرجا مع القوم ، حتى إذا قدما الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان ، فابن ذلك أبو سفيان عليه وقال : أدخل أنت على قومك وأقام أبو سفيان بماله بذوي الهدم فلما دخل المغيرة بن شعبة

(١) ميلفة الكلب : شيء يخفر من خشب ويجعل ليلغ فيه الكلب

(٢) السيرة لأبن اسحاق ج ٤ ص ٥٤١ - ١٤٨

علامها يضر بها بالمعول ، وقام قومه دونه - بنو معتب - خشية أن يرمي أو يصاب كما أصيب عروة ،  
وخرج نساء ثقيف حسرأً بي يكن عليها ويقلن :

لتبكين دفاع أسلمه الرضاع لم يحسنوا المصاع (١)

ويقول أبو سفيان والمغيرة يضر بها بالفالس : واهأ لك (٢) .

كانت الخطوة الأولى بعد هدم الأصنام بالكعبة هو أن تلاحق الأصنام في الأرض العربية  
كلها وكان هبل الصنم الأعظم بمكة قد تحطم على يدي الرسول ﷺ .

﴿أَفَرَايْتِ الْلَّاتِ وَالْعَزِيزِ ، وَمِنَةَ الْثَالِثَةِ الْأُخْرَى ، الْكَمُ الْذَّكْرُ وَلِهِ الْأَنْثَى . تَلَكَ إِذَا قَسْمَةٌ  
صَبِيزِي﴾ (٣) .

ولقد ارتبطت قدسيّة البيت الحرام ارتباطاً وثيقاً بقدسيّة الأصنام . ولم يكن العربي بعد الله  
تعالى يحلف بصنم إلا باللات والعزي .

وإن كان تأثير اللات بالمدمر عن العزي ومناة كان مرتبطاً بكسر شوكة ثقيف . غير أن  
العزيز كانت أول المقدّسات العربية تحطّيّها بعد أصنام الكعبة . وتلتّها منة بعد ذلك .

وكانت الخطبة النبوية أن يقوم قائداً الفرسان في مكة بهذه المهمة ، خالد وعمرو وأما خالد  
فكانت مهمته إلى العزي ، بينما كانت مهمة عمرو بن العاص إلى سُواع .

وخلال وعمرو للملمات والمهمات الخاطفة الفدائـية . ومن أجل ذلك لم يكن معهما إلا  
بضعة وعشرين فارساً من فرسان المسلمين ، ونجحت المهمتان نجاحاً عظيماً رغم المظاهرـة العنـيفة  
من العـزي ومنـة التي تـظهرـ من تلك المرأة العـارية السـوداء النـاشـرة شـعرـها ، وكان لـتحطـيمـ الصـنم ،  
ومـقتلـ المرأة وـتهاـدمـ بـيتـ السـدانـةـ أـثـرـ ضـخمـ فيـ اـضـمـحـلـالـ قدـسـيـةـ هـذـهـ الأـصـنـامـ . وـكـانـتـ الآـثارـ

(١) المصاع : المضاربة بالسيوف

(٢) السيرة لأبي هشام ج ٤ ص ٤٣١ .

(٣) سورة النجم : ٢٢ - ١٩

الإعلانية لهذه الأحداث . أن اجتثت جذور الوثنية وزلزلت أركانها من القواعد .

لكتنا نلحظ أن منة كانت من نصيب سعد بن زيد الأشهل رضي الله عنه ولم تكن من نصيب خالد وعمرو وسبب ذلك أن منة هي المقدسة عند الأوس والخزرج . فلا بد أن يهدمنها واحد من الأوس والخزرج كما كانت العزى من مقدسات قريش فكان هدمها على يد خالد ، ولا يبعد أن تكون سواع مقدسة عند قوم عمرو أو أقاربه ، ومن أجل هذا كلف بهذه المهمة ، أولعلها من المقدسات عند قريش كذلك .

وهو تخطيط نبوبي واضح . أن يحطم الصنم من كانوا يولونه القدسية والعبادة أكثر من غيرهم ، وهكذا نلحظ أن الذي هدم اللات فيما بعد - صنم ثقيف - هو المغيرة بن شعبة الثقفي . وترافق هذا الهدم مع التوجيهات النبوية العامة في مكة وحولها .

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره)

وليس هذا أمراً سهلاً في الحقيقة فهذه الخطوة من حيث الضخامة والخطورة تقارب فتح مكة وتحطيم تلك الألة المدعاة . ثم تحطيم تلك الأصنام التي تملأ البيوت العربية . تعني هذه الأمور ثورة كاملة على الجاهلية وإزالة معالمها ومحوها مقدساتها من النفوس قبل البيوت وقبل أماكن العبادة وقد استطاع الإسلام حقاً في هذه الخطوات أن يهز الجاهلية في أقل عدد من المخسائر في الأموال والأرواح ، والتي كان بالإمكان أن ترافقها المذابح الجماعية في الأرض العربية .

ولا بد هنا من المقارنة بين خطين كبيرين في العمل الإسلامي في هذه المرحلة .

هذان الخطدان هما : تحطيم الأصنام ، وتحطيم الأشخاص .

فبمقدار ما حرص رسول الله ﷺ على الحفاظ على الأشخاص ، مهما كانت مستويات محاربتهم للإسلام ، ومستويات عقائدهم الوثنية . حرص رسول الله ﷺ على تحطيم كل أثر من آثار الوثنية . حتى ولو كان الصنم الصغير التافه في البيت .

ولم نجد في هذه القضية إطلاقاً مراعاة للنفوس التي قد تثور أو تحقد أو تغضب أو ترتد حين تحطم مقدساتها وتكسر .

وما أحوج الدعاء إلى التفريق بين الخطين حتى في مرحلة القمة ، مرحلة الفتح الأكبر

والنور المبين إننا في لحظة الانفعالات العاطفية . والخط الدعوي الإعلامي كثيراً ما تستعمل هذه المقوله والأشخاص الطغاة الذين يحكمون بغير شريعة الله أصنام يجب أن تحطمت .

والطغاة حين يصررون على الكفر لا بد أن يسقطوا أو يحطموا . هذا لا شك فيه . لكن عظمة الإسلام هو في الاغتيال النفسي لهؤلاء الطغاة وإعادة تركيبهم من جديد على ضوء الإسلام فتكون معاذلة البناء سهلة في هذا المجال ونحن حين نغزو قلوب عظيماء الرجال . وتحتلها بهذا الإسلام العظيم ، تكون قد قطعنا شوطاً كبيراً في مجال الدعوة من خلال البيان القبلي والعشاري الذي يجعل للقبيلة دوراً صخماً في شرائع الجهاد الإسلامي .

فخالد بن الوليد الذي حطّم العزى كان في مرحلة من المراحل من طواغيت مكة . وكان صنّاً يجب أن يحطم على حد مقولتنا الإعلامية العاطفية لكن عظمة الإسلام أن جعلت منه الأداة التي حطمت العزى في الأرض العربية وقل هذا القول بالنسبة لعمرو بن العاص رضي الله عنه الذي كان أحد طواغيت مكة الكبار . وتم على يديه هدم سُواع . وكان من الممكن أن يكون هدف تحطيمه معركة طاحنة . وقل مثل ذلك بالنسبة لأبي سفيان رضي الله عنه الذي كان أكبر الطواغيت في مكة . فلقد كان هدفاً بحد ذاته . ولطالما بعث رسول الله ﷺ من يغتاله ، وشاءت إرادة الله تعالى أن لا ينجح مشروع اغتياله . وبالتالي يدخل ضمن مخطط المهدى النبوى ، فيكون الأداة بعد أشهر فقط في هدم اللات مع المغيرة بن شعبة .

إنها نقلة ضخمة في عالم العظام أن تسير بهم برفق وبعقربيه من الجاهلية إلى الإسلام وتحولهم من هدف للتحطيم إلى أداة تحطم بها معالم الكفر . وبالتالي تفقه الحركة الإسلامية الفرق بين الخطين المذكورين . وبقدر ما تراعي أعماق النفس الإنسانية . وتستلم مفتاحها وتوجد الهز الشعورية التي تنقلها إلى حظيرة الإسلام . وبقدر ما ترمي وراء ظهرك هذه المشاعر جميعاً عند بناء العقيدة وتهديم معالم الكفر ، وعدم إعطاء أي وزن لغضب التفوس من جراء تحطيم معالم الجاهلية وكان أقصى حد من التساهل في هذا المجال هو أن يعفي رسول الله ﷺ القوم من هدم أصنامهم بيدهم ، دون أن يكون تأجيل الهدم موضع مساومة ، وأنت قادر على ذلك .

لكن هذا لا يمنع أبداً من القول : إن هذا المبدأ لم يكن هو المبدأ السائد في كل المراحل ونستطيع أن نلاحظ الموقف من الأصنام إنه قد مرّ بمراحل متعددة :

أولى هذه المراحل : يوم نهى الإسلام عن سب هذه الأصنام . وكان هذا في مرحلة البناء الأولى في مرحلة تأسيس الدعوة .

﴿ وَلَا تُسِبُّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيُسِبُّو اللَّهَ عَدُواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (١) .

وهذه المرحلة لا ترتبط بزمن وهي بالنسبة للحركة الإسلامية تنتد طالما أن الحركة الإسلامية غير قادرة على مواجهة الكفر بشيء يوم يُسْبِّ اللَّهُ تَعَالَى ولا تستطيع أن تحول دون ذلك .

والثانية في مرحلة تأسيس الدولة : وينتظر الأمر هنا من داخل الدولة إلى خارجها . فداخل حدود الدولة الأصل أن تزول معالم الوثنية منها . أما إذا اشتركت في سلطانها أكثر من جهة يمكن أن تبقى هذه الأصنام دون أن يشارك المسلمين في تقديسها . فمنة مثلاً لم يهدم قبل فتح مكة . وكانت تشتهر في تقديسه الأوس والخزرج وغسان ، وإذا كان الأوس والخزرج قد أنهى تقديسها عندهم بعد الإسلام . لكن اشتراك غسان في تقديسها ، وغسان ذات شوكة ضخمة ، ومرتبطة مع الروم بتحالفات مصرية . أجلت عملية الهدم إلى فتح مكة .

والثالثة في مرحلة تأمين الدولة . وينتظر الأمر في مرحلة التمكين بين حق المشاركة وحق السيادة فحق المشاركة الذي قام من خلال معاهدة الحديبية والذي حدد تنفيذه بعد عام كامل وذلك حيث تختلط معالم الوحدانية بمعالم الشرك . وحيث يقدر المسلمون أن يمارسوا شعائر الإسلام دون أن يشاركون في شعائر الشرك . كما هو الأمر في عمرة القضاء . وطاف المسلمون حول البيت الحرام . دون أن يحقق لهم التدخل في آلية المشركين

ونلاحظ المرحلية حتى في مجال المشاركة إذ تبدأ كما قلت بعد عام من المعاهدة وأما عند حق السيادة فالاصل إلغاء الوجود الوثني كله . منها كانت النقوس ضعيفة وذلك الموقف الذي نشهده الآن بعد فتح مكة .

ويحضرني من خلال الواقع العملي . قضية الإذاعة . التي عانت منها بعض فصائل الحركة الإسلامية المسلحة إذ كانت المصلحة تقتضي فتح صوت إسلامي في هذه الإذاعة يرافقها أصوات غير إسلامية تمثل التيار القومي . وكانت المرحلة الأولى لهذه الإذاعة أن استلمت ركتنا محدداً بزمن محدد بث منه فكرها الإسلامي دون أن يكون لها علاقة بما تبثه الإذاعة القائمة أما عندما وجدت الحركة الإسلامية نفسها مضطرة للاشتراك مع حلفائها بهذا الصوت الإذاعي ، تحت راية واحدة فكان لا بد لها أن تحافظ على تميزها في بثها المتشر في الإذاعة كاملة من حيث يظهر التميز في نشيدها الذي يمثل فكرها ، ولا بد من خطوة ثانية تقتضي . الإشراف على البث كله طالما أنه يبرز تحت

رأية واحدة حتى لا يخالف الإسلام في الحدود الممكنة . والدعاة بحاجة إلى فقه هذا التدرج مرحلة عقب مرحلة حكومة بالقوة التي تملكتها الحركة الإسلامية والقدرة على الانتقال إلى الموقف الأفضل مع القوة الأفضل . ونرجوء المرحلة الأخيرة لما بعد سورة براءة .

وفي الحديث عن سيرية خالد رضي الله عنه إلى بني جذيمة تبرز معانٍ جديدة متعددة . فمن هذه المعاني أن خالداً رضي الله عنه قد نجح أعظم نجاح بصفته قائداً حربياً في مؤتة وفتح مكة ، وهم العزي . نجده فشلاً ذريعاً بصفته داعية إلى الله تعالى . وطغى الجانب الحربي على الجانب الدعوي عنده ، وكانت تجربة قاسية له ولا شك ولما يمر على إسلامه سنة كاملة وبالتحديد خلال الأشهر الثمانية الأولى من إسلامه .

لقد كانت بوادر هذا الإندفاع ظاهرة في فتح مكة حيث قاتل المشركين . ورسول الله ﷺ قد نهى عن القتال ، وحوسب على ذلك فقال : (جامني فلان فأمرني أن أقتل من قدرت عليه . فارسل إليه ألم أمرك؟ قال : أردت أمراً وأراد الله أمراً فكان أمراً الله فوق أمرك وما استطعت إلا الذي كان) (١) . وفي رواية أنه أقسم ما قاتل حتى قوتل .

و قبل رسول الله ﷺ عذره لكن الخطأ في بني جذيمة كانت ضخمة . وذات أثر سيء جداً في الصفة العربية الذي ينظر إلى المسلمين على أنهم القدوة العليا في الأرض ، وعلى اختلاف الروايات . فلا نجد رسول الله ﷺ هنا يغفر لخالد ، بل يرفع يديه إلى السماء متوجهاً إلى القبلة ويقول : اللهم إني أبراً إليك مما صنع خالد بن الوليد . (قامها ثلاثة) .

وصورة الأمر حين يتشرّد يعني أن لا عهد للمسلمين مع خصومهم ، وأنه ليس أمام هؤلاء الخصوم إلا المقاومة أو الإسلام . ورسول الله ﷺ بعث خالداً داعياً ولم يبعثه مقاتلاً ودون الخوض في التعليقات التي سبقت واختلاف الروايات فيها . فمما لا شك فيه أن مقتل الكثير من بني جذيمة يخالف التوجيه النبوي خالفة تامة ، واحتمال أن تكون هذه النفوس السبعون أو أكثر قد قتلت ظلماً بعد الإسلام هو احتمال قوي كما تذكر بعض الروايات الصحيحة والذي يزيد في المسؤولية أن هناك من احتاج احتجاجاً شديداً على قتلهم . وأهم من احتاج على ذلك عبد الله بن عمر ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وعبد الرحمن بن عوف ، حتى كاد يكون بينهم شر . وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أن عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه هو الذي أمر خالداً بذلك . وكان ألم رسول الله ﷺ المأعظي من هذه التبيجة . وحاول أن يستدرك الأمر بعلي رضي الله عنه الذي لحق ببني

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٩٧

جذيمة فأوقف القتل ، ودفع دية جميع القتلى بلا استثناء ، وعوض عن جميع الخسائر المادية حتى مبلغ الكلب .

ومن هذه المعاني ، الدرس القاسي الذي لقنه رسول الله ﷺ خالد ، حين أعلن براءته مما عمله على مستوى الملا ، هذا بالنسبة له . لكن حرصه عليه الصلاة والسلام على الحفاظ على ما تبقى من الدماء درس آخر علني في تسفيه سلوك خالد وخطئته على الملا منبني جذيمة .

ومن طرف ثالث . وضع خالد رضي الله عنه ضمن حدوده حين يتجاوز على أمثال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو من السابقين الأولين من المهاجرين .

إن هذه النفسية العظيمة التي كانت تجد الأمجاد أمامها مجدًا بعد مجد . لا بد لها حين تخطى ، من أن تُفكك عن خطتها . وتطامن من كبرياتها ، فتبقى هذه التجاوزات محاطة بسياج الإسلام يردها عندما ت يريد الجموح لقد كانت كلمة رسول الله ﷺ خالد ، أقسى من أي درس تلقاه في حياته . درس في التربية . يتلقاه القائد العظيم . ليتعلم أصول الدعوة وطريقها . وذلك حين قال له عليه الصلاة والسلام : دع عنك أصحابي . فلو أنفقت ملء أحد ذهباً ما بلغت مد أحدهم ولا نصيفه . وفي رواية : ما أدركت غدوة رجل من أصحابي أو روحته .

كان لا بد لهذه المعاني أن تطرق ذهن القائد العظيم وهو يتلقى دروس التربية في مدرسة النبوة . فذكر الغدوة والروحـة لا بد من الإشارة إليه ، وكل علاقة خالد بالجهاد لم تبلغ بعد ثلاث معارك خلال ثمانية أشهر فكيف يغيب عن ذهنه جهاد عشرين عاماً أو تزيد في صحيفة عبد الرحمن رضي الله عنه هذا من جهة ، ومن جهة ثانية . فلذا ذكر جبل أحد معنى ذو مذاق خاص ، لا يدرك مذاقة المر مثل خالد بن الوليد رضي الله عنه . فهو بطل أحد ، وهو الذي حارب رسول الله ﷺ في تلك المعركة في الوقت الذي كان عبد الرحمن بن عوف واحد من خمسة يذودون عن رسول الله ﷺ وناله أكثر من عشرين جراحة . فكيف يستويان ؟

وفي الوقت الذي كان خالد رضي الله عنه يحمل على كتفيه وسام موتة وهو من أعلى الأوسمة العسكرية على الإطلاق . لكن هذا لا يعفيه من المسؤولية ، ولا يبيح له قتل كثير من المسلمين دون ثبت . فكان هذا الدرس من أعظم الدروس التربوية التي تلقاها خالد في حياته رضي الله عنه . فقهه منه أن الحرب ليست للحرب . كما هي الحال في تاريخه العسكري لعشرين عاماً خلت ، وفقه منه أنه داعية قبل أن يكون قائداً حرب ممتاز ، وفهم منه أن استلامه الموقع الأول في القيادة لا يعني أن هذا يعطيه حق التعلـي على الآخرين ، أو أنه غداً خيراً منهم . بل لا يحق له أن يقارن نفسه مع الجيل الأول من المجاهدين ومع الرعيل الأول منهم .

ومن المعاني التي تبرز من خلال هذه السرية حرکة الرسول ﷺ العجيبة التي جعلته يتدارك

الأمر قبل فوات الأوان . وحين تقارن هذه الحركة مع الحركة القائمة للجماعة الإسلامية يكاد يصيّبنا الذهول والألم للبون الكبير بين الحركتين . مع توفر وسائل المواصلات اليوم . وفي العمق النفسي الذي سلكه رسول الله ﷺ و اختياره علياً بالذات بصفته المثل الشخصي له فهو أخوه وابن عمّه كي يطمئن الناس إلى الموقف الصحيح الذي عالج الخطأ . بهذه الحكمة حتى ليدي ميلحة الكلب ، ويوزع الباقي على بني جذية لشلّج صدور الناس .

من جديد ، ويسعى هذه اليد الحانية تلك المجزرة الضخمة . ولا أدل على التعبير عنها مما رأه رسول الله ﷺ في نومه إذ قال :

(رأيت كأني لقيت لقمة من حيس<sup>(١)</sup>، فالتذذت طعمها ، فاعتراض في حلقي منها شيء حين ابتلعتها فأدخل على يده فترعرعه . فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله هذه سرية من سراياك تبعثها . ف يأتيك منها بعض ما تحب ، ويكون في بعضها اعتراض فتبعد عنّي فيسهله)<sup>(٢)</sup> . ولعل الشيء الأخطر الذي أنقذه على رضي الله عنه هو سمعة المسلمين ، وذلك حين يتناقل الناس النباء إن المسلمين يغدرُون ، وإنهم سيذبحون كل من يعادهم حتى لو دخل في الإسلام . فانتشار هذه القالة دون أن ينتشر معها ذلك التصحح المباشر الذي يلف الخطأ ويزيل آثاره سوف يقف سداً ذريعاً بين الناس وبين الإسلام .

وهذا الدرس يعني أن كرامة الحركة فوق كرامة الأشخاص ، وسمعة الدعوة فوق سمعة الأشخاص وأن يُشرح خطأ خالد علينا . على ما فيه من قساوة على خالد . هو أمر من مصلحة هذه الدعوة التي لا يجوز لها أن تفوت في ذرة من سمعتها على الإطلاق .

ومن أجل إرضاء النفوس يبذل المال كلّه ، ولو تجاوز حدود الصلاحيات المتاحة ضمن المدف العام الذي تتحرك القيادة من أجله وهو تطبيب النفوس ، وإعادة الثقة فيها من جديد .

ومن المعاني السابقة المذكورة إلى المعنى الأخير الخطير . هذا المعنى ، هو قيمة الداعية المجاهد . وقبل أن نمضي بعيداً في هذا المعنى نقف مع هذه اللمحات والخطارات في واقع الحركة الإسلامية من خلال بعض الأمثلة التي توضح الفرق بين هذا الواقع وبين الأفق الوسيء الذي تدعونا السيرة النبوية إليه .

١ - ذات مرة وقع أخ من صفوف الحركة الإسلامية أسيراً بيد حليف هذه الحركة . وخلفاً أو إهمالاً أو غدر تم تسليم هذا الأخ إلى يد العدو . فأدّت هذه القضية في صف هذه الحركة إلى توبيخ

(١) حيس : إن يختلط السمن والتمر والإقط فبؤكل

(٢) السيرة لابن هشام ج٤، ص٤٢٩

يحصر الأمر ضمن الخطية . بل زعزع ثقة الجنود بكل القيادة . وأشار بعض المفترضين فيها بأصابع الإثام إلى خط الجماعة كله ، ووصمها البعض بالغباء والتواطؤ . ولا شك أن الحاذقين تكروا من إثارة هذا الجو وتبعية النفوس في هذا المسار . لأن هذا التسلیم عرض العديد من الشباب للخطر .

٢ - ألقى آخر مسؤول ذات مرة كلمة حاسمة في الإذاعة المخصصة للحركة الإسلامية ، فثار الشباب المتحمس ضده في اليوم الثاني . واتهمه بأنه يريد أن يذبح أسرى هذه الحركة الموجودين في صفوف العدو ، وراح الحماس يلعب دوره حتى اتهمه بمسؤوليته عن قتل ستة آلاف شهيد نتيجة تلك الكلمة المذاعة ، علىَّا بأن الشهداء سقطوا قبل هذه الكلمة . وأضحت المطالبة بإقصائه ومحاكمته وقتله .

٣ - حدث في الإذاعة التي شتركت بها الحركة الإسلامية أن أخطأ بعض الإخوة وأدخل مقطوعة موسيقية ضمن برنامج إسلامي ، فقامت القواعد ولم تقدر . متهمة القيادة بالانحراف عن الإسلام ، ويُبَأَّن هذه القيادة غدت أداة في يد العدو . تهادن في دين الله ، وتستحلل الحرام ، وتعلن القواعد فقدان ثقتها النهائية بالقيادة لأن بعض أفرادها مسؤول عن مراقبة البرامج مع عدد من الإخوة وقبل هذا الحرام .

ذكرت هذه النماذج الثلاثة . ولا أقول إن القواعد جميعها تسلك هذا السبيل . إنما يوجد بعض الشباب الذين يشرون هذه الاتهامات وتجدد أذنَا صاغية لهذا البهتان ، وتضخم الخطأ ، وتحويله إلى انحراف كامل بالحركة .

وهذه النماذج الثلاثة أضعها بين يدي حادثةبني جذيمة ، وكيف أعمل خالد رضي الله عنه السيف بالأسرى بعد أن أمنُهم أو بعد إعلان إسلامهم رغم المعارضة العنيفة لهذا التصرف من كبار المهاجرين . ورأينا خطورة هذه القضية التي اقتضت إعلان البراءة مما فعله خالد رضي الله عنه أمام الصحابة جميعاً ، ثم كف يده عن القتل بأمر رسول الله ﷺ ودية من تمت إبادتهم .

خطأً أودى بأرواح سبعين أو أكثر من بنى جذيمة وقضوا خطأً بعد إسلامهم . وماذا جرى بخالد بعد هذا الدرس النبوى القاسي ٩٩

لقد بقي خالد رضي الله عنه في مركزه وبعد أقل من عشرين يوماً . خاض غزوة حنين ، وهو يوقفه نفسه قائد خيالة المسلمين . كما يقول المقريزي : وبقيت سليم كما هي في مقدمة الخيل وعليهم خالد بن الوليد<sup>(١)</sup> .

---

(١) امتناع الأسماع ج ١ ص ٤٠٥

فالخطأ الذي أخطأه ابن الوليد رضي الله عنه ، لم يحرقه ، ولم يقض عليه ، ولم يعزله ، ولم ينل من كفاءته وطاقته . إنما أعمل خطأه . وسمع التأنيب الضروري ، وتلقى الدرس التربوي المناسب وتابع مهمته في موقعه نفسه في القيادة دون أن يشهر به ، أو يستغنى عنه . بل نهى المسلمين بعد الخطأ ذاك من الاسترسال في النقد . وطلب منهم الكف عن الحديث في هذا الأمر وقال : (لا تسبوا خالداً فإنه سيف من سيف الله . سله الله على المشركين) (١) .

ونخلص من هذا الدرس الأخير إلى أن خطأ الأخ سواء كان في القيادة أو في القاعدة . لا بد أن يعالج المعالجة المناسبة ، ويحاسب على خطئه لكن هذا لا يقتضي إسقاطه أو عزله ، أو التخلص منه والتخلص عن طاقاته وإمكاناته ومواهبه . والجماعة الحكيم هي التي تحافظ لا على قيادتها فحسب بل على أصغر جندي من جنودها ، والفرق كبير جداً جداً بين محاسبة المخطئ في الحدود الالزمة وبين الاجهاز عليه ، وما يوم بني جذيمة بسر .

### بـ-غزوة حنين

الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين : وفي يوم السبت السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ ، غادر رسول الله ﷺ مكة ، وكان في إثنى عشر ألفاً من المسلمين عشرة آلافٍ من كانوا خرجوا معه لفتح مكة ، وألفان من أهل مكة ، وأكثرهم حديثوا عهد بالإسلام ، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بآداتها ، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد . ولما كان عشية جاء فارس فقال : إني طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله . وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبي مرثد الغنوبي .

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سدرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواع . كما لهم ذات أنواع فقال : الله أكبر . قلتـمـ والـذـيـ نـفـسـيـ بـيـدـهـ . كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهـاـ كما لهم آلهـةـ . قال : إنكم قوم تجهلون . إنها السنن ، لتركين سنن من كان قبلـكـمـ . وقد كان بعضـهمـ قال : نظراً إلى كثرة الجيش : لن نغلبـ اليـومـ . وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ .

الجيش الإسلامي يُباغت الرماة والمهاجرين : إنـهـ الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال ، وكان مالك بن عمـوفـ قد سبقـهمـ فأدخلـجيـشهـ بالليلـ في ذلكـ الواديـ ، وفرقـ كـمنـاهـ فيـ الطـرقـ والمـداـخلـ . والـشعـابـ والأـخـباءـ والمـضاـيقـ . وأـصدـرـإـلـيـهـمـ أمرـهـ بـأنـ يـرـشـقـوـ الـمـسـلـمـينـ أـوـلـ ماـ طـلـعـواـ ، وـيـشـدـوـ شـدـةـ رـجـلـ وـاحـدـ .

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٤٠٠

وبالسحر عبّا رسول الله ﷺ جيشه ، وعقد الالوية والرايات ، وفرقها على الناس ، وفي عملية الصبح استقبل المسلمين وادي حنين ، وشرعوا ينحدرون فيه ، وهم لا يدركون بوجود كمناء العدو في مضائق هذا الوادي . فبينا هم ينحطون إذا تُمطر عليهم النبال ، وإذا كثائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد . فانشمر المسلمون راجعين ، لا يلوي أحد على أحد ، وكانت هزيمة منكرة .. وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول : هلموا إليني إليها الناس ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته وحيثنا ظهرت شجاعة النبي ﷺ التي لا نظير لها فقد طفق يركز بغلته قبل الكفار وهو يقول : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب .

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذًا بلجام بغلته والعباس بر kabeh يكفانها أن لا تسرع ثم نزل رسول الله ﷺ فاستنصر ربه قائلاً : اللهم أنزل نصرك .

رجوع المسلمين واحتدام المعركة : وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي الصحابة قال العباس : فقلت بأعلى صوتي : أين أصحاب السمرة؟ قال : فوالله لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها . فقالوا : يا ليك يا ليك . ويدهب الرجل ليثني بيده فلا يقدر عليه فيأخذ عليه درعه . فيقذفها في عنقه . ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بيده ، ويخلِّي سبيله ، فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع إليه مائة استقبلوا الناس واقتتلوا .

وصرفت الدعوة إلى الأنصار ، يا معاشر الأنصار ، يا معاشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة في بني الحارث بن الخزرج ، وتلاحت كثائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة . وتجاذد الفريقان بجالدة شديدة ، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال ، وقد استحر واحتدم ، فقال : الآن هي الوطيس . ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض ، فرمى بها في وجوه القوم : وقال : شاهت الوجوه . فيما خلق الله إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة فلم يزل حدهم كليلًا ، وأمرهم مدبراً .

انكسار حدة العدو ، وهزيمته الساحقة : وما هي إلا ساعات قلائل - بعد رمي القبضة - حتى انهزم العدو هزيمة منكرة وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين ، وحاز المسلمون ما كان على العدو من مال وسلاح وظعن . وهذا هو التطور الذي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله : (وَيَوْمَ حَنِينٍ إِذَا أَعْجَبْتُمْ كُثُرَتُمْ . فَلَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ لَيْسَ مَدْبِرِينَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ . وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرُوهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ) .

حركة المطاردة : ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى العطائف ، وطائفة إلى نخلة ،

وطائفة إلى أوطاس، فأرسل النبي ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر الأشعري، فناوش الفريقيان القتال قليلاً، ثم انضم جيش المشركين، وفي هذه المباشة قُتل القائد أبو عامر الأشعري. وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة. فأدركه دريد بن الصمة فقتله ربيعة بن رفيع. وأما معظم فلول المشركين الذين لجؤوا إلى الطائف فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم.

**الغنائم** : وكانت الغنائم : السبي ثلاثة آلاف رأس ، والابل اربعة وعشرون ألفاً والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، أمر رسول الله ﷺ بجمعها ثم حبسها بالجعرانة ، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري ، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف . وكانت في السبي الشيماء بنت الحارث المسعدية ، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة فلما جيء بها إلى رسول الله ﷺ عرفت نفسها فعرفها بعلامة فأكرمتها ، ويسط لها رداءه وأجلسها عليه ، ثم منّ عليها ، وردها إلى قومها .

**غزوة الطائف** : وهذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين ، وذلك أن معظم فلول هوازن وثيف دخلوا الطائف مع القائد العام - مالك بن عوف النصري - وتمصنوا بها ، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة في نفس الشهر . شوال سنة 8 هـ وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة من ألف رجل ، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف فمر في طريقه على النخلة اليمانية ، ثم قرن المنازل ، ثم على لية ، وكان هناك حصن مالك بن عوف فامر بهدمه ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف . فنزل قريباً من حصنه ، وعسكر هناك ، وفرض الحصار على أهل الحصن ودام الحصار مدة غير قليلة ففي رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً ، وعند أهل السير خلاف في ذلك فقيل عشرين يوماً ، وقيل بضعة عشر ، وقيل ثمانية عشر ، وقيل خمسة عشر . ووقدت في هذه المدة مراومة ومقاذفات . فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رمياً شديداً كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجرحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم ، فعسكروا هناك .

ونصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف ، وقدف به القذائف ، حتى وقعت شرخة في جدار الحصن . فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة ، ودخلوا بها إلى الجدار ليخرقوه . فأرسل عليهم العدو سكل الحديد المحمامة فخرجوا من تحتها ، فرمونهم بالنبل ، وقتلوا منهم رجالاً .

وأمر رسول الله ﷺ كجزء من سياسة الحرب لإجحاء العدو إلى الاستسلام - أمر بقطع الأعناب وتحريقها ، فقطعها المسلمون قطعاً ذريعاً ، فسألته ثيف أن يدعها لله والرحم . فتركها لله والرحم . ونادي مناديه ﷺ : أيها عبد نزل من الحصن ، وخرج علينا فهو حر ، فخرج إليهم ثلاثة

وعشرون رجلاً فيهم أبو بكر - تسرّ حصن الطائف وتدلّ منه بيكرة مستديرة يستقي عليها . فكناه رسول الله ﷺ أبا بكة ، فأعترضهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يموئنه . فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة ، ولما طال الحصار واستعصى الحصن ، وأصيب المسلمين بما أصيوا من رشق النبال ، ويسلك الحديد المحمامة . وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة - استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الدولي فقال : هم ثعلب في حجر - ان أتمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يغريك ، وحيثند عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل ، فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس : إنما قافقلون غداً إن شاء الله ، فثقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ فقال رسول الله ﷺ : أغدوا على القتال ، فغدوا فأصابهم جراح فقال : إنما قافقلون غداً إن شاء الله ، فسروا بذلك وأذعنوا ، فجعلوا يرحلون .. ورسول الله ﷺ يضحك ، ولما ارتحلوا واستقلوا قال : قالوا : آبيون تائيون ، لربنا حامدون .

وقيل يا رسول الله ادع على ثقيف ، فقال : اللهم اهد ثقيفاً وئت بهم .

وفد ثقيف : كانت وفادتهم في رمضان سنة ٩ بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك ، وأسلمت ثقيف .

وفد هوازن : وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً وهم أربعة عشر رجلاً

لم يكن يكفي سقوط معقل الوثنية - مكة لانتهاء المقاومة المسلحة ، فالقبائل المجاورة من هوازن وثقيف لا تزال مركزة قوة ضخم ، وتشكل خطرًا على الوجود الإسلامي كله . ومن أجل هذا كانت خطة النبي ﷺ تتجه إلى إنهاء كل الجيوب الوثنية المتبقية ، وهي ذات قوة ضاربة فعالة .

وحيث أن التربية جزء أساسي من حياة الفرد المسلم والجماعة المسلمة ، وحيث أن هذا التجمع الجديد الذي وصل تعداده إلى إثنى عشر ألف مقاتل ، لم تتع له فرصة التميص المناسب ، ولم تصهره المحنّة بعد ، إذ تم دخول مكة دون قتال يذكر . فهذا يعني أن هذا الجيش الذي يزيد في أكثر من نصفه من حديثي عن عهد بالاسلام . فكانت المحنّة سيراً لهذه النفوس .

لقد أثر هذا الحشد الضخم على أعصاب المسلمين ، ورأوا هذه الأعداد الهائلة ، فيقول قائلهم : لن نغلب اليوم أو يقول عليه الصلاة والسلام : لن يغلب إثنا عشر ألف عن قلة . فالامر في التبيّحة واحد . هو أن التجمع الذي لا تصهره التربية . يصعب عليه أن يتصرّ ، وهذا ما نزل بال المسلمين يوم حنين .

(لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرةكم فلم تعنكم شيئاً  
وضاقت عليكم الأرض بما رحب . ثم وليت مدبرين ) (١) .

(١) سورة التوبه : ٢٥

وفي لحظة من لحظات الضعف البشري بالاعتماد على الأسباب المادية والثقة بها، يأتي التأديب الرباني لينال الجماعة المسلمة كلها وهذا التأديب يتناسب مع طبيعة الخطأ الذي ترتكبه هذه المجموعة.

ومن خلال المحنّة والإبتلاء . يتم انصهار هذا التجمع ليتحول إلى جماعة .

وكان الابتلاء الرباني في هذه المعركة ذي محورين .

المحور الأول في الضراء . حيث كانت هزيمة حنين الأولى ، وعدم نجاح حصار الطائف .

المحور الثاني في السراء . وذلك من خلال غنائم حنين .

فلقد أعدَ المسلمين من الأسباب المادية ما يفوق الإعداد في آية معركة . وكان قوام الجيش إثني عشر ألفاً . وكانت الأسلحة متوفّرة كذلك ، ومن أحدث أنواع الأسلحة . كان رسول الله ﷺ قد غنمها من اليهود في خيبر . فقد كان عند المسلمين المنجنيق والدبابة ولأول مرة في تاريخ حروبهم كانوا يمتلكون ذلك . واستعمار رسول الله ﷺ مائة درع من صفوان بن أمية .

هذا من حيث الإعداد المادي . الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الجيوش الإسلامية لكن هذا التجمع الإسلامي لا يزال في صفوفه الكثير من دخل في الإسلام وهو في قمة النصر . ورأى أن المسير في الاتجاه الإسلامي يعني نصراً مستمراً وغنائم ضخمة . فكان لا بد من هزة حنين .

وبعث رسول الله ﷺ استطلاعه الجيد قبل المعركة . وشاءت إرادة الله تعالى أن لا يرى ذلك الاستطلاع كمائين العدو المنبعثة في جميع شعاب الجبل . وكانت المعركة .

وحيث يقرأ المسلم أحداث هذه المعركة يذهله الخبر . فالمجوم المbagt من هوازن فقد الجيش المسلم كله توازنه ، حتى القاعدة الصلبة . فقدت توازناها ، ولاذت بالفرار من هول المفاجأة . ولم يسبق لهذه القاعدة الصلبة أن اهتزت هذا الاهتزاز في تاريخها كله إلا يوم أحد .

ومع هول المفاجأة . فـُ الجيش الإسلامي كله ، ولم يثبت مع رسول الله ﷺ إلا بضعة عشر رجلاً وكانوا فريقين :

الفريق الأول : أقرباؤه الأدرين . العباس بن عبدالمطلب ، والفضل بن العباس وربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب .

وهذه نماذج جديدة على الساحة ورغم دخولها الجديـد في الإسلام ، لكنـها لم تـتراـجـع خطـوة واحدة بـجـوار رسـول الله ﷺ .

الفريق الثاني: وهم الخمسة الأولى للدعوة. أبو بكر، عمر، عثمان، علي، أبو دجانة. كما بـرـز فـرـيق ثـالـث من الشـابـاتـ هـمـا: أـمـينـ بنـ عـبـيدـ الـخـزـرجـيـ ، وأـسـامـةـ بنـ زـيدـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـاـ .

وـبـرـز فـرـيق رـابـعـ منـ النـسـاءـ هـنـاـ: أمـ سـلـيمـ بـنـتـ مـلـحـانـ ، هيـ يـوـمـثـدـ حـاـمـلـ بـوـلـدـهـاـ عـبـدـالـلـهـ بـنـ أـبـيـ طـلـحـةـ ، وـأـمـ عـمـارـةـ بـنـتـ كـعـبـ ، وـأـمـ سـلـيـطـ وـأـمـ الـحـارـثـ .

ولا يـبعـدـ أنـ يـكـونـ هـنـاكـ قـتـالـ ضـارـ فيـ مـكـانـ آـخـرـ . غيرـ أنـ هـذـهـ المـجـمـوعـةـ الفـدـائـيـةـ بـقـيـتـ حـولـ رسـولـ اللـهـ ﷺـ .

وـحـينـ يـكـونـ الصـفـ المـسـلـمـ فـيهـ مـنـ يـفـكـرـ بـقـتـلـ رسـولـ اللـهـ ﷺـ . يـعـنيـ أنـ التـرـبـيـةـ لـمـ تـشـملـ كـلـهـ بـعـدـ . وـيـحـدـثـنـاـ أحـدـ المـغـامـرـينـ شـيـبـةـ بـنـ عـثـمـانـ بـنـ أـبـيـ طـلـحـةـ . عنـ هـذـهـ الـلـحظـاتـ مـنـ الـأـزـمـةـ فـيـقـولـ: (لـمـ رـأـيـتـ النـبـيـ ﷺـ غـزـاـ مـكـةـ فـظـفـرـ بـهـاـ وـخـرـجـ إـلـىـ هـواـزـنـ) . قـلـتـ: أـخـرـجـ لـعـلـيـ أـدـرـكـ ثـارـيـ . وـذـكـرـتـ قـتـلـ أـبـيـ يـوـمـ أـحـدـ وـعـمـيـ . فـلـمـ اـنـهـزـمـ أـصـحـابـهـ جـتـهـ عـنـ يـمـيـنـهـ . فـإـذـاـ العـبـاسـ قـاـمـ عـلـيـهـ درـعـ بـيـضـاءـ كـالـفـضـةـ ، فـقـلـتـ، عـمـهـ! لـنـ يـخـذـلـهـ! ثـمـ جـتـهـ عـنـ يـسـارـهـ ، فـإـذـاـ بـأـيـ سـفـيـانـ بـنـ الـحـارـثـ فـقـلـتـ: اـبـنـ عـمـهـ لـنـ يـخـذـلـهـ . فـجـتـهـ مـنـ خـلـفـهـ ، فـلـمـ يـقـ إـلـاـ أـنـ أـسـوـرـهـ<sup>(١)</sup> ، بـالـسـيـفـ إـذـ رـفـعـ لـيـ فـيـهـ بـيـنـهـ وـبـيـنـهـ شـوـاظـ مـنـ النـارـ كـأـنـهـ بـرـقـ ، وـخـفـتـ أـنـ يـمـحـشـيـ<sup>(٢)</sup> ، فـوـضـعـتـ يـدـيـ عـلـىـ بـصـرـيـ وـمـشـيـتـ الـقـهـقـرـيـ فـالـفـتـ إـلـىـ وـقـالـ: يـاـ شـيـبـ! أـدـنـ مـنـيـ أـفـوـضـعـ يـدـهـ عـلـىـ صـدـرـيـ وـقـالـ: اللـهـمـ اـذـهـبـ عـنـهـ الشـيـطـانـ . فـرـفـعـتـ رـأـيـيـ إـلـيـ وـهـوـ أـحـبـ إـلـيـ مـنـ سـمـعـيـ وـبـصـرـيـ وـقـلـبـيـ ثـمـ قـالـ:

يـاـ شـيـبـ قـاتـلـ الـكـفـارـ! فـتـقـدـمـتـ بـيـنـ يـدـيـهـ أـحـبـ وـالـلـهـ أـقـيـهـ بـنـفـسـيـ كـلـ شـيـءـ . فـلـمـ اـنـهـزـتـ هـواـزـنـ وـدـخـلـتـ عـلـيـهـ ، فـقـالـ: الـحـمـدـ لـلـهـ الـذـيـ أـرـادـ بـكـ خـيـرـاـ مـاـ أـرـدـتـ ثـمـ حـدـثـيـ بـمـاـ هـمـتـ بـهـ<sup>(٣)</sup> .

وـهـذـهـ الـظـاهـرـةـ الـتـيـ حـالـتـ دـوـنـ شـيـبـ وـقـتـلـهـ لـلـنـبـيـ ﷺـ كـانـ ظـاهـرـةـ عـامـةـ . فـلـمـ تـرـ هـواـزـنـ أـنـ الجـيـشـ الـاسـلامـيـ قدـ فـرـأـ وـلـمـ يـقـ منهـ إـلـاـ بـضـعـةـ عـشـرـ . لـقـدـ جـاءـ المـددـ الإـلهـيـ مـباـشـرـةـ . وـنـزـلتـ الـمـلـائـكـةـ

(١) تـسـورـ الـخـاطـطـ: عـلـاهـ يـرـيدـ أـنـهـ لـمـ يـقـ شـيـءـ ، إـلـاـ أـنـ اـرـتـفـعـ إـلـيـهـ فـأـعـلـوـهـ فـأـخـذـهـ بـالـسـيـفـ

(٢) مـحـشـيـتـ النـارـ: أـحـرـقـتـ جـلـدـهـ حـتـىـ يـبـدوـ الـعـظـمـ

(٣) اـمـتـاعـ الـأـسـمـاعـ: جـ ١ـ صـ ٤١١

بعمامتها الحمر تسد الأفق بين الأرض والسماء.

(ثم أنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها).

وكانت المرحلة الثانية من المعركة هي النداء الخالد للعصبة المؤمنة: يا أصحاب سورة البقرة. كان النداء إلى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار. فبدأت الأفراد تندى إلى ساحة المعركة. حتى بلغت المائة، ويقال إن المائة الصابرة يومئذ ثلاثة وثلاثون من المهاجرين وبسبعين وستون من الأنصار.

ثم خصص رسول الله ﷺ في المرحلة الثالثة: يا عشر الأنصار، يا أصحاب السمرة (فنا دى العباس بذلك وكان رجلاً صيّتاً فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت إلى أولادها يقولون: يا ليك يا ليك؛ فأشرف رسول الله ﷺ كالمطاول في ركبيه، فنظر إلى قتالهم وقال: الآن هي الوطيس، ثم أخذ بيده من الحصا، فرماهم بها وهو يقول: شاهت الوجوه ثم لا ينصرون. ثم قال: انهزوا ورب الكعبة. فيما زال أمرهم مدبراً وانهزموا) (١)

وكانت هذه المراحل المتلاحقة بسرعة. تحدد مراحل المعركة. وتثبت الإيمان في قلوب ضعاف الإيمان. فلو استثنينا تلك القاعدة الصلبة التي تبلغ الآلاف من المسلمين. لرأينا أن العمود الفقري من الجيش وهو من حديثي العهد بالإسلام كان لا بد أن يرى هذه المعجزة الإلهية بأم عينه، ويرى نصر الله تعالى لنبيه، ويرى ثبات هذا النبي وحده وبضعة عشر نفراً وهو يقول:

أنا النبي لا أكاذب أنا ابن عبد المطلب

ولقد كان هذا التحدي مثلاجاً لصدور العصبة الصغيرة حوصلم، فحوالي ثلثهم من بنى عبد المطلب الذين ثبتو معه. وكانوا بالأمس يحاربونه ويهجونه ويقاومونه.

ولا بد أن يطرق هذا المعنى. أذهان الشباب المسلم و يتسع بأفقه بعيداً. ويعترف بقوة رابطة النسب إلى جوار رابطة العقيدة. حين يرى أبا سفيان بن الحارث وأخاه ربيعة والعباس وابنه. وعلى بن أبي طالب. وهذا يعني الاستفادة من روابط النسب وغيرها إلى جوار رابطة العقيدة وتحت ظلها ورائيتها، وأكدت هذه المعركة كذلك. أن الصفة المسلم سيقى في محن متابعة حتى يتم انصهاره وتلاحمه، وأن النصر بيد الله تعالى يؤتى به من يشاء وأن الإعجاب النفسي بالقوة والطاقة قمين بالمحنة القاسية لتعديل هذه النظرة وتغييرها حتى يتظاهر ذلك الإعجاب ويخضع صاحبه لله رب العالمين.

وكانت المحنة الثانية العنيفة التي واجهها الجيش المسلم هي حصار الطائف الذي استمر

(١) امتناع الأسماع ج ١ ص ٤٠٧

أربعين يوماً على ما تقوله روايات الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه. واستمرار هذا الحصار لثقيف التي لا تقل عزة ومنعة عن قريش. كان درساً جديداً لهذا الجيش كذلك، لأن نصر حنين يغري، فلم يكن بُد لهم أن يتتحملوا مسؤولية الحصار الطويل ومحربوا الالتزام والانضباط، هذا من جهة، ومن جهة ثانية لا بد أن يشعروا أن النصر ليس دائمًا حليف المسلمين، فلئن لم يتأخر نصر حنين ساعات. فنصر الطائف لم يتم إلا بعد شهور، ولأول مرة في تاريخ الجيش الإسلامي كذلك يتم انسحابه دون تحقيق هدفه، وعظم ذلك على القاعدة الصلبة المؤمنة. حين تلقوا أوامر الانسحاب. فأمرهم رسول الله ﷺ بالقتال في اليوم الثاني. فخرجوا مشمرين نشيطين. غير أن سكك الحديد المحمامة، والسهام ومطر النبل عليهم، أدت إلى أن أثخنهم الجراح. وحين جاء الأمر في اليوم الثاني فسروا له وبشوا به. وضحك القائد العظيم عليه الصلاة والسلام.

ولا بد أن تكون التجربة من القيادة حية حين ترى تلکؤاً في تنفيذ أوامرها و تعالج هذه النفوس الصعبة من خلال التجربة الحية، حين تزداد قناعة الجنود بقيادتهم.

إن عملية بناء الجماعة ورصن الصدف هي من أشق العمليات. وقد تواجه القيادة أحياناً بخللٍ حتى في الصفة المختارة، والقاعدة الصلبة، سواء في الجزء والملعب من الموقف أو بالصورة المعاكسة في التبرير من التريث والصبر. والأمر الذي لا يلامس شغاف القلب لا يمكن أن يشعر ثمرته. ولو أدى الحرص على الإقناع فيه الخسائر في الأموال والأرواح بقدر.

لكن كيف انتهت هذه الجيوب الوثنية الضخمة: هو زان وثقيف.

إذ أن هوازن قد أمعنت في الهرب وطوردت من المسلمين، لكنها لم تدخل حظيرة الإسلام، وثقيف تمنت وتأبت، وانصرف المسلمون عنها وفكوا الحصار دون شروط.

بقي دور الجهاد السياسي، واستغلال كل الظروف لتفتت الحقد النفسي. كي تفيء هذه النفوس إلى الإسلام.

يقول ابن اسحاق: ثم أن وفد هوازن بالجعранة أتوا رسول الله ﷺ وقد أسلموا فقال: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامن علينا من الله عليك. قال: وقام رجل من هوازن، ثم أحد بنى سعد بن بكر يقال له زهير يكنى أبا صرد فقال: يا رسول الله إنما في الخطائز عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنار<sup>(1)</sup> للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدهه علينا، وأنت خير المكفولين.

(1) ملحننا: أرضعنا

قال رسول الله ﷺ: أبناءكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا: يا رسول الله، خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل تردد إلينا نساعنا وأبنائنا فهو أحب إلينا فقال: لهم: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا: إننا نستشع برسول الله إلى المسلمين وبال المسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا ف ساعطيكم عند ذلك، وأسائل لكم، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فقال: المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقال الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال الأقرع بن حabis: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عبيدة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا وقال عباس بن مردار: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. قال يقول عباس بن مردار: لبني سليم: وهم يهتمون.

قال رسول الله ﷺ: أما من تمسك منكم بحقه من هذا النبي. فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه. فردوه إلى الناس أبنائهم ونساءهم<sup>(١)</sup>.

وفي رواية ( فقال الناس . قد طبنا الرسول الله ﷺ ) فقال : إننا لا نعرف من رضي منكم من لم يرض . فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم . فردوه عليهم نساءهم وأبنائهم لم يتختلف منهم أحد غير عبيدة بن حصن . فإنه أبى أن يرد عجوزاً صارت في يديه منهم ، ثم ردها بعد ذلك وكسر رسول الله ﷺ النبي قبطية قبطية<sup>(٢)</sup> .

وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن وسألهم عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف . فقال رسول الله ﷺ: أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل . فأتى مالك بذلك فخرج إليه من الطائف وقد كان مالك خاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال في حبسه . فأمر برحلته فهياحت له . وأمر بفرس له ، فأتى به إلى الطائف ، فخرج ليلاً فجلس على فرسه فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تجبر . فركبها فلحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل ، وأسلم فحسن إسلامه . فقال مالك بن عوف حين أسلم:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد  
أوف وأعطي للجزيل إذا اجتندي ومتى تشاء يُخبارك عما في غد  
إذا الكتبة عرَّدت أنيابها بالسميري وضرب كل مهند  
فكانه ليث على أشباله وسط الهباء خادر في مرصد  
فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه: وتلك القبائل: ثمالة وسلامة وفهم،

(١) السيرة لابن هشام ج ٤ : ٤٩٠

(٢) الرحيق المختوم للمباركفورى ص ٤٧٥

فكان يقاتل بهم ثقيفاً، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه، حتى ضيق عليهم فقال أبو محجن:

هابت الأعداء جانبنا ثم تغزوونا بني سلمة وأتانا مالك بهم ناقضاً للعهد والحرمة وأتوна في منازلنا ولقد كنا أولى نقمة<sup>(١)</sup>

لقد انهزمت هوازن في المعركة وحقق رسول الله ﷺ نصراً ساحقاً عليهم حتى ساق نعمتهم ونساءهم وأبناءهم سبايا في المعركة. وفرّ قائدتهم إلى ثقيف. لكن ماذا استفاد الإسلام من هذه المعركة. إذا كان الحقد والكراهية والكفر هو الذي يسود في صفوف هوازن؟ إن النصر العسكري بهم القائد العسكري فقط، وهم أصحاب المناصب والماراكز والمتصارعين على السلطة. أما الحركة الإسلامية. فالنصر بالنسبة لها هو في دخول كتاب جديد في الإسلام. وفتح مغاليق هذه النفوس لتجدد الرحمة والملاذ والأمن في ظل الإسلام. ومن أجل هذا. فما يركز عليه الداعية المسلم. في السيرة المطهرة هو ما وراء الماراثك، وما وراء النصر العسكري. لأن هذا التفكير يعني أن فصائل جديدة تنضم إلى الإسلام كل يوم، لا ترتد عنه وتثور عليه وهذا هو فد هوازن، أربعة عشر رجلاً من قادتهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ مسلمين. وكان بالإمكان أن ينضم إلى الصف الإسلامي هذا الوفد فقط. لأن الأواني قد فات وتم توزيع السبايا على المسلمين، وهو حق مكتسب لهم. فكيف يفعل رسول الله ﷺ معهم. إنه القائد الفذ الذي لم تشهد البشرية مثيلاً له ولن تشهد. إنه يفكر في أن يتزعز هذه السبايا من إثنى عشر ألف مقاتل. ومثل هذا الأمر من خلال النص الشرعي. قد يدفع الجيش كله إلى الثورة عليه. ولو صمت الجيش لصمت على مضمض وكتم على ألم وتوتر. فكيف استطاع عليه الصلاة والسلام أن يستعيد هذه السبايا من الجيش. والجيش هان عراضٍ يتسابق على التخلّي عنهن؟

إنها عظمة البوة ولا شك، وهي وبالتالي درس لكل قيادة في الأرض ان تتحقق أهدافها من خلال استخراج كل ما في النفس الإنسانية من خير ونبل، ولو كان قابعاً في أعمق أعماق هؤلاء الناس وأن يتمكن الرسول ﷺ من استعادة السبايا من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، من أصحاب الكتبية الخضراء من الذين أعادوا بثابتهم النصر من جديد للجيش المسلم، من الذين استحقوا بجداره هذه السبايا. أن يسترد هذه السبايا من المسلمين الجدد الذين مرّ على إسلامهم ستة ونيف، ولا يزالون يتحرّكون من خلال الرغبة الجاححة في الغنيمة. هذا هو عظمة المعاملة النبوية في فقه هذه النفوس، ولم يهدّد عليه الصلاة والسلام بسلطنة، ولم يلُوح ببعضها إنما كانت الخطوة الأولى من خلال الأرياحية. والثقة وحصر ثقتها بأهله بني عبد المطلب. وبذلك خطّ منطلقاً لتيار كبير في الجيش أن يحدو حذوه. وكان لهذا الخطّ حدود، ما يمكن له أن يستوعب

(١) السيرة لابن هشام ج ٤: ٤٨٨ و ٤٩١

الجيش كله فليجاً عليه الصلاة والسلام إلى الخط الثاني. بخط الترغيب بالغوص عن هذه السبايا. وتمكن عليه الصلاة والسلام بهذا الخط أن يستوعب بقية الجيش حتى العجوز الشمطاء التي كانت من نصيب عيينة بن حصن وألح في الاحتفاظ بها. وترك لزعيم وفد هوازن أن يهز عيينة بن حصن بقوله له : خذها عنك ، فوالله ما فوها بيارد ولا ثديها بناهد ، ولا بطنها بوالد ، ولا زوجها بواجد ، ولا درها بماكدر<sup>(١)</sup> . فردها بست فرائض ، وعلى النهج نفسه أمكن جلب قائد هوازن الذي استعصى في ثقيف فأرسل إليه يدعوه إلى الإسلام وسيعطيه أهله وما له ومائة من الإبل ، وكان هذا العرض السخيف كفيلة بأن يستجيب مالك للإسلام . ولنست استجابة سلبية فقط بحيث يركن إلى ماله وإبله وأهله : بل استجابة فاعلة إيجابية ارتضى أن يغزو ثقيفاً . الذين كان بحمائهم وكانوا معه في المعركة ضد محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وهكذا دخلت هوازن في الإسلام ، وبالتركيز على قرابة الرحم والنسب كما قال أبو صرد : إنما في الحظائر عماتك وخالتك فامن عليهم ، ومن خلال رابطة النسب نفسها استطاع عليه الصلاة والسلام أن يستثير النخوة العربية ، والعزة القبلية ، فيوظفها في خدمة الإسلام .

ألا أحرج الحركة الإسلامية اليوم إلى هذه المعانى . أن تخطط لتدخل الأمة كلها في حظيرة الإسلام . وحين تقارن بين طريقين نجد البون شاسعاً جداً بينهما :

الطريق الأول : الذي ينطلق فقط من خلال حرافية النظام ، وحرافية القرار ، فيستبعده النظام والقرار ولو أدى إلى كسر النفوس ، وذبح القلوب ، وتغير الثقة وتخلخل الصف .

الطريق الثاني الذي ينطلق إلى جوار القرار ، من دوافع النفس ، وخلجات القلب ، وطبيعة الفطرة البشرية ، ونوازع النسب فتسخر هذه جيئاً لخدمة المهد الأبعد من القرار . وهو حفظ مال الأمة أو حفظ شبابها أو حفظ صفها .

ولقد رأينا الحركة الإسلامية في إحدى فصائلها . تتخذ قراراً مالياً ذات يوم تحجب به شيئاً من الراتب عن الإخوة الذين شاركوا معها في جهادها وضحوا بأرواحهم ودمائهم لتدفعهم إلى العمل وكسب المعيشة . . فكان الدرس قاسياً للفريقين القيادة والقاعدة .

فتساؤل الدرس للقيادة أنها كسرت نفوس إخوانها بهذا القرار . فانصرفو عنها والألم يذبح قلوبهم وماذا تربع القيادة إذا خسرت ثقة قواعدها بها وهم عدتها في الحرب والجهاد والمواجهة وتساؤل الدرس للقاعدة أنها اهتزت عند أول أزمة ، فنقص شيء بسيط من المال . دفعهم إلى العنف والاحتجاج واتهام القيادة فكيف لو كان الأمر بالتخلي عن ثمار المعركة كلها ، وأعز ما فيها من ثمار .

---

(١) السيرة لابن هشام ج ٤ : ٤٩٠

وعلى النهج نفسه كانت معالجة قادة مكة بعد نصر حنين وتوزيع الغنائم عليهم . ونكتفي بعرضها فهي في غنى عن أي تعليق :

(وانتهى إلى الجعرانة ليلة الخميس خلون من ذي القعدة والسي والغائم بها محبوسة وقد اخذ السبي حظائر يستظلون بها من الشمس ، وكانوا ستة آلاف ، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير والغنم أربعين ألفاً وقيل أكثر ، فأمر بُشَّرَ بن سفيان الخزاعي يقدم مكة فيشتري للنبي ثياباً يكسوهم ، وكساهم كلهم ، واستأذن رسول الله بالنبي ، فلما رجع إلى الجعرانة بدأ بالأموال فقسمها . فأعطى المؤلفة قلوهم أول الناس ، وكان مما غنم أربعة آلاف أوقية فضة ، فجاء أبو سفيان بن حرب والفضة بين يديه ، فقال : يا رسول الله أصبحت أكثر قريش مالاً : فتبسم عليه الصلاة والسلام ، فقال أبو سفيان : أعطني من هذا يا رسول الله : قال يا بلال زن لأبي سفيان أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل ، قال : أبي يزيد : قال : زنوا ليزيد أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل . قال : أبي معاوية يا رسول الله : قال : زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطوه مائة من الإبل . قال أبو سفيان : إنك لكريم فداك أبي وأمي : والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، ثم سالمتك فنعم المسلح أنت ، جراك الله خيراً . وسأل حكيم بن حزام يومئذ مائة من الإبل فأعطاه ثم سأله مائة فأعطاه ، ثم سأله مائة فأعطاه ، ثم قال : يا حكيم بن حزام إن هذا المال خضراء حلوة . فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من السفلة وابداً من تعول . فأخذ حكيم المائة الأولى ثم ترك ما عادها .

وأعطى النمير بن الحارث - أخا النضر بن الحارث - مائة من الإبل ، وأعطى أسد بن جارية حليف بني زهرة مائة من الإبل وأعطى العلاء بن جار . حسين بعيراً ، وأعطى الحارث بن هشام مائة من الإبل وصفوان بن أمية مائة بعير . وفي صحيح مسلم عن الزهرى أن رسول الله ﷺ أعطى صفوان بن أمية ثلاثة مائة من الإبل ، ويقال إنه طاف مع النبي ﷺ وهو يتصرف في الغنائم إذ مر بشعب مالآباء الله عليه فيه غنم وإبل ورعاها مملوءاً . فأعجب صفوان ، وجعل ينظر إليه فقال : أعجبك يا أبا وهب هذا الشعب . قال : نعم . قال هو لك وما فيه : فقال : أشهد ما طابت نفس أحد قط إلا نبي وأشهد أنك رسول الله .

وأعطى قيس بن عدي مائة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حصن الفزارى مائة من الإبل ، وأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى العباس بن مردارس السلمى دون المائة فعاتب النبي ﷺ في شعر قاله فقال رسول الله ﷺ : اقطعوا عني لسانه . فأعطوه مائة<sup>(١)</sup>)

(١) إمتناع الأسماع ج ١ ص ٤٢٢ - ٤٢٥

لكن التعامل مع القاعدة الصلبة يختلف كثيراً عن التعامل مع صفة الصف المسلم، الذي ينطلق من الثقة العميقه بقادره. غير أن هذه القاعدة لا بد من تذكيرها دائمأ بهذا الأصل، وإلا فقد تقلق حين تغيب عنها هذه المعاني، وقد تطفوا على السطح أحياناً بعض المعانى المادية وكأن تقويم المرء المسلم من خلاها، فلا بد من اليقظة المستمرة والتربية المستمرة للمحافظة على الأفق العالى هذه الجماعة :

(قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : يا رسول الله أعطيت عبيدة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة. وتركت جعيل بن سراقة الضمري . فقال : أما والذى نفسي بيده بجعيل بن سراقة خير من طلاء الأرض كلها مثل عبيدة والأقرع . ولتكن أتابلهما ليسلاهما ، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه )<sup>(١)</sup> وكانت هذه عند جعيل رضي الله عنه تعدل مال الأرض كلها .

كان هذا على المستوى الفردي . وكان هذا على المستوى الجماعي .

(ولما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحبي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القاتلة حتى قال قائلهم : لقد لقي رسول الله ﷺ قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحبي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبحت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحبي من الأنصار منها شيء . قال : فماين أنت من ذاك يا سعد قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي . قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة . قال : فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة . قال : فجاء رجال المهاجرين فدخلوا فتركهم ، وجاء آخرون فردهم فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحبي من الأنصار . فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل ، ثم قال : يا معاشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم . موجنة<sup>(٢)</sup> وجدتوكها عليٌّ في أنفسكم ؟ ألم أتكم ضللاً فهداكم الله ، وعاللة فأغناكم الله ، وأعداء فالله بين قلوبكم : قالوا : بل ، الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : إلا تحيبيوني يا معاشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجييك يا رسول الله ؟ الله ورسوله المثل والفضل : قال ﷺ : أما والله لو شئتم لقلتكم فلتصدقتم ولتصدّقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، وخدولاً فنصرناك ، وطريداً فآوريناك ، وعائلاً فأسيناك . أوحدتكم يا معاشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة<sup>(٣)</sup> من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلما ووكلتكم إلى إسلامكم : الا ترضون يا معاشر الأنصار أن يذهب الناس بالشame

(١) إمتحان الأسماع ج ١ ص ٤٢٥

(٢) الموجنة : العتاب

(٣) اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم. فوالذي نفس محمد بيده لو لا الهجرة لكونت أمرةً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً سلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار فيكى القوم حتى أخضلوا لحاظهم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً لحظاً، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا<sup>(١)</sup>.

لقد كلف إنتهاء جيوب الوثنية في الأرض العربية أن وضع المال كلها أداة لتطهير النفوس وترقيتها وتحبيبها للإسلام. وهذه هي وظيفة المال أن يكون أداة لطاعة الله.

والعدالة في التوزيع هي أصل في المال. وتربيّة النفوس على أن لا تسعّد لهذا المال أصل آخر، ومن أجل هذا أُجل رسول الله ﷺ توزيع هذا الفيء. بعد أن أصدر أوامره بمنع أخذ شيء منه حتى الخياط والمحيط. وضبط النفوس ظاهراً على الأقل - والنفسية العربية التي ترى المال بين يديها من ال德拉هم والدنانير والإبل والشياه. ثم تتمالك دون أن تلتهمه. شيء مختلف مع طبيعة هذه النفسية. وكان هذا هو الدرس الأول.

(ثم ثار بعض الأعراب، وهم يلحون على رسول الله ﷺ بقسمة الغنائم حتى خطفوا رداءه فقال: ردوا عليَّ ردائِي أيها الناس، فوالله أن لو كان لكم بعد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما أفيتُموني بخيلاً ولا كذاباً، ثم قام إلى جنب بعير، فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها ثم قال: أيها الناس والله مالي من فئيكم ولا هذه الوربة إلا الخمس والخمس مردود عليكم) <sup>(٢)</sup> وكان هذا هو الدرس الثاني.

(وجاءَ رجُلٌ من الأنصار بِكُبَّةٍ من خيوط شعر فقال: يا رسول الله أخذتْ هذه الكُبَّةَ أعمل بها بِرْدَعَةٍ بِعِيرٍ لي دِير؟ فقال: أما نصبي منها فهو لك. قال: أما إذا بلغتْ هذا فلا حاجةٌ لي بها، ثم طرحتها من يده.) <sup>(٣)</sup> وكان هذا هو الدرس الثالث.

ثم كان التوزيع الأنف الذكر على المؤلفة قلوبهم على أوسع مظانه، وكان هذا هو الدرس الرابع.

(وجاءَ رجُلٌ من بني تميم يقال له ذو الخويصرة. فوقف عليه وهو يعطي الناس. فقال: يا محمد قد رأيتُ ما صنعتَ هذا اليوم. فقال رسول الله: أجل فكيف رأيت؟ قال: لم أرك عدلت، قال: فغضب النبي ﷺ ثم قال: ويحك: إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله. ألا أقتله؟ قال: لا. دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية<sup>(٤)</sup>) وكان هذا هو الدرس الخامس.

(١) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ٤٩٨-٤٩٩

(٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٤٩٢

(٣) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ٤٩٦

(٤) المصدر نفسه ص ٤٩٦

ثم كان أعظم الدروس على الإطلاق هو هذا اللقاء مع الأنصار.

ولا معنى لأن يكسب رسول الله ﷺ زعماء تلك القبائل وزعماء قريش مقابل فقدان الثقة من صفة الأول من المهاجرين والأنصار. وعندما توضح الالتباس وعرف هذا الصف موقعه من رسول الله ﷺ. أن يكون المحيا معاهم والممات معاهم، وأن يذهب الناس بالشياه والبعير ويذهب الأنصار برسول الله عليه الصلاة والسلام. فهو فرحة عيونهم وهم فرحة عينه، ومن أجل هذا مُسحت هذه الموجدة وذابت والسعادة تغمرهم بهذه الغنية.

وفي هذا الأمر دروس غنية للصف المسلم اليوم قاعدة وقيادة يحسن أن نستوعبها فنستفيد منها.

أولاً: التفريق بين المال العام والمال الخاص. وحرمة التصرف في المال العام قبل توزيعه. مهما كان حجمه. ولو كان كبة الشعر والخيط والمخيط والتساهل في التصرف فيه يقود إلى النار: (فإن الغلوت يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيمة) (١).

ثانياً: تقدير التوزيع وعدالته عائد لقيادة الجماعة وأميرها. فهو أمر الصرف فيها، وهو يقدر كمية التوزيع وأهميته. ومصلحة الدعوة تحكمه، ونصوص الشريعة تحكمه.

ثالثاً: والأصل أن يكون المال في الدعاية إلى الإسلام ولو على حساب الدعاة. وفي كسب القلوب النافرة ورد النفوس الجامحة.

رابعاً: والصف المسلم القوي قد يحرم من هذا التوزيع كله. وذلك في ذات الله والأصل أن يكون الإيثار خلقه. فلا يقيم المرء من خلال ما يأخذ من راتب. بل تقييم من خلال التقوى والعمل الصالح.

خامساً: أن تبقى القيادة على صلة بقواعدها فتلحق الشبهات التي تثور في نفوسها، وتوضع خط السير العام لجنودها، وتقضى على قالة السوء في صفوفها. وإلا خسرت هذه القاعدة.

سادساً: وأن يضع الجندي نفسه موضع قائده، ويصدر أحکامه على قيادته هو أمر خطير وذلك من خلال التمسك بحرفية النص الذي يقوده إلى الخروج من الاسلام من حيث يريد الاسلام، والذي يقوده إلى الصف غير المسلم من حيث حرمه عليه.

سابعاً: وطبيعة هؤلاء الشباب من حيث صلاحهم وتقواهم لا يرقى إليها الشك،

---

(١) السيرة لابن هشام ج ٤ : ٤٩٢

(تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم، وصيامكم إلى صيامهم). لكنهم يضعون أنفسهم موضع القاضي، وموضع المفتي، وموضع إصدار الأحكام. وهذه الظاهرة المرضية. لا بد من التفريق بينها وبين ظاهرة النصيحة والاستفسار والسؤال.

فسعد رضي الله عنه والأنصار رضي الله عنهم عتبوا على رسول الله ﷺ حين رأوا أنهم محرومون من هذا المال، لكن بقي الأمر خلال السؤال والاستفسار لا من باب الاقرار بينها وجدنا ذا الخوريصة تدفعه جرأته أن يتهم رسول الله ﷺ في عدله.

ثامناً: ولا بد من التفريق بين موقف الجندي من رسول الله ﷺ، وموقف الجندي من أمير جماعته. فالشك في عدل رسول الله ﷺ كفر بواح. أما الشك في عدالة القائد فلا يدخل في هذا الإطار. إنما يدخل في إطار الخطأ التنظيمي الذي يفسد صف الجماعة ويفتت تماسكها.

ناسعاً: ويبقى الجندي المجاهد أعظم في ميزان الله وميزان قيادته من كل قوى الأرض الأخرى وزعاماتها وقياداتها. طالما أنها تنطلق من مصلحتها لا من دينها. ويبقى جعيل بن سراقة خير من طلائع الأرض مثل عبيدة والأقرع، وكلماهما قد دخل في الإسلام حديثاً. ونالا من الإكرام ما لا يوصف.

عاشرأً: ويبقى ثقيف دون أن تنهار معاقلها بالقوة والمواجهة، لتهار بعد ذلك من خلال حرب العصابات التي شنها عليها مالك بن عوف رئيس هوازن، ومن خلال الحرب النفسية التي زلزلت كيانها فأفنتهala جدوى من المقاومة.



## السَّمَةُ الرَّابِعَةُ عَشَرُه الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَدْخُلُ يَنْفِعَ الْإِسْلَامَ

حين نتحدث عن السمات نلحظ أنها حلقات من سلسلة. كل حلقة تقود إلى التي تليها. وتحدد لنا طبيعة التدرج في السير خطوة عقب خطوة. فلا يمكن أن يقبل الناس على الدخول في دين الله أبداً، والإسلام ضعيف محارب مضطهد. من نوع من إعلان صوته وشرح فكرته وعقيدته.

وتأتي هذه السمة في موقعها من المنظومة الإسلامية فحين استسلمت قريش العدو الأكبر للإسلام وصار الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه سيد الجزيرة العربية. وتحطمت قوى المعارضة المسلحة. كان من الطبيعي أن تند القبائل العربية الضخمة لتحاور أو تناقش أو تسلم. أو تفرض شروطها حسب تصورها عن طبيعة قوتها. ونشهد في هذه السمة الحدود الدقيقة، فيها يجوز التساهل فيه، ومراوغة طبيعة التفوس فيه، وما لا يدخل ضمن إطار المساومة. فنعلم حدود التمييز والتفاصلة، وحدود التساهل والمعاملة. وذلك من خلال عرض مراكز القوى العربية. بعد قريش.

ثقيف ، تميم ، عامر ، بنو حنيفة ، طيء ، كندة ، ملوك حمير ، بنو الحارث بن كعب ، بنو عبد النبي .

أولاً : وفد ثقيف :

لقد كانت العرب ترى في ثقيف وقريش، أهم موقع القوى فيها. وذكر القرآن الكريم هذا المعنى عن القرطبيين، وهو ينقل مقولتهم «وقالوا لو لا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القرطبيين عظيم»<sup>(١)</sup>.

وشاءت إرادة الله تعالى أن ينتهي عظيم قريش الوليد بن المغيرة كافراً مشركاً بينما كان عظيم ثقيف شهيداً وفي قومه بالذات، وهو عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه.

وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم اتىه عروة بن مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل المدينة. فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال له رسول الله ﷺ، كما يتحدث قومه: إنهم قاتلوك، فقال عروة: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم محبياً مطاعاً. فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاءً لا يخالفوه لمنزلته فيهم. فلما أشرف لهم على علية له، وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه. فأصابه سهم فقتله - فقييل. لعروة: ما ترى في دمك؟ قال: كramaة أكرمني الله تعالى بها

٣١) سورة الزخرف :

وشهادة ساقها الله إلى فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفونوني معهم. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: إن مثله في قومه لكمثل صاحب يسن في قومه.

وعظيمها القرتيين. مرا بوقف متشابه. فالوليد بن المغيرة عرف في قراره قلبه أن ما يقوله محمد ما هو بكلام الإنسان وما هو بكلام الجن. لكنه خاف على موقعه. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. فكانت عاقبته النار. بينما تخلى عروة عن موقعه، وأعلن إسلامه على قومه وهو يعلم أنه أحب إليهم من أبكارهم وبشره رسول الله ﷺ بالشهادة (إنهم قاتلوك) فما توان ولا تراجع، ورمي بالسهام حتى سقط شهيداً في سبيل الله فكان أول داعية في قومه إلى الله ورسوله كما كان صاحب يسن في قومه.

وها هو عمرو بن أمية يأتي إلى زعيم ثقيف الثاني عبديا ليل بن عمرو فيقول له: إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت، قد أسلمت العرب كلها، وليس لك بحربيم طاقة. فانظروا في أمركم فعند ذلك اثتمرت ثقيف بينها وقال بعضهم لبعض أفلًا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع. فأتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً فكلموا عبديا ليل بن عمرو.. وأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك فيكونوا ستة<sup>(١)</sup>. وعبديا ليل هو الذي قال قبل قرابة الثاني عشر عاماً لرسول الله ﷺ: أنا أمرت ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك هو نفسه اليوم يمضي إلى المدينة وافداً لرسول الله ﷺ يعلن إسلام قومه، وفي الوقت الذي كان المسلمون يدعون على ثقيف ويطلبون من رسول الله ﷺ ذلك كان يقول: (اللهم اهد ثقيفاً واثت بهم). ولم يغير رسول الله نهجه مع ثقيف سواءً وهم يطاردونه بالحجارة، أو يحاصرهم في حصونهم فلقد كانت هدایتهم عزيزة عليه جداً (عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله).

ولتمكن هذا المعنى في نفس النبي ﷺ ومعرفة المسلمين به كان أبو بكر والمغيرة بن شعبة يتسابقان لنقل هذه البشرى لرسول الله صلوات الله عليه.

وجاء الوفد ومعه عزة الجاهلية. وتركه النبي ﷺ في الجو الإسلامي والبيئة الإسلامية يتعرف على مبادئ الدعوة ومفاهيم الإسلام. وكانت نفسية الوفد منطلقة من صورة معاهدة صلح أكثر من صورة استسلام الله عز وجل، ومن أجل ذلك قدموا شروطاً خمسة. أن يأذن لهم بالزنا وشرب الخمور، وأكل الriba، ويترك لهم طاغيتهم اللات ثلاث سنين على الأقل ويعفيهم

(١) السيرة لابن هشام ج ٢ ص ٥٤٠

من الصلاة (١) ورفضت الشروط كلها . بلا استثناء لأن الأمر ليس أمر ملك دنيوي ، بل هو أمر الله تعالى وشريعته . ولا يمكن أن يكون القوم مسلمين ، ويحلوا حراماً ، أو يبيحوا ترك فريضة . والإسلام هو الاستسلام الكامل لله تعالى في كل شيء يحل حلاله ويحرم حرامه وحين رأت ثقيف أن لا مناص من ذلك - طلبت طلباً واحداً ثمت تبنته وهو أن يغفيم عليهم عليه الصلاة والسلام من هدم آهتمامهم بأيديهم . فقبل ذلك منهم عليه الصلاة والسلام ، وبعث المغيرة بن شعبة الثقفي فهدتها بعد ذلك ورجوع الوفد إلى قومه فكتهم الحقيقة وخوفهم بالحرب والقتال ، وأظهر الحزن والكآبة وأن رسول الله ﷺ ساهموا بالإسلام وترك الزنا والرiba والخمر وغيرهم وإلا يقاتلهم . فأخذت ثقيفاً نخوة الجاحظية ، فمكثوا يومين أو ثلاثة ي يريدون القتال ، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، وقالوا للوفد : ارجعوا إليه فأعطوه ما سأله وأبدى الوفد حينئذ حقيقة الأمر ، وأظهروا ما صالحوا عليه وأسلتم ثقيف (٢) .

وبذلك انهارت أمن الحصون العربية ودخلت في الإسلام ، وتوضح الأمر أن لا مساومة على دين الله ولو كانت المساومة تأجيل هدم اللات شهراً واحداً فقط وهذا في موقع القوة بينما قبل الرسول ﷺ عمو (رسول الله) و(الرحمن الرحيم) يوم الحديبية .

وتحيل الفرق بين الدخول في الإسلام ودولة الإسلام ، وبين التفاوض من موقع المساواة في القوة بل يتضح الفرق أكثر يوم رأينا رسول الله ﷺ قبل ثلاثة عشر عاماً يطلب فقط حياته من ثقيف ليدعوه إلى الله عز وجل دون أن يتدخل في دينها ومقدساتها وأي شأن من شؤونها وبين الوضع اليوم وال المسلمين قد تمكنا من الأرض ، وتزلزلت ثقيف رعاياً من حروفهم .

والحركة الإسلامية البصرية ، تعرف الفرق بين المرحلتين ، وتنطلق حسب الظروف التي تملكتها لتمكن لنفسها ولدين الله . وتتعلم كذلك ما يمكن قبوله من الشروط وهي في موقع القوة ، وما لا يمكن قبوله وهي في الواقع نفسه حين وجدنا رسول الله ﷺ يرفض شرطاً يحل حراماً أو يحرم حلالاً بينما لا يجد حرجاً من إعفائهم من كسر أصنامهم بأيديهم .  
ثانياً - وفد تميم :

أما وفد تميم . فقد جاء يباهي بشعره وبيانه فأجابه بالأسلوب نفسه فردد على الشعر بالشعر حيث أفحى شاعر تميم من حسان وردد على الخطبة بالخطبة حيث أفحى تميم من ثابت بن قيس وانتهى الأمر عندهم أن (قال الأقرع بن حابس : وأبي إن هذا الرجل مؤذن له خطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا . فلما فرغ

(١) و(٢) الرحيق المختوم ص ٥٠٤

ال القوم أسلموا، وجُوَّزْهُم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم) (١).

وهذا الأسلوب من الدعوة والطراز الجديد فيها يدعونا إلى أن نعطي الإعلام الإسلامي حقه وأن نتأكد أن معركة الإسلام ليست معركة عسكرية فحسب. بل هي معركة سياسية، ومعركة إعلامية يمكن حين نبرز فيها أن نحول الخصوم إلى أصدقاء، أو محابين، ونشر فكرنا وعقيدتنا ومبادئنا من هذا المنبر، ونقطع كثيراً من الأشواط التي لا نتصور أن تقطع إلا من خلال القوة مع الإشارة كذلك أن القوة التي ينطلق منها الإعلام، هي التي تفتح القلوب له لكن القلوب تبقى مسدودة أمام منطق الضعفاء.

ثالثاً - وفدي عامر :

وجاء وفدي عامر ليعرض عضلاته ويفرض شروطه :

(فقدم عامر بن الطفيلي عدو الله على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به وقد قال له قومه : يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم. قال : والله لقد كنت آليت أن لا أنهي حتى تتبع العرب عقبي ، أفالنا أتبع عقيب هذا الفتى من قريش : ثم قال لأربد (٢) : إذا قدمنا على الرجل فإني سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف . فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيلي : يا محمد : خالي (٣) . قال : لا والله حتى تؤمن بالله وحده . قال يا محمد خالي ، وجعل يكلمه ويتضرر من أربد ما كان أمره به ، فجعل أربد لا يغير شيئاً . قال : فلما رأى عامر ما يصنع أربد . قال : يا محمد خالي ، قال : لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له . فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال : أما والله لأملاها عليك خيلاً ورجالاً . فلما ولى قال رسول الله ﷺ : اللهم اكفي عامر بن الطفيلي ... وخرجوا راجعين إلى بلادهم (٤) .

وفي صحيح البخاري : أن عاماً أتى النبي ﷺ فقال : أخيرك بين خصال ثلاث : يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك من بعدي، أو أغزوك بخطفان بألف أشقر وألف شقراء (٥) .

حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، بعث الله على عامر بن الطفيلي الطاعون في عنقه . فقتله الله في بيت امرأة من بني سلول . فجعل يقول : أغدة كغدة البكر (٦) ، في بيت امرأة من بني سلول . لا يغيب عن البال أن غزوة الأحزاب كان نصف جيشها من خطفان التي بلغت قرابة خمسة

(١) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ٥٦٧

(٢) أربد : أحد زعماء بني عامر

(٣) خالي المخذلي خليلاً وصاحبها

(٤) السيرة لابن هشام : ج ٤ ص ٥٦٨

(٥) البخاري

(٦) غدة البكر : داء يصيب البعير فيموت عنه وهو شبيه بالذبحة التي تصيب الإنسان

آلاف مقاتل وهم الذين عرض عليهم رسول الله ﷺ ثلث شمار المدينة مقابل انسحابهم من حربه في الخندق، ومن أجل ذلك كان عامر ينطلق ويتكلم من منطق القوة. وجاء يطالب بالوراثة بعد النبي ﷺ أو اقتسام السلطة بين الإسلام والجاهلية، فرفض عليه الصلاة والسلام ذلك كله ولم يقبل منه إلا الإسلام، وكان لتهديده بقوته دعوة رسول الله ﷺ: اللهم اكفي عامر بن الطفيلي فقضي عليه قبل أن يصل إلى قومه.

والفهم الحركي لهذا الوفد يعطينا صورة جديدة من الصور المروضة في المساومات، وهي قضية الوراثة أو المشاركة بين الكفر والاسلام في الحكم، وقد رفضت هذه الصورة منذ المرحلة المكية حين كان رسول الله ﷺ يدعو القبائل إلى الإسلام.

فالجانب السياسي له حدود محددة. وهذه الحدود لا يمكن أن يكون الإسلام فيها موضع مساومة أو موضع مفاوضة، لا يجتمع الإسلام والجاهلية في حكم واحد. أو مرجع واحد.

**رابعاً : وفدي بن حنيفة :**

ولم تكن بنو حنيفة أقل سطوة وقوة من تميم وغطفان. فلقد كانت تحكم ريف اليمامة. وجاء وفدهم ومعه مسيلةمة بن حبيب الذي جاء يراوغ ويدارو لعله يصل إلى شيء فكان جواب رسول الله ﷺ له وفي يده عسيب من سعف النخل: لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتك ..

(ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وجاؤوه بما أعطاه. فلما انتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله وتباً وتكذب له وقال إني أشركت في الأمر معه)(١).

وكان ثمامنة بن أثال أصدق ديناً وأثبت أصلًا وأندى مروة من مسيلةمة الذي أسره رسول الله ﷺ (ويأتيه رسول الله فيقول له: أسلم يا ثمامنة، فيقول: إيه يا محمد إن تقتل تقتل ذا دم وإن تُرد الفداء فسل ما شئت. فمكث ما شاء الله أن يمكث ثم قال النبي ﷺ: أطلقوا ثمامنة. فلما أطلقوه خرج حتى ألقى البقيع. فتظهر فأحسن طهوره ثم أقبل فباع النبي ﷺ على الإسلام.. ثم خرج معتمراً فلما قدم مكة ، قالوا: أصبتوا يا ثمام؟ فقال: لا. ولكنني اتبعت خير دين ، دين محمد ولا والله لا تصلك إليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. فمنعهم أن يجعلوا إلى مكة شيئاً فكتبوا إلى رسول الله : إنك تأمر بصلة الرحم وإنك قد قطعت أرحاماً، وقد قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع . فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلّي بينهم وبين الحمل)(٢)

وبقيت اليمامة بزعامة مسلمة تتهيأ لللوثوب.

ولعل هذه القيادات القبلية. لم تكن تدرك حقيقة الإسلام ، إنما كانت تتصور الأمر هزيمة

(١) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ٦٣٩

(٢) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ٥٧٦

أمام سلطان حاكم . ولم يفكّر الرسول ﷺ باللين مع هذه القيادات بصورة من الصور حين تريده أن تجعل لرأيها وزناً مع الله ورسوله .

#### خامساً : وفدي طيء :

وقدم على رسول الله ﷺ وفدي طيء ، فيهم زيد الخيل وهو سيدهم ، فلما انتهوا إليه كلّموه ، وعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام ، فأسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ كما حديثي من لا أتهم من رجال طيء : ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل . فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ، ثم سماه رسول الله ﷺ زيد الخير .

وأما عدي بن حاتم فكان يقول : ما من رجل من العرب كان أشد كراهيّة لرسول الله ﷺ حين سمع به مني ، أما أنا فكنت امرءاً شريفاً وكنت نصراانياً ، وكنت أسير في قومي بالمرباع (١) . فكنت في نفسي على دين ، وكنت ملكاً في قومي ، لما كان يصنع بي . فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته فقلت لغلام كان لي عربي ، وكان راعياً لإبلٍ : لا أبا لك أعدد لي من إبلٍ جمالاً ذللاً سماناً .

فاحتبسها قريباً مني ، فإذا سمعت بجيش محمد قد وطى هذه البلاد فآذني . ففعل ، ثم إنه أتاني ذات غداة فقال : يا عدي : ما كنت صانعاً إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإنني قد رأيت رأيات فسألت عنها . فقالوا : هذه جيوش محمد . فقلت : فقرب إلى أحبابي ، فقرربها . فاحتتملت بأهلي وولدي ، ثم قلت : الحق بأهل ديني من النصارى بالشام . فسلكت الجوشية (٢) . وتخالفني خيل لرسول الله ﷺ فتصيب ابنة حاتم فيمن أصابت . فقدم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طيء . وقد بلغ رسول الله ﷺ هربى إلى الشام المسجد . كانت السبايا يحبسن فيها ، فمرّ بهارسول الله ﷺ فقامت إليه وكانت امرأة جزلة فقالت : يارسول الله هلك والد ، وغاب الوافد ، فامنن على من الله عليك . قال : ومن وافقك ؟ قالت : عدي بن حاتم . قال : الفار من الله ورسوله ؟ قالت : ثم مضى رسول الله ﷺ وتركني ، حتى إذا كان من الغد مر بي . فقلت له مثل ذلك ، وقال لي مثل ما قال بالأمس . قالت : حتى إذا كان بعد الغد مر بي وقد يشت منه . فأشار إلى رجل من خلفه أن قومي فكلميه ؛ قال : فقمت إليه فقلت : يا رسول الله هلك والد ، وغاب الوافد ، فامنن على من الله عليك فقال ﷺ : قد فعلت . فلا تعجل بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم اذنني فسألت عن الرجل الذي أشار إلى أن أكلمه فقيل : علي بن أبي طالب . وأقمت حتى قدم ركب من بلي أو قضاعة ، قال :

(١) المرباع : أخذ الرابع من الغائم

(٢) الجوشية : جبل قرب سجد

إنما أريد أن آتي أخي بالشام . قالت : فجئت رسول الله فقلت : يا رسول الله قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلغ . قالت : فكساني رسول الله وأعطاني نفقة . فخرجت معهم حتى قدمت الشام قال عدي : فوالله إني لقاعد في أهلي ، إذا نظرت إلى ظعينة يصوّب إلى تؤمنا ، قال : فقلت : ابنة حاتم قال : فإذا هي هي فلما وقفت على انسححلت . تقول : القاطع الظالم ، احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بقية والدك عورتك . قلت : أي أخية . لا تقول إلا خيرا .. فوالله مالي من عذر لقد صنعت ما ذكرت ثم نزلت فأقمت عندي ، فقلت لها : وكانت امرأة حازمة : - ما ترين في أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجلنبياً فللسابق إليه فضله . وإن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمين وأنت أنت . قال : قلت والله إن هذا الرأي .

قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ فدخلت عليه ، وهو في مسجده فسلمت عليه فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدي بن حاتم ، فقام رسول الله ﷺ . فانطلق بي إلى بيته ، فوالله إنه لعامل بي إليه ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها ؛ قال : قلت في نفسي ، والله ما هذا بملك ، قال : ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته ، تناول وسادة من أدم محسنة ليها فقذفها إلى ، فقال : اجلس على هذه ، قال ، قلت بل أنت فاجلس عليها فقال : بل أنت فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض . قال : قلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك ، ثم قال : إيه يا عدي يا حاتم ألم تكن ركوسياً<sup>(١)</sup> ؟ قال : قلت : بلى ، قال : ألم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟ قال : قلت : بلى . قال : فإن ذلك لم يكن بجل لك في دينك ، قال : قلت : أجل والله . وقال : وعرفت أنهنبي مرسل يعلم ما يجهل ثم قال : لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشك أن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذنه ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم فوالله ليوشك أن تسمع بالمرأة تخرج من القدسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت ، لا تخاف ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه إنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ، وايم الله ليوشك أن تسمع بالقصور البيضاء من أرض بابل قد فتحت عليهم : قال : فأسلمت .

وكان عدي يقول : قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة ، والله لتكونن ، قد رأيت القصور البيضاء من أرض بابل قد فتحت ، وقد رأيت المرأة تخرج من القدسية على بعيرها لا تخاف حتى تمحق هذا البيت وايم الله لتكونن الثالثة ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذنه<sup>(٢)</sup> .

طيء تمتد في بادية الشام والعراق والنجاشي وحاتم الطائي من أشهر العرب في الجاهلية

(١) ركوسياً : وهو قوم لم ين بين دين النصارى والصابرين

(٢) السيرة لأبن هشام ج٤ ص ٥٧٧ - ٥٨٠

بالكرم وبه يضرب المثل . إذ يقول الشاعر:

## إقدام عمرٍ في سماحة حاتمٍ      في حلم أحنف في ذكاء إيس

ومكارم الأخلاق لها وزن في هذه القبيلة فقد أطلق رسول الله ﷺ سراح سفانة بنت حاتم لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وزيد الخيل فيها سمعه رسول الله ﷺ عنه من ثناء كان أقل مما فيه، وأطلق عليه زيد الخير، وحصافة سفانة . وذكاء عدي وعمق فكره في التفريق بين الملك والنبوة، حيث أدرك الفرق من خلال وقوفه للمرأة العجوز، ومجلسه المتواضع في بيته، وعلمه بعظيم عدي أقمعته بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

وأدرك الرسول ﷺ أبعاد عدي بن حاتم الذي بحثاً إلى ملوك غسان، وانه يتمي إلى النصرانية التي تقودها مملكة الروم . فكان لابد من غزو هذه الأبعاد، والإحاطة بهذه الأعماق حيث أبرزها على السطح وهي الخوف من الفقر والضعف وقلة العدد . وحيث أن عدياً قد تجاوز مرحلة التشكيك في النبوة . كان هذا الحديث عن أفق المستقبل الوظيفي ضروريًا له ليقوده إلى الحق فتلiven قناته ، ويدلل جاحمه .

ولا شك أن النماذج البشرية تختلف فلا بد من الحديث مع كل نموذج بما يناسبه . والحديث المشهور الذي رواه الترمذى عن عدي في لقائه مع رسول الله ﷺ وهو على نصرانىته . وفي عنقه صليب ذهبي كبير . ورسول الله ﷺ يتلو: «اتخذوا أحبارهم ورهبائهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم» قال: يا رسول الله ما نعبدناهم . قال: ألم يجعلوا لهم الحرام ، ويحرموا لهم الحلال قال: بل: فذلك عبادتهم إياهم .

ويدرك عدي بن حاتم أعمق هذا المعنى ، فهو على الركوسية وهو يأخذ ربع الغنائم من قومه وهذا لا يحل له . ومع ذلك يفعله . وهو بهذه النقلة الجديدة ينتقل من دين البشر إلى دين الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن أجل ذلك كان إيمانه عميقاً متغللاً في كل ذرة من ذرات كيانه . وبقي على نهج الإسلام دون تعلثم أو تردد حتى لقي وجه ربه ، وشهد كتاب الإيمان تفتح الأرض ، ومداشر كسرى تهوى بين قدمي المسلمين ، وشرفه الله تعالى بأن كان أحد القادة الذين حاصروا القصر الأبيض . وشهد بأم عينه الطعينة تمضي من القادسية إلى البيت الحرام لا تخشى إلا الله .

إن عظمة النبي ﷺ كانت في كشف المخبوء من الخلل في دينه ، من حيث الفكر ، وكانت في تقديم القدوة بين يديه في الصورة البديلة ، في مواصفات النبوة التي تعيش آلام الناس وحياتهم . ومن هنا تدرك الجماعة المسلمة دورها الكبير في التعامل مع خصومها ، بحيث تسبر أغوار

نفوسهم وحقيقة فكرهم ، وزيف عقائدهم ، وهي لا تنجح حين تداهنهما في هذا الباطل ، وتتدسس إليهم في هذا الباطل ، إنها حين تفعل ذلك يدرك خصوم الدعوة أن هذه الجماعة فكر بشرى قاصر مثل فكرهم . وإن إصرار دعاء الباطل على باطلهم ، لا يقتضي من الدعوة تقريره ، أو السكوت عليه فلا بد في الحوار الفكري من الوضوح التام الذي لا يقبل التجلجح والتردد .

ومن المأساة حقاً على سبيل المثال ، أن نجد بعض دعاة الإسلام بحججة الدعوة إلى الله بالحسنى يزيرون للنصارى باطلهم ، ويقولون لهم . كلنا مؤمنون بالله . والنصراني الذي يعيش هذا التناقض في نفسه . سوف يستخف بهذا الداعية الذي يربت على كتفه ويبارك باطله ، ويعلم أن لا مبرر لهذا الداعية أن تكون له السيادة في الأرض طالما أنه مثله في الباطل .

ومن جهة ثانية : تبقى عملية القدوة العملية في التعامل والخلق والسلوك ، ويبقى شرف الخصومة والحفاظ على العهد والصدق في الرضا والغضب . هو مدار الدعوة الحقيقي ، ومحوره فإذا تزلزل المحور ، تزلت الصورة وتبعررت في تقييم الخصوم لهذه الدعوة .

وحيث نربع أولئك الخصوم ، من خلال القدوة العملية ، والوضوح الفكري . نستطيع أن نتكلم معهم من منطق القوة والاعتزاز بهذا الدين والثقة بأن المستقبل لهذا الدين . وحيث نربط هذه القضايا معاً بالقضية المادية المكافحة . نستطيع أن نتحرك بهذه المحاور جميعاً نحو الهدف الأول ، هدف : إسقاط الخصم في خضم هذه العقيدة . وفي لب هذا الدين . لا بإسقاطه وتصفيته ، وتكوين تجمع يثار له من بعده .

وحرص رسول الله ﷺ على أن يتلو آية براءة بين يدي حاتم ويوضح له من خلال هذه الآية أنه ليس على دين كما كان يحسب عدي ويتصور وبذلك تقطع المبررات التي تدفع الخصم للتمسك بمبادئه .

ونقول في هذا الصدد إن هذا الخط من الوضوح الفكري والقدوة العملية ليس مرتبطة بمرحلة معينة فقد رأينا . المسلمين في أشد حالات الضعف في الحبشة . ونراه اليوم وال المسلمين أصحاب الجزيرة العربية . لكن الذي يحكم هذا الخط ، هو أن لا يتحول هذا الموقف إلى السباب والشتيمة . والغضب للنفس ، فإن القيد الأكبر لهذا الحوار والجدل ، هو أن يكون والتي هي أحسن . أي بالصورة التي لا يوجد أحسن منها على الإطلاق . . . وجداول التي هي أحسن هو الذي يشعر خصمه منفعلاً مع عقيدة الإسلام . أو معترضاً بعظمته التعامل فيه .

سادساً : وفود الجنوب :

وكانت هذه الوفود ترد إلى رسول الله ﷺ معلنة ولاءها ودخولها في الإسلام ، وذلك من خلال الدعوة إلى الله تعالى . ودون توجيه جيوش إليها . وذلك بعد أن رأت سقوط مقاومة قريش

وثقيف وغطfan وتميم وطيء قلب جزيرة العرب ، ودخولها في الإسلام ونعرض هذه المفود بحيث نرى نماذج الدعوة إلى الله من خلاها .

أـ- فهذا ضمام بن ثعلبة الذي يمثل صدق الأعراب وصفاءهم وقوة شكيمتهم ( . . . فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه . فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنا ابن عبد المطلب . قال : محمد ؟ قال : نعم : قال : يا ابن عبد المطلب اني سائلك ومغليظ عليك بالمسألة فلا تجدر في نفسك . قال : لا أجد في نفسي ، فسل عما بدا لك . قال : انشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعده ، آللله بعثك إلينا رسولا ؟ قال : اللهم نعم ، قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعده . آللله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً . وأن تخلي هذه الأنداد التي كان أباًؤنا يعبدون معه ؟ قال : اللهم نعم ، قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله

من هو كائن بعده ، الله أمرك أن نصلِّي هذه الصلوات الخمس ؟ قال : اللهم نعم

قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة الزكاة والصيام والحجج وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده في التي قبلها . حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وسأؤدي هذه الفرائض واجتنب ما نهيتني عنه ، ثم انصرف إلى بيته راجعاً قال . فقال رسول الله ﷺ : إن صدق ذو العقبيتين دخل الجنة . قال فأتى بيته فاطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى . قالوا : مه يا ضمام ! إن البرص ، إن الجذام ، إن الجنون ! قال : ويلكم ! إنها والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولاً ، وأنزل عليكم كتاباً استنقذكم به مما كتتم فيه . وإن أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ، وما نهاكم عنه . قال : فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً . قال : يقول عبدالله بن عباس : فها سمعنا بواحد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة (١) .

إنه ليدور في خلدي ذلك الإنسان الذي عاش في صحرائه . ضمام بن ثعلبة . منسجهاً مع نفسه في إبله وأهله . وله السيادة في قومه . جاء إليه من حديثه عن محمد رسول الله . فسر في قلبه سروراً عظيماً . وعزم على أن يمضي بنفسه ليلقى هذا الرسول من عند رب العالمين ، وسوف ينashaده الله أن يصدقه ، ومضى بهذا التصميم إليه ، ونفسه تتوقف طيلة الطريق إلى ذلك اللقاء الذي يتعرف به على هذا المرسل من عند الله رب السماء والأرض . ووصل ، واعتذر سلفاً عن الالغاظ في المسألة . وصمم على أن ينashaده ربه عن كل شيء . حتى إذا تأكد من صحة كلام هذا المبعوث من عند الله تعالى ، أخذ الأوامر المرسلة ، والنواهي المجتنبة ، ومضى إلى قومه وقد انتهى

(١) السيرة لابن هشام ٥٧٣-٥٧٥

إلى اليقين النهائي في نفسه ، وأمام هذا الایمان العجيب ، دخل قومه كلهم في الإسلام ، ولم يكلف دخول هذه القبيلة كلها أكثر من كلمات : (اللهم نعم) من رسول الله ﷺ ، بينما كلف دخول قريش في الإسلام حرب عشرين عاماً أو تزيد.

وهكذا تضم الحركة الإسلامية إلى رصيدها هذه الصورة الجديدة من الدعوة التي لا تعدو أكثر من إجابة واحدة على أسئلة محددة . وتدخل إلى قلوب هذه النماذج . بهذا الوضوح والصراحة .

قد نجد الشباب الإسلامي يقرأ المجلدات من الفكر الإسلامي ولكنه يعجز عن الوصول إلى عامة الناس وسواتهم ، فهو لا يعرف اللغة التي يفهمون بها . قد يتحدث معهم عن الفلسفة الإسلامية ونظام الحكم ، ونظام القضاء والايديولوجية لكن دون جدو فهـو في واد ، وجمـاهـيرـ الأمـةـ فيـ وـادـ آـخـرـ ، وقد لا يـكـلـفـ التـفـاهـمـ معـ هـذـهـ الجـمـاهـيرـ أـكـثـرـ منـ ولـيمـةـ أوـ كـلـمـةـ ثـنـاءـ أوـ أـرـيـحـيـةـ فيـ خـدـمـةـ . أوـ تـبـسيـطـ دونـ أيـ تـعـقـيدـ ، وهذا ما رأيناـهـ فيـ هـذـاـ المـوقـعـ الذي لمـ يـكـلـفـ نـبـيـ اللهـ تـعـالـىـ أـكـثـرـ مـنـ قـوـلـهـ «ـ اللـهـمـ نـعـمـ»ـ ثمـ اـعـطـىـ الـدـرـسـ لـأـصـحـابـهـ : إنـ صـدـقـ ذـوـ العـقـيـصـتـيـنـ دـخـلـ الـجـنـةـ .

بـ- وعلى نهج ضمام كان مقدم الجارود في وفد عبد القيس . (فـلـمـ عـرـضـ عـلـيـهـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ الـاسـلامـ وـدـعـاءـ إـلـيـهـ وـرـغـبـهـ فـقـالـ : ياـ مـحـمـدـ إـنـ كـنـتـ عـلـىـ دـيـنـ ، وـإـنـ تـارـكـ دـيـنـكـ . أـفـتـضـمـنـ لـيـ دـيـنـيـ ، فـقـالـ : رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ : نـعـمـ أـنـ ضـامـنـ أـنـ قـدـ هـدـاـكـ اللهـ إـلـىـ مـاـ هـوـ خـيـرـ مـنـهـ ، قـالـ : فـأـسـلـمـ وـأـسـلـمـ أـصـحـابـهـ ، ثـمـ سـأـلـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ الـحـمـلـانـ فـقـالـ : وـالـهـ مـاـ عـنـدـيـ مـاـ أـحـمـلـكـمـ عـلـيـهـ قـالـ : ياـ رـسـوـلـ اللهـ فـإـنـ بـيـنـنـاـ وـبـيـنـ بـلـادـنـ ضـوـالـ مـنـ النـاسـ . أـفـتـبـلـغـ عـلـيـهـاـ إـلـىـ بـلـادـنـ؟ـ قـالـ : لـاـ إـيـاكـ وـإـيـاهـاـ فـإـنـماـ تـلـكـ يـحرـقـ النـارـ . فـخـرـجـ مـنـ عـنـدـهـ الجـارـودـ رـاجـعاـ إـلـىـ قـوـمـهـ ، وـكـانـ حـسـنـ الـإـسـلـامـ صـلـبـاـ عـلـىـ دـيـنـهـ ، حـتـىـ هـلـكـ وـقـدـ أـدـرـكـ الرـدـةـ . فـلـمـ رـجـعـ مـنـ قـوـمـهـ مـنـ كـانـ أـسـلـمـ مـنـهـ إـلـىـ دـيـنـهـ الـأـوـلـ قـامـ الجـارـودـ فـتـكـلـمـ شـهـادـةـ الـحـقـ ، وـدـعـاـ إـلـىـ الـإـسـلـامـ فـقـالـ : أـيـهـاـ النـاسـ إـنـ أـشـهـدـ أـنـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللهـ ، وـأـنـ مـحـمـداـ عـبـدـهـ وـرـسـوـلـهـ وـأـكـفـرـ مـنـ لـمـ يـشـهـدـ (١)ـ).

فقد اكتفى الجارود حين ترك دينه بضمانة رسول الله ﷺ له دينه السابق ، ومثل القاعدة الصلبة في البحرين . حيث سبقه حاكمها المنذر بن ساوي العبدى إلى الإسلام وعلى رأس هؤلاء العلاء بن الحضرمي موافق رسول الله ﷺ إليهم وكان الجارود والعلاء هما المذان وقفوا مع المؤمنين في وجه المرتدین الذين قادهم الغرور بن المنذر بن النعمان بن المنذر . وتبقى القاعدة الصلبة هي الحصن الحصين للدعوة وقت الأزمات .

(١) السيرة لابن هشام ج ٤ - ٥٧٥

جـ - ومن قبائل الجنوب مراد وزبيد ومذحج يقدم فروة بن مسيك المرادي على رسول الله ﷺ  
مفارقاً للملك كندة ، ومباعداً لهم إلى رسول الله صلوات الله عليه (فليما انتهى إلى رسول الله قال له :  
يا فروة هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم . فقال : يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما  
أصاب قومي يوم الردم لا يسوءه ذلك فقال رسول الله ﷺ أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا  
خيراً واستعمله النبي ﷺ على مراد وزبيد ومذحج كلها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص  
على الصدقة ، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ).

فالمعارك بين مراد وهدان هي التي دفعت فروة بن مسيك مفارقاً قومه إلى المدينة ، ومن أجل  
هذا قال له عليه الصلاة والسلام : (أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً) إذ دفعه ليكون  
من السابقين للإسلام .

ونلحظ أن رسول الله ﷺ كان يحرص على إبقاء قادة القبائل في مواقعهم من زعامة قبائلهم  
بينما يبعث معهم أحد صحابته ليفقد القوم بالإسلام ، وبذلك تبقى النفوس على عهدها دون أن  
تحس بيهانة أو تحطيم ، ويقى كيان القبيلة وزعامتها ضمن إطار الإسلام . وهذا خط نبوى  
واضح يحسن أن تعية الحركة الإسلامية في الاستفادة من الزعامات بحيث لا تشعر أن الإسلام  
خطر عليها إن هي انضوت تحت لوائه لكن دون أن تُتَّخِذُ الإسلام مطية لظلمها وتعسفها .

دـ - وقد أدى دخول مراد في الإسلام إلى أن تنافسها هدان . فيتحرك وفدها إلى المدينة  
فيلتقو مع رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك بكل ثقلها شعراء وأمراء (فقام مالك بن نبط بين يديه  
قال : يا رسول الله نصيحة<sup>(١)</sup> من هدان من كل حاضر وباد ، أتوك على قلص<sup>(٢)</sup> نواج<sup>(٣)</sup> متصلة  
بحبائل الإسلام ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، من مخلاف خارف ويام وشاكر أهل السود<sup>(٤)</sup>  
والقود<sup>(٥)</sup> ، أجابوا دعوة الرسول وفارقوا الإلهات<sup>(٦)</sup> الأنصاب<sup>(٧)</sup> ، عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلم  
، وما جرى اليعفور<sup>(٨)</sup> بصلع<sup>(٩)</sup> . فكتب لهم رسول الله ﷺ هذا كتاب من رسول الله محمد ،  
مخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحقاف<sup>(١٠)</sup> الرمل مع وافدتها ذي المشعار مالك بن نبط ومن  
أسلم من قومه على أن لهم فراعها ووهاطها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يأكلون علافها<sup>(١١)</sup> ، ويرعون  
عافيها<sup>(١٢)</sup> لهم بذلك عهد الله وذمام رسوله ، وشاهدهم المهاجرون والأنصار فقال في ذلك مالك

(٧) الأنصاب : حجارة يذبحون لها

(١) النصيحة : خيار القوم

(٨) اليعفور : ولد الطيبة

(٢) قلص : الأبل الفتية

(٩) صلع : اسم موضع

(٣) نواج : مسرعة

(١٠) الحقاف : جمع حقف وهو الرمل المستدير

(٤) السود : الأبل

(١١) علافها : ثمر الطلح

(٥) القود : الخيل

(١٢) عافيها : نباتها الكثير

(٦) الإلهات ، جمع آلة

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَأْسِهَا  
أَشَدَّ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ حُمَدٍ  
وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالَبَ الْعَرْفَ جَاءَهُ  
وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِفِ الْمَهْنَدِ

هـ- وَقَدْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كِتَابٌ مُلُوكٌ حِيرَ مَقْدِمَهُ مِنْ تَبُوكٍ وَرَسُولُهُ إِلَيْهِ يَأْسِلِمُهُمْ،  
الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ كَلَالٍ وَنُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ كَلَالٍ، وَالنَّعْمَانُ قَيْلٌ<sup>(١)</sup> ذِي رَعِينَ وَمَعَافِرَ وَهَمَدَانَ! وَبَعْثَ  
إِلَيْهِ زَرْعَةً ذُو يَزْنٍ مَالِكَ بْنَ مَرْءَةِ الرَّهَاوِيِّ يَأْسِلِمُهُمْ، وَمَفَارِقَتِهِمُ الشَّرْكُ وَأَهْلُهُ.

و- ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْآخِرِ أَوْ جَهَادِ الْأُولَى سَنَةِ عَشَرَ،  
إِلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ بِنْجَرَانَ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ يَقْاتِلُهُمْ ثَلَاثَةً فَإِنْ  
اسْتَجَابُوا فَاقْبِلُهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَفْعُلُوهُمْ فَقَاتِلُهُمْ، فَخَرَجَ خَالِدٌ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْهِمْ فَبَعْثَ الرَّكِبَانَ  
يَضْرِبُونَ فِي كُلِّ وَجْهٍ وَيَدْعُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَقُولُونَ أَيْهَا النَّاسُ أَسْلَمُوهُمْ تَسْلِيمًا فَأَسْلَمُوا النَّاسَ  
وَدَخَلُوا فِيهَا دُعْوَا إِلَيْهِ، فَأَقَامُ فِيهِمْ خَالِدٌ يَعْلَمُهُمُ الْإِسْلَامَ، وَكَتَبَ اللَّهُ وَسْتَهُ نَبِيَّهُ ﷺ، وَبِذَلِكَ كَانَ  
أَمْرُهُ ﷺ إِنْ هُمْ أَسْلَمُوا وَلَمْ يَقْاتِلُوهُمْ.

فَأَقْبَلَ خَالِدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَقْبَلَ مَعَهُ وَفَدُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ. فَلَمَّا وَقَفُوا عَلَى رَسُولِ  
اللَّهِ ﷺ سَلَمُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا: نَشَهِدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،  
أَنْتُمُ الَّذِينَ إِذَا زَجَرُوا اسْتَقْدَمْتُمُو فَسَكَنْتُمُو، فَلَمْ يَرَجِعْهُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ثُمَّ أَغَدَهَا الثَّانِيَةُ، فَلَمْ يَرَجِعْهُمْ  
مِنْهُمْ أَحَدٌ، ثُمَّ أَغَدَهَا الثَّالِثَةُ فَلَمْ يَرَجِعْهُمْ أَحَدٌ، ثُمَّ أَغَدَهَا الرَّابِعَةُ فَقَالَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَدَانِ: لَوْ أَنْ  
نَعْمَ يَأْرِسُ اللَّهُ نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا زَجَرُوا اسْتَقْدَمْوْا، قَالَهَا أَرْبَعَ مَرَارٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ أَنْ  
خَالِدًا لَمْ يَكْتُبْ إِلَيْكُمْ أَسْلَمْتُمُو وَلَمْ تَقْاتِلُو لِلْقَيْتُ رُؤُوسَكُمْ ثُمَّ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، فَقَالَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ  
الْمَدَانِ: أَمَا وَاللَّهِ مَا حَمَدْنَاكَ وَلَا حَمَدْنَا خَالِدًا، قَالَ: فَمَنْ حَمَدْتُمْ؟ قَالُوا: حَمَدْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي  
هَدَانَا بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ صَدَقْتُمْ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمِمَّ كُتُبْتُمْ تَغْلِبُونَ مِنْ قَاتِلِكُمْ فِي  
الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالُوا: لَمْ نَكُنْ نَغْلِبْ أَحَدًا، قَالَ: بَلْ قَدْ كُتُبْتُمْ تَغْلِبُونَ مِنْ قَاتِلِكُمْ، قَالُوا: كَنَا نَغْلِبْ  
مِنْ قَاتِلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا كَنَا نَجْتَمِعُ وَلَا نَتَفَرَّقُ، وَلَا نَبْدَا أَحَدًا بِظُلْمٍ. قَالَ: صَدَقْتُمْ، وَأَمَرْ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ قَيْسَ بْنِ الْحَصَنِ فَرَجَعُوا وَفَدُ بَنِي الْحَارِثِ إِلَى قَوْمِهِمْ فِي  
بَقِيَّةِ مِنْ شَوَّالٍ أَوْ فِي صَدَرِ ذِي القَعْدَةِ فَلَمْ يَكُثُرُوا بَعْدَ أَنْ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ إِلَّا أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، حَتَّى  
تَوْفِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَحِمَ وَبَارِكَ وَرَضَيَ وَأَنْعَمَ.

لَقَدْ تَحَرَّكَ جَنُوبُ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلُّهَا، نَجْرَانَ وَهَمَدَانَ وَمَرَادَ وَزَيْدَ وَمَذْجَنَ، بِقُلُوبِ  
مَفْتُوحَةٍ لِلْإِسْلَامِ، وَنُفُوسٍ مَتَعْطِشَةٍ إِلَيْهِ، بَيْنَمَا دَخَلَ وَسْطَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ هَرَبًا مِنَ السَّيْفِ. فَكَانَ

(١) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ٥٩٢ - ٥٩٤

محضن السردة فيما بعد . ويني الشمال العربي مستعصياً فلم تتحرك وفوده إلى المدينة ، أما ملوك العرب في الجنوب حمير وكندة فقد جاؤوا مستسلمين لله عز وجل منيبين إليه كما وصفهم رسول الله ﷺ أرق قلوبًا وأرق أفئدة .

غير أن بني الحارث بن كعب كانت طريقة دعوتهم مختلفة فقد بعث رسول الله ﷺ خالداً إليهم ، لأنهم مشهورون بقوة شكيمتهم وشدة بأسهم ، وخالد بن الوليد قد طغت شهرته في الأرض العربية من حيث كفاءته القيادية فلا بد أن يشعر القوم بالقوة المراهبة الجانب ، ومن طرف آخر فالفشل الدعوي الذي لقيه خالد رضي الله عنه في بني جذيمة . كان لا بد أن ينسله في موقف دعوي آخر فكانت الفرصة المتاحة الجديدة في بني الحارث بن كعب . كان لا بد له أن يضبط أعصابه ويتحلى بالصبر الطويل على الخلق البشري ، والتعنت البشري وهذا أشق عليه ألف مرة من الصبر في المعارك وتحمل ضراوتها ، وأن يتعود هذا السيف الذي سله الله على المشركين ، أن يغمد أمام سيل الدعوة المنطلق فترة من الفترات هو أمر ضروري فعظمية الالتزام أن يكون هذا السيف تحت إمرة الله ورسوله وأن تجرب مشاق الدعوة ووعورتها وأثرها الضخم في النفس الإنسانية .

ونجح ابن الوليد أيما نجاح في هذه الدورة التدريبية على الدعوة ، وهي الله تعالى له في مدخله أجر . أن يكون إسلام بني الحارث بن كعب على يديه ، وبذلك أصبح الجنوب العربي إسلامياً خالصاً لله وحده .



## السِّمْةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةُ ، الْتَّحْدِيُّ الْأَكْبَرُ لِلرُّومِ فِي غَزْوَةِ تِبُوكِ

في شمال الجزيرة العربية كما ذكرنا من قبل كان إقبال الوفود العربية قليلاً جداً ، إلا ما ذكر من وفد بل ، ووفد فرع من قضاة غير أن الحدث المهم في شمال جزيرة العرب هو إسلام فروة بن عمرو الجذامي الذي كان قائداً من قواد الروم ، ووالياً لهم على من يليهم من العرب وكان متزلاً معان وما حولها من أرض الشام . فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم فقال في محبسه ذاك :

ولقد علمت أبا كبيشاً أني  
وسط الأعزاء لا يمحض<sup>(١)</sup> لسانِ  
ولئن بقيت لترى ملائكةَ  
فلشن هلكت لتفقدُن أخاكمِ  
ولقد جمعت أجل ما جمع الفتى  
من جودة وشجاعةٍ وببيانِ  
فلمَّا أجمعَتِ الرُّومَ لصَلْبِهِ عَلَى ماءِهِمْ يقالُ لِهِ عَفْرَاءُ بِفَلَسْطِينِ قَالَ :

أَلَا هَلْ أَنِّي سَلَمَى بِأَنْ حَلِيلَهَا  
عَلَى ماءِ عَفْرَاءِ فَوْقَ إِحدَى الرُّواحِلِ  
وَلَا قَدْمُوهُ لِيَقْتُلُوهُ قَالَ :

بَلَغَ سَرَّةُ الْمُسْلِمِينَ بِأَنِّي سَلَمٌ لِرَبِّي أَعْظَمُ مِنْيٍ وَمَقَامِي  
وَكَمَا كَانَ السَّبَبُ الْمُبَاشِرُ فِي مَوْتِهِ مَوْتُ الْحَارِثِ بْنِ عَمِيرِ الْأَزْدِيِّ رَسُولُ اللَّهِ<sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> وَكَانَ  
السَّبَبُ الْمُبَاشِرُ فِي تِبُوكَ هُوَ مَوْتُ فِرْوَةَ بْنِ عَمِيرِ الْجَذَامِيِّ الَّذِي اسْتَغْاثَ بِالْمُسْلِمِينَ وَبِرَسُولِ اللَّهِ<sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup>  
وَتَبَعَّدَ هَذَا الْأَمْرُ حَشُودٌ ضَخِيمَةٌ عَلَى الْحَدُودِ الشَّمَالِيَّةِ ، وَكَانَ الْأَنْبَاءُ تَرَامَى إِلَى الْمَدِينَةِ بِإِعْدَادِ  
الرُّومَانَ لِلْقِيَامِ بِغَزْوَةِ حَاسِمَةٍ ضَدِّ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى كَانَ الْخَوْفُ يَتَسُورُهُمْ فِي كُلِّ حِينٍ لَا يَسْمَعُونَ  
صَوْتاً غَيْرَ مَعْتَادٍ إِلَّا وَيَظْنُونَهُ زَحْفَ الرُّومَانِ . وَيَظْهُرُ ذَلِكَ جَلِيلًا مَا وَقَعَ لِعَمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَدْ كَانَ  
النَّبِيُّ<sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> آتَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا فَهَجَرَهُنَّ<sup>(٢)</sup> فَفِي صَحِيحِ الْبَخَارِيِّ (وَكَمَا تَحَدَّثَنَا أَنَّ آلَ غَسَانَ تَنَعَّلَ  
الْعَالَ لِغَزْوَنَا فَتَزَلَّ صَاحِبِي يَوْمِ نُوبَتِهِ ، فَرَجَعَ عَشَاءً فَضَرَبَ بَابِي ضَرِيًّا شَدِيدًا وَقَالَ : أَنَّا هُوَ؟  
فَفَزِعَتْ فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ ، وَقَالَ حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، فَقَلَتْ : مَا هُوَ؟ أَجَاءَتْ غَسَانٌ؟ قَالَ لَا بَلْ  
أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَطْوَلُ ، طَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ<sup>صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ</sup> نِسَاءَه)<sup>(٣)</sup> .

(١) لا يمحض : لا يقطع

(٢) الرَّحِيقُ الْمُخْتُومُ لِلْمَبَارِكِ فُورِيٍّ ٤٨٣

(٣) صحيح البخاري / ١ ٣٣٤

وإن قيمة الجندي المسلم عظيمة في الإسلام ، وحين يكون المسلمين قادرين على حاليه فلا بد من ذلك أو الثار له ولو اقتضى الأمر إشعال حرب كاملة من أجله ، وما بيعة الرضوان بسر ، وما غزوة تبوك بسر ، وما غزوة مؤتة بسر ، وما سرية أسامة إلى تخوم الشام بسر إذ قامت هذه جيئاً ثاراً من الغادرين الذين يقتلون الرسل ويستخفون بالأعراف الدبلوماسية حين يكون عدوهم مهيباً الجناح حسب ما يتصورون . فالرسل لا تقتل في الأصل وما يقدم على ذلك الغادرون إلا تحدياً لخصومهم في ذلك .

وسنعرض لغزوة تبوك في خطوط عريضة تتناسب مع طبيعة هذه السمة .

الخط الأول: التظاهرة الكبرى في تحرك ثلاثين ألفاً من المسلمين: فقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم وذلك في زمان عشرة من الناس وشدة من الحر ، وجدب من البلاد ، وحين طابت الشمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالمهم ، ويكرهون الشخصوص على الحال من الزمان الذي هم عليه ، وكان رسول الله ﷺ قبلما يخرج في غزوة إلا كثي عنها ، وأخبر أنه يزيد غير الوجه الذي يقصد له ، الا ما كان من غزوة تبوك فإنه بينها للناس ، وبعد الشقة وشدة الزمان ، وكثرة العدو ، الذي يقصد له ليتأهب الناس لذلك أهابته ، فأمر الناس بالجهاز وأنبأ لهم أنه يزيد الروم (١) .

(ثم إن رسول الله ﷺ جد في سفره وأمر الناس بالجهاز ، وحضر أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وانفق في ذلك عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها) (٢) .

(ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون وهم سبعة نفر من الانصار فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة . فقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فتلوا وأعينيه تفيس من الدمع حزناً إلا يجدوا ما ينفقون) (٣) .

(وجاء المعدرون من الأعراب فاعتذرلوا إليه فلم يعذرهم الله تعالى) (٤) .

وكان الاتجاه الإسلامي أن لا يختلف أحد عن المعركة ، فهدى كان عليه الصلاة والسلام بعد انطلاقه من المدينة كلما ذكر له تخلف أحد من أصحابه أو الخلق منهم كان يقول : إن يكن به خير فسيتحقق بنا .

وجرى ذلك مع أبي ذر الغفارى وأبا خيثمة .

ويحدث كثوم بن الحصين يقول : (نكلت : استغفر لي يا رسول الله ، فقال : سرفجعل رسول الله يسألني عن تخلف من غفار فأخبرته ، فقال : ما منع أحداً ولكنك حين تخلف أن يحمل

(١) السيرة لابن هشام ج ٤ ص ٥١٦ (٤ و ٣ و ٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٥١٨

على بعير من إبله أمرءاً نشيطاً في سبيل الله ، إن أعز أهلي عليَّ أن يتخلف عن المهاجرون والأنصار وغفار وأسلم )١( .

فلمَّا رحل رسول الله ﷺ من ثنية الوداع عقد الألوية والرايات فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر رضي الله عنه ، ورايته العظمى إلى الزبير ، وراية الأوس إلى أسيد بن الحضر ، ولواء المخزرج إلى أبي دجانة ، وأمر كل بطن من الأنصار ، والقبائل من العرب أن يتخدوا لواءً أو راية وساروا معه ثلاثة ألفاً ، وعشرة آلاف فرس ، واثنا عشر ألف بعير )٢( .

ولا شك أن هذه التظاهرة الضخمة سوف تكون حديث الركبان في جزيرة العرب ، فقد ارتفع العدد ثلاثة أضعاف عما كان في فتح مكة . ولشن كانت العملية الفدائية الأولى إلى تخوم الروم ثلاثة آلاف في مؤتة فقد بلغت هذه الحملة عشرة أضعاف تلك ، إنه لتطور ضخم ابتدأ في العام الأول للهجرة بثلاثين راكباً . وانتهت في العام التاسع للهجرة بثلاثين ألفاً . وهذا يعني أن الجيش الإسلامي ارتفع خلال تسع سنوات ألف ضعف عما ابتدأ به .

#### الخط الثاني مسیر الغزو وعملياتها

كما ذكرت فلم يكن في الحملة الضخمة مواجهة تذكر لأن عرب الشام سمعوا بضخامة الحملة ففرقوا في البلاد ، كما أن هرقل لم يكن بيته مواجهة محمد رسول الله لما يعرفه عنه .

( وشاور رسول الله ﷺ في التقدم فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن كنت أمرت بالمسير فسر ، فقال : لو أمرت بما استشرتكم فيه ! قالوا : يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم حيث ترى ، وقد أفزعهم دنوك فلورجعت هذه السنة حتى ترى ، أو يحدث الله لك في ذلك أمراً ) )٣( .

كما كلف رسول الله ﷺ البطل المغوار خالد بن الوليد باختطاف أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل في أربعينات فارس ، وكان أكيدر نصريانياً ( فقال خالد يا رسول الله كيف لي به وهو وسط بلاد كلب ، وإنما أنا في أناس يسير فقال : ستتجده يصيد البقر فتأخذه وقال : فلا تقتله وائت به ، فإن أبي فاقتلوه فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه ينظر العين ، وفي ليلة مقمرة وهو على سطح له من الحر ، ومعه امرأته وقينة تغبنيه وقد شرب فأقبلت البقر ) )٤( ، تحرك بقرونهما بباب الحصن ، فأشرفت امرأته فرأت البقر فقالت : ما رأيت كالليلة من اللحم ، هل رأيت مثل

(١) السيرة لأبي هشام ج ٤ ص ٥٢٩

(٢) امتاع الأسماع للمقرizi ج ١ ص ٤٥٠

(٣) المصدر نفسه ج ١ : ٤٥١

(٤) البقر : بقر الوحش التي تصطاد

هذا قط؟ قال : لا قالت : من يترك هذا؟ قال : لا أحد.

تال أكيدر والله ما رأيت جاءتنا ليلاً بقر غير تلك الليلة ، ولقد كنت أضمر لها الخيل شهراً أو أكثر ثم أركب بالرجال وبالآلية فنزل فامر بفرسه فأسرج وامر بخيل فأسرجت ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فخرجوا قيادة حصنهم بمطاردهم وخيل خالد تنتظرهم لا يصهل منها فرس ولا يحرك فساعة فصل أخذته الخيل . واستغل خالد بن الوليد أخيه حساناً قيادة ديباج<sup>(١)</sup> مغوصاً<sup>(٢)</sup> بذهب بعث به إلى رسول الله ﷺ مع عمرو بن أمية فجعل المسلمين يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه فقال عليه السلام : لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا . ثم خرج خالد إلى المدينة ومعه أكيدر وأخوه فصالحة رسول الله ﷺ على الجزية وخلى سبيله وسيط أخيه<sup>(٣)</sup> وخفف أهل أيلة وتباء فقدم يحيى بن رؤبة ومعه أهل جرباء وأذرح ، فصالحهم عليه السلام وقطع عليهم الجزية<sup>(٤)</sup> .

وهذه هي العمليات الحربية والسياسية التي قام بها جيش النبي ﷺ حيث تسارع الناس هناك لصالحته ، وذلك من خلال اختطاف أكيدر في عملية حربية ناجحة وأدت التظاهرة العسكرية والسياسية دورها في إرهاب الشمال العربي وكفه عن التفكير بالهجوم على المدينة مستنداً إلى قوة الرومان العسكرية .

### الخط الثالث : بروز المنافقين وتخفيظهم من جديد

بعد أن صُفيَ المنافقون تقربياً عند صلح الحديبية وبقي وجودهم لا يتعدى بضعة أفراد عاد المجتمع الإسلامي فأخذ أبعاده بعد الحديبية ثم بعد الفتح ، فتضاعف الجيش الإسلامي عشرين ضعفاً ، وكثير من دخل هذا المجتمع كان دافعه الرغبة والرهبة ، وكان عبد الله بن أبي لا يزال على قيد الحياة ، فاستعاد بناء معسكته من جديد ، ونظم صفوفه من خلال القاعدة الجديدة العريضة التي انضمت له وبرزت مخططات المنافقين بتوزيع المهام بين المدينة قبل النفير ومع الجيش وبعد العودة إليها .

أما دورهم قبل النفير فكان ينصب على تخدير الناس عن رسول الله ﷺ ودعوتهم إلى الركون للدنيا ( ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة

(١) مغوصاً بذهب : أن يجعل للثوب صفائح من ذهب على قدر عرض خوص التخل وفي صورته

(٢) امتناع الأسماع ج ١ : ٤٦٣ - ٤٦٥

(٣) المصدر نفسه ج ١ : ٤٦٧

بالكافرين<sup>(١)</sup> ، و قالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حرًا لو كانوا يفهون<sup>(٢)</sup> ، ﴿ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فبطهم وقيل : اقعدوا مع القاعددين﴾<sup>(٣)</sup> .

وأما دورهم في الجيش فكان في مخالفة الأوامر ، وبث الفتنة في الجيش والفرقة فيه . وعلى رأس هذه المخططات جيماً محاولة اغتيال رسول الله ﷺ يحملون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهو ما لم ينالوا وما نعموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يلهم خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولٍ ولا نصیر<sup>(٤)</sup> ، وأحبط الله تعالى مخططاتهم بإطلاع نبيه عليه حين هموا بما لم ينالوا ومع وضوح الجريمة العادرة فلم تقم ضدهم عمليات قتل أو تصفيية جسدية ، حفاظاً على السمعة العامة للجماعة المسلمة أن يقول الناس إن محمدًا يقتل أصحابه ، ومنعاً لتكلّل قد يظهر على الساحة فيجر بعض المؤورين وهم كثيرون دخل في دين الله خوفاً على مصلحته ، وأما في المدينة فقد كانوا يخططون لافتتاح مركز خاص لهم يأوي إليه كل المنافقين وهو مسجد الضرار الذي وعد رسول الله ﷺ بافتتاحه والصلاحة فيه بعد العودة من تبوك ، وأطلع الله تعالى نبيه على الهدف من ذلك ، فبعث من يحرق مسجداً للضرار بمن فيه : ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضرراً وكفراً وتفرقوا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليرحلون إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون﴾<sup>(٥)</sup> .

وكانت آيات سورة براءة التي نزلت في المنافقين قرابة مائة آية أعنف حرب اعلامية عليهم ، كشفت جميع مخططاتهم وعرّتهم تعرية كاملة في المجتمع الإسلامي حتى كان الصحابة يطلقون عليها أسماء عديدة منها المخزية والفاوضحة والمبغثة واستطاعت هذه الحملة الناجحة أن تهزّ معسكر النفاق ، وتعيد الكثريين منه إلى الصف الإسلامي الخالص ، فيحسن إسلامهم وكان أكبر فاجعة نزلت بهم هي موت عبد الله بن أبي زعيمهم ، وكيف لا يفتح رسول الله ﷺ معركة مع اتباعه فيما بعد ففصل عليه واستغفر له وأعطاه كساءه وعاتب الله تعالى نبيه في ذلك بقوله : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهو فاسقون﴾<sup>(٦)</sup> .

وهذا الخط السياسي الذي اختاره النبي ﷺ في عملية البناء الداخلي تحتاج الحركة الإسلامية اليوم إلى دراسة أبعاده وجوانبه وأساليبه بحيث تستطيع أمام أي خلل في صفها أن تعالجه بتفتت ذلك التجمع المضاد . وفضح أهدافه وضرب مركز القوة فيه حتى لا ينساق سواد الصف معه ، وأية معالجة غير هذه المعالجة تصل بالصف الإسلامي كله إلى التفجير والتشريد

(١) سورة التوبه : ٤٩

(٢) التوبه : ٨١

(٣) التوبه : ٤٦

(٤) سورة التوبه : ٧٤

(٥) التوبه : ١٠٧

(٦) التوبه : ٨٤

والصلة المستمرة بالقواعد، والتوعية التربوية والسياسية التي تشير إلى دور المغامرين والمقامرين بمصير الجماعة، دون أن تتحول القضية إلى حرب شخصية أو صراعات فردية هي صمام الأمان لسلامة خط الجماعة، وحسن سيرها إلى الهدف الذي تسعى إليه وجهاز الأمن القوي للجماعة الذي يكشف كل المحاولات الخبيثة لتهديم الصف المسلم هو ضرورة ماسة في كل حركة إسلامية ويبقى المحور الإسلامي في هذا المجال هو عزل قادة النفاق أو المشاقين للجماعة المستغلين لها، دون أن يبقى معهم مفتر واحد.

#### الخط الرابع : المخلفين<sup>(١)</sup> الثلاثة و موقف المجتمع الإسلامي منهم

ورغم أن الصحابة الثلاثة رضي الله عنهم هم واحد من عشرة آلاف بالقياس إلى الجيش المسلم لكن أثر موقفهم في المجتمع الإسلامي لم يكن أقل من خط منهجي للحركة تقتفي أثاره. فقد تخلعوا عن المعركة دون عذر، وصدقوا الله رسوله وقال لهم عليه الصلاة والسلام : (أما هذا فقد صدق ، فقسم حتى يحكم الله فيك).

وكان التوجيه الرباني بالنسبة لهؤلاء الثلاثة هو مقاطعتهم من المسلمين (ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة) وكانت معنة من الطرف الآخر لهذا الصف ، ومدى استجاباته للموقف الحازم من المخالفين من جنوده ، وثبتت قوة الصف والتحامه في المواصلة مع هؤلاء الثلاثة في أروع ما يحمل تاريخ الدعوات من صور لدرجة أنهم يسلمون فلا يرد عليهم السلام ، ولكن أعظم ما في هذه المواصلة ولا شك هو الأمر الأخير لزوجاتهم بمقاطعتهم ، وقد نجحت حتى هذه الخطوة وتحقق العزل الكامل لهم في صورة لم يشهد التاريخ مثيلاً لها : وما أظنه يشهد (فأقمنا على ذلك أربعون ليلة من الخمسين إذا رأى رسول الله يأتيه فقال إن رسول الله يأمرك أن تعزل امرأتك قال قلت أطلقها أم ماذا؟ قال لا بل اعتز لها ولا تقربها).

وتبلغ أهمية هذا الموضوع وخطره على الصف الإسلامي أن بلغ أعداء الإسلام في الشام حتى بعنوا يتصلون بکعب بن مالك أحد الثلاثة والشاعر الإسلامي المشهور يعرضون عليه الإنضمام إليهم إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام من قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على کعب بن مالك قال فجعل الناس يشيرون إلى حتى إذا جاءني فدفع إلى كتاباً من ملك غسان وكتب كتاباً في سرقة من حرير فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبک قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك قال : قلت : حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضاً قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع بي رجل من الشرك فعمدت بها إلى تنور فسجرته فيها) وإذا كان کعب رضي الله تعالى عنه قد فضح هذه الصلة ، وعمد إلى الكتاب فأحرقه فكم إذن يا ترى من

(١) ما بين قوسين مقتطفات من قصة کعب وتخلقه . انظر السيرة لابن هشام وغيرها .

الصلات والرسائل والمخططات كانت تصل لابن أبي فكتمنها ويجيب عليها، ويتأمر من خلالها على الجماعة المسلمة.

وحتى تعرف الحركة الإسلامية سلامة صفتها فلا بد من أن تعرف مقدرتها على تنفيذ مثل هذه الأوامر في قطاع خاص من قطاعاتها وحين لا تنجح في هذا الحيز الضيق فهي على المستوى الأوسع أعجز وهي بالتالي تحتاج إلى معاناة مستمرة في محاولة البناء المستمر في الانضباط والإلتزام.

ونشير في النهاية إلى أن هذا المجتمع قد عاش مأساة إخوته الثلاثة في أشد ما يكون يقظة والتزاماً ولماً حتى أن التوبية حين نزلت من السماء ما تمالك صارخ أن يصرخ مع الفجر بأعلى صوته من قمة الجبل أن أبشر يا كعب بن مالك حتى إن إحدى أمهات المؤمنين أرادت أن تبشره من المساء فقال عليه الصلاة والسلام ، إذن لا يدعكم الناس تنامون (وظهر الصف الإسلامي فعلاً أنه كالجسد الواحد إذا إشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهور) وكان أروع ما في الأمر تمام الإنضباط مع تمام العاطفة والحب والإشتراك في الأمل والألم.



## السَّمَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَهُ<sup>٢</sup> سُورَةُ بَرَاءَةٍ وَإِنْتَهَى الْوِجْدَانُ الْوَثْنِيُّ

عاد رسول الله ﷺ من تبوك، واتجهت العرب الى المدينة تعلن ولاءها وكان موسم الحج الجديد (ثم أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان و Shawwal وذا القعده ثم بعث أبو بكر أميراً على الحج من سنة تسع ليقيم لل المسلمين حجهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، فخرج أبو بكر رضي الله عنه ومن معه من المسلمين).

قال ابن اسحاق : (وحديثي حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت سورة براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبو بكر ليقيم للناس الحج قيل له يا رسول الله ، لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال : لا يؤذى عني إلا رجل من أهل بيتي ، ثم دعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، فقال أخراج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بهم أن لا يدخل الجنة كافر ، ولا يمحى بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدتة ، فخرج علي رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العصباء حتى أدرك أبو بكر بالطريق ، فلما رأه أبو بكر بالطريق قال : أمير أم مامور ؟ قال بل مامور ، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم في الحج التي كانوا عليها في الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن للناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس إنك لا يدخل الجنة كافر ، ولا يمحى بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدتة ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن لهم ليرجع كل قوم إلى مأتمهم أو بلادهم ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فهو له إلى مدتة ، فلم يمحى بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان).

لقد كان حج العام التاسع من حيث الشعائر فيه كامل الحرية لل المسلمين والشركين دون وجود سلطة محددة تمنع هذا أو ذاك ، ولكن ظهر المجتمع الإسلامي الضخم الذي يقوده أبو بكر رضي الله عنه وال المسلمين معه يحجون بحجه ، ولا يبعد أن يكون كثير من المسلمين مع قبائلهم وفي مواقعها .

وكان هذا التجمع مناسبة طيبة لإعلان الأوامر الربانية في إنهاء الوجود الوثنى في جزيرة العرب والذي استمر عدة قرون وفي الكعبة المشرفة .

ولقد تم خلال الحج الماضي إزالة الأصنام من مكة فقط وكانت تظاهرة عمرة الجعرانة قبيل الحج فقط. غير أن إعلان الأحكام الإسلامية في مني يوم النحر كان من الأهمية بمكان ويعني أن شريعة الله سوف تطبق كل أحكامها وعلى الناس جميعاً خلال مدة زمنية أقصاها أربعة أشهر إلى السنة فخلال سنة وحتى يحل الحج القادم فيمكن التساهل وغض النظر عن بعض مظاهر الشرك في البيت الحرام، أما الذين كان لهم وجود قانوني ثابت من خلال عهود ومواثيق مع رسول الله ﷺ (فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتكم) لكن استمرار الشرك بصورة دائمة فهذا مرفوض في شريعة الله في مكة وجزيرة العرب فالعهود المفتوحة بدون قيد، والتجمعات المشتركة القائمة بدون عهد حدد الإنذار النهائي لها أربعة أشهر لإعلان الانضمام إلى المسلمين أو المواجهة معهم.

(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتكم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينفصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتكم إن الله يحب المتقيين، فإذا اسلخ الأشهر الحرم فاقتلو المشركين حيث وجدتهم وخذلهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم وإن أحد من المشركين استجار لك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون(١)).

وكان هذا الإعلان الرسمي بمثابة حل لأحزاب الشرك والوثنية في أرض العرب، إلا التي أقامت وجودها بإذن خاص من رسول الله ﷺ.

وأهم ما يحسن أن تعية الحركة الإسلامية من هذا الإعلان أن تفقه قصة التدرج في الحكم والأحكام والخطوات المرحلية المؤدية إلى المهدف، وشرف التعامل والعمود والميثاق مع الآخرين.

وإننا لنذكر الشباب الدعاة أنه ما بين تطبيق أحكام الإسلام في الشعائر وما بين فتح مكة ستستان تماماً. وكان بإمكان النبي ﷺ بعد أن انتهى من هوازن وحنين وما حولها مظفراً متتصراً. أن يقيم في مكة إلى الحج، ويمنع خلال شهر أداء كل هذه الشعائر إذ أنه دخل مكة عليه الصلاة والسلام في ذي القعدة ولكن العبادات لا تتم بالحظر فقط، وبالامر فقط لقد غادر رسول الله ﷺ مكة قبيل الحج وجعل أميراً على المسلمين في مكة عتاب بن أبيد الشاب الذي لم يمض على إسلامه شهراً أو أكثر، وبقي عتاب بن أبيد رضي الله عنه مع

---

(١) براءة ٢-١

من أسلم حديثاً من أهل مكة فحج بال المسلمين، وبقي معاذ بن جبل رضي الله عنه في مكة يفقه الناس في الدين ويعلّمهم القرآن.

مضى عام كامل ومعاذ تحت إمرة عتاب يفقه الناس في الدين، وإن كان قد استدعي رضي الله عنه لأداء المهمة نفسها في اليمن، وكانت سنة كافية لأسلمة الحج كله إذا صح التعبير ولكن رسول الله ﷺ مدد الأمر عاماً آخر حتى تأخذ التربية مداها، ويأخذ التفقيه مداه وأن يتعامل مع قلوب الناس لا مع أجسادهم لا بد من سلخ آثار الوثنية من القلوب والآنفوس التي علقت بها هذه الآثار واستمرت التربية سنتين كاملتين حتى كانت حجة الوداع.

لقد ارتبط الحكم الإسلامي في جانبيه الشعائر والشائع ب لهذا المدى الزمني العظيم والسلطة الوحيدة المسيطرة هي سلطة المسلمين، وهي القوة الوحيدة في الساحة ومع ذلك اقتضى الأمر هذا المدى الزمني الطويل ليمنع فيه حج المشرك وطواف العريان.

إننا نجد الشباب الإسلامي المتحمس وهو يتصور دولة الإسلام القادمة من خلال بлагات حربية وانقلاب عسكري ومنذ اليوم الأول الذي تعلن فيه إسلامية الدولة. وفي بлагات متلاحقة. وأيام قلائل. تلغى كل مظاهر الكفر والشرك في الإذاعة والتلفاز، ومظاهر الفساد ومواخير الزنا في المسارح والملاهي والسينمات، ويصدر قرار بالحجاب الإسلامي.

إن هذا التصور العجيب الذي يملأ قلوب الكثير من الشباب هو تصور غير إسلامي، بل ويبالغ الشباب بكل أسف في ذلك لدرجة إتهام القيادة المسلحة بالمداهنة في دين الله لو تلکأت عن هذا التنفيذ وبالانحراف، وبايادة الكفار.

لقد سمعت ذلك الشاب المتحمس وهو يناقشني على صوت موسيقي ظهر خطأ في برنامج إسلامي، من إذاعة لدولة حلية يقول لي: هذا هو الانحراف، وكما انحرف الفلسطينيون في فتح، وانتقلوا من الإسلام في البداية إلى العلمانية ها أنت تحررون كذلك، بل وبلغ الحماس عند بعض الشباب أن نقض يديه من الجماعة المسلمة حين وجد هذا الصوت في هذا البرنامج.

هؤلاء الشباب الذين تقرأ عناتهم وهم رصيد هذه الحركة، هؤلاء نقول رويداً رويداً. فها هو رسول الله ﷺ يستلم السلطة في مكة ويقى الحرم يبع بالمشركين والعراء سنتين كاملتين حيث تم التمهيد المناسب والتفقيه اللازم، والتهيئة النفسية الكاملة وتم بعد هذا كله إلغاء هذه المظاهر الماجنة في ظل الكعبة.

إنه نداء حار إلى الشباب كي يفقه هذا الدرس في أعظم صور المفاصلة بين الإسلام والشرك ومع هذا وضع له مدى أربعة أشهر لإلغاء التجمع ومدى سنة كاملة لتنفيذ الحكم الإسلامي الكامل في البيت الحرام وغيره وإعلان الحرب على الوجود المشرك، كان في بлагات لا

تغدر بالناس ولا تفرض عليهم الأمر فرضاً بل تتيح لهم الفرصة للتعرف والتتفقه بحيث يتمكن كل فرد في الأمة أن يتعرف على الإسلام من خلال الدعاة المبشرين في كل مكان وكانت عظمة الإنذار السادس أن الأمان مفتوح لكل مشرك جاء ليتعرف على الإسلام وله كامل حريته أن يسلم أو يعود إلى مجتمعه المشرك إن لم يقنع بالإسلام ، دون خطر على وجوده وحياته بل على المسلمين أن يبلغوه مأمونه إنها دورة تدريبية كاملة لمدة سنة تتيح لكل مشرك في أرض العرب أن يتعرف على الإسلام ويقفه أحکامه خلال هذا العام وله كامل الحرية بعدها في اختيار الإسلام أو الشرك لأن ضمان عودته إلى حزبه قائم فأبلغه مأمونه وبعدها تكون الحرب المعلنة أو الدخول في الدين وليت الشباب يدركون عظمة هذا الدرس ، وإنهم يتعاملون مع بشر يحرضون على دخولهم في حظيرة الإسلام ولا يتعاملون مع صنم يكسر ويحطّم ، وانتهى الأمر ولا ينسوا أبداً أن المظاهر الماجنة في ظل الكعبة بقيت سنتين ورسول الله ﷺ حاكم أرض العرب طالما أن هذا الأمر ينحصر مقدسات الناس فلا بد من التدرج في إزالته حتى يالفه الناس ولا يفرون أو ينفرون .



## السَّمِّةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةُ الْحَجَّ الْأَكْبَرُ وَمَائَةُ وَثَلَاثُونَ الْفَانِيَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

قال ابن اسحاق : فلما دخل على رسول الله ﷺ ذو القعدة تجهز للناس ، وأمر الناس بالجهاز له ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : خرج رسول الله ﷺ لخمس ليال بقين من ذي القعدة .

ثم مضى رسول الله ﷺ على حجه فأرى الناس مناسكهم ، وأعلمهم سنن حجتهم وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إسمعوا قولي فإني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً : أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعاً فيبني ليث فقتله هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية أما بعد أيها الناس . فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد في أرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحرقوه من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس . إن النسيء زيادة في الكفر يُصلّب به الذين كفروا ، يجعلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطنوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً . منها أربعة متولية ، ورجب مصر الذي بين جمادى وشعبان أما بعد أيها الناس : فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطعن فرشكم أحد تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتوهن بأمانة الله ، واستحللتكم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولي فلاني قد بلغت .

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمت به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً ، كتاب الله وسنة نبيه .  
أيها الناس : اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلّم أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لأمرىء إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟

فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم: فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد.

قال ابن اسحاق وحدثني عبد الله بن نجيح ان رسول الله ﷺ حين وقف بعرفة قال: هذا الموقف للجبل الذي هو عليه وكل عرفة موقف. وقال حين وقف على قفر صبيحة المزدلفة هذا الموقف وكل المزدلفة موقف ثم لما نحر بالمنحر عيني قال: هذا المنحر، وكل مني منحر، فقضى رسول الله ﷺ الحج وقد أراهم مناسكهم وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجتهم من الموقف ورمي الجamar وطواف البيت وما أحل لهم من حجتهم وما حرم عليهم فكانت حجة البلاغ، وحجية الوداع وذلك أن رسول الله لم يحج بعدها.

ارتبط مع حجة الوداع نزول قول الله عز وجل: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا. فمن اضطر في محبته غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم».

وفي صدد الحديث عن المنهج الحركي نقف على عتبة النهاية لهذه الخطوات التي ابتدأت بقول الله عز وجل: «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم».

ابتدأ الإسلام بشخص رسول الله ﷺ في مكة في جبل غار حراء وهو شاخص يبصره بين الأرض والسماء وجبريل يقول له أنت رسول الله وأنا جبريل وهذا هي تنتهي بجوار غار حراء، وعند الصخرات من جبل عرفه، وحوله مائة وثلاثون ألفاً من المسلمين يمثلون جزيرة العرب قاطبة، ومن هذا الموقع وفي هذا الموقف يعلن عليه الصلاة والسلام، إتمام المهمة، وتبلیغ الرسالة وإكمال الدين على لسان نبيه محمد ﷺ.

«اليوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا»، لقد ابتدأت القاعدة الصلبة قبل ثلاث وعشرين عاماً بشخص رسول الله ﷺ وانتهت بهذه المجموعات الضخمة التي تمثل الأرض العربية آنذاك.

وأمام هذا الحشد الضخم من الأمة، كان الخط الأول خذوا عني مناسككم وبذلك تتجه الأمة لترى رسول الله ﷺ وهو على راحلته يؤدي المناسك فيقتدي الناس جيئاً به ، ويرونه وهو على الراحلة بحيث يتم بهذه العملية إلغاء كل المناسك الوثنية التي كانت موجودة في أرض الحرم والحج هو أعظم تجمع بشري في ذلك الوقت فلا بد من إيضاح المعالم الكبرى للدعوة، والتي يتم عليها التقاء البشر جيئاً لما لها من أهمية خالصة بحيث تقف الناس جيئاً بعرفه. أعلن المبادئ الكبرى على الناس جيئاً وهي :

**أولاً: حرمة الأموال والدماء والأعراض.**

وهذا يمثل الخط الفاصل بين الإسلام ونظم الأرض فالشيوخية اليوم تحمل الأموال والأعراض والدماء في حكم المشاع كما أن الرأسمالية تبيع الأعراض وتنتهك الأموال وتسفك الدماء والميزان الحقيقى للوجود الإسلامي في الأرض هو الحفاظ على حرمة الدماء والأموال والأعراض.

**ثانياً: حرمة الربا وهو الهرم الذي يرتفع الظلم فيه حتى يسحق الفقراء في الأرض.**

**ثالثاً: العدل وهو سمة الإسلام الأولى في هذا الوجود وبه قامت السموات والارض ومن أجل ذلك فأول ربا يوضع هو ربا العباس بن عبدالمطلب عم محمد ﷺ.**

**رابعاً: حقن الدماء،** وذلك حيث يتحول الحكم الإسلامي إلى القصاص، والانتقال من مفهوم الثأر إلى مفهوم القصاص. هو انتقال من العشيرة إلى الدولة، ومستوى العدل نفسه في الربا هو هو نفسه في الدماء (وإن أول دم أضعه هو دم ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب) والأمة التي تساند أرواحها ودماؤها هي أمة متقدمة جداً في مضمون الحضارة والمدنية وأن يكون الأمن مستبناً هو الذي يحقق السعادة للأمة.

**خامساً: إلغاء الوثنية** فلن تعود الوثنية للأرض العربية أو تعود الأصنام والأوثان إليها بعد أن جاء الحق وزهرق الباطل لكن الشيطان سيتدخل في صرف الناس عن الاستقامة على دين الله.

**سادساً: حرمة التلاعب** بدين الله فقد انتهى دور الشيطان في أرض الإسلام أن يعيده إليها الوثنية من جديد لكنه قد يدخل في دين الله ما ليس فيه حين يشرع الناس ما لم يأذن به الله إنها الحاكمة لله تعالى وليس للبشر فالنسيء نموذج من هذه النماذج وهو تأخير الأشهر الحرم والتلاعب فيها يصل به الدين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله .

**وهذه هي القضية** التي يقوم عليها الصراع بين الإسلام والجاهلية إن الحكم إلا لله قضى إلا تعبدوا إلا إيه ذلك الدين القيم .

**سابعاً: حق الرجل على المرأة** ومن خلاله يتبلور النظام الاجتماعي في الإسلام فالمرأة تبع للرجل ، والقوامة للرجل على المرأة والمفهوم الإسلامي للأسرة هو أن تكون المرأة وقفاً على الرجل ولا تأتي بالفاحشة البينة ، وعند الفاحشة فللرجل قسر المرأة وقصرها عليه ولو في الضرب غير المبرح والهجر في المضجع والموعظة الحسنة.

**ثامناً: حق المرأة على الرجل** وهي حين حبست نفسها عليه فعليه رزقها وكسوتها بالمعروف

وعليه أن يحسن المعاملة فهن أمانة الله عند الرجال، وبكلمات الله استحلت فروجهن فاستوصوا بالنساء خيراً.

تاسعاً: ودستور الأمة ينطلق من المصادرين الأساسيين ومناط التشريع عليهما كتاب الله تعالى وسنة رسوله ولا ضلال لمن تمسك بهما.

عاشرأً: والرابطة العليا في الأمة هي رابطة العقيدة ورابطة الإسلام، فالأخوة من خلاتها، تعلمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لأمرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسه.

وحيث تم تبليغ هذه المبادئ العشر وقد أعلنت في اجتماع يضم مائة وثلاثين ألفا لا بد لهؤلاء أن يحملوا الأمانة إلى الأرض كلها، وإلى الأجيال فيما بعد. ومن أجل هذا كان الخطاب على الملايين هل بلغت فتجيب جاهير الأمة اللهم نعم فيرفع يديه لرب السماء قائلأً: اللهم أشهد.

---

## السورة الشامنة عشرة : إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى بَعْدَ اتِّهَامِ النَّعْمَةِ

ولا غرابة أن تكون وفاة رسول الله ﷺ من سمات هذه المرحلة لأن الوفاة التي ارتبطت بقيام دولة الخلافة يعني أن هذا المنهج الحركي لم يكن خاصاً بالنبوة بمقدار ما كان خاصاً بالأمة . ولعل معيشة تلك اللحظات يعطي الحدود العامة لهذه السورة .

روى ابن اسحاق عن عائشة قالت :

رجعت إلى رسول الله ﷺ في ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع في حجري فدخل عليَّ رجل من آل أبي بكر وفي يده سواك أخضر فنظر رسول الله ﷺ إليه في يده نظراً عرفت أنه يريده ، فقلت : يا رسول الله أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ قال : نعم فأخذته فمضغته له حتى لينته ، ثم أعطيته إيه ، قالت : فاستن به كأشد ما رأيته يسترن سواك فقط ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله ﷺ يُعقل في حجري ، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى في الجنة ، فقلت : خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق ، وقبض رسول الله ﷺ .  
وفي رواية لها كذلك ، مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري وفي دولتي لم أظلم فيه أحداً فمن سفهي وحداثة سنّي أن رسول الله ﷺ قُبض وهو في حجري ، ثم وضع رأسه على وسادة ، وقامت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي .

وروى ابن اسحاق عن أبي هريرة قوله ، لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي ، وإن رسول الله ﷺ ما مات ، لكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجاله وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ قد مات . وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلّم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ، ورسول الله مسجى في ناحية البيت عليه بُرُّد حبرة فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ثم أقبل عليه فقبله ثم قال بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها . ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ثم ردَّ البرد على وجه رسول الله ﷺ ثم خرج وعمر يكلّم الناس : فقال : على رسليك يا عمر ، انصت ، فاب إلا أن يتكلّم فلما رأه أبو بكر لا يُنصت أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن

محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا هذه الآية : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبه ، فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين ».

قال : فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلها أبو بكر وأخذها الناس عن أبي بكر ، فإما هي في أفواههم فقال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبي بكر تلها فعيرت حتى وقعت إلى الأرض ما تقلني رجلاً ، وعرفت أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات .

### أمر سقيفة بني ساعدة

قال ابن اسحاق : وكان من حديث السقيفة حين اجتمعت بها الأنصار أن عبد الله بن أبي بكر حدثني عن ابن شهاب الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ( . . . إنه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الأنصار خالفونا ، فاجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة ، وتخالف عننا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومن معهما واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار فانطلقتنا نؤمهم حتى لقينا منهم رجلان صالحان ، فذكرنا لنا ما تماًلا عليه القوم . وقال : أين تريدون يا معاشر المهاجرين ؟ قلنا نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار قالا : فلا عليكم إلا تقربوهم يا معاشر المهاجرين إقضوا أمركم ، قال قلت : والله لنأتينهم فانطلقتنا حتى أتيناهם في سقيفة بني ساعدة ، فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت : من هذا ؟ فقالوا سعد بن عبادة ، فقلت : ماله ؟ قالوا ورجع فلما جلسنا تشهد خطيبهم ، فأثنى على الله بما هوله أهل ثم قال : أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم يا معاشر المهاجرين رهطانا . وقد دفت<sup>(١)</sup> دافة من قومكم قال وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ، ويغصبونا الأمر . فلما سكت أردت أن أتكلم ، وقد زورت في نفسي مقالة قد أعجبتني ، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر ، وكنت أداري منه بعض الحد<sup>(٢)</sup> فقال أبو بكر : على رسلك يا عمر فكرهت أن أغضبه ، فتكلم ، وهو كان أعلم مني وأوفر ، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بيته أو مثلها وأفضل حتى سكت ، قال : أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنت له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسباً وداراً وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فباعوا أيها شئتم ، وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح ، وهو جالس بيننا ولم أكره شيئاً مما قاله غيرها ، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك إلى إثم ، أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر

قال قائل من الأنصار أنا جديدها المحكك ، وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير يا معاشر

قريش قال ، فكثر اللفظ وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف ، فقلت : ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبأيته ثم بايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار .

وعن أنس بن مالك قال : لما بُويع أبو بكر بالسقيفة وكان الغد ، جلس أبو بكر على المنبر فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أيها الناس إن كنت قلت لكم مقالة بالأمس ما كانت مما وجدتها في كتاب الله ولا كانت عهداً عهداً إلى رسول الله ﷺ ولكنني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى الله ورسوله ﷺ فإن اعتصتم به . هداكم الله لما كان هداكم له وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ، ثاني اثنين اذ هما في الغار فقوموا فبأيعوه ، فبأيع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة .

وفاة رسول الله ﷺ ، أضخم محنة شهدتها الجماعة المسلمة الأولى في حياتها والمحنة الأولى التي عانتها في أحد كان أضخم ما فيها ما بلغهم من مقتل النبي ﷺ ، وفيها نزل قول الله عز وجل ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلِتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبُتِمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقُلِبْ عَلَى عَقِبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِين﴾ (١) .

ولم يكن يدور في خلد المؤمنين أن تكون موجة الردة الضخمة هي التمثيل العملي للانقلاب على العقب ولكن ضخامة هذه المحنة ، تبدو في حسن المسلم حين يطمئن إلى أن قائده رسول رب العالمين ، وحين يطمئن إلى أن قائده سيد ولد آدم فائي شيء يقلق باله ، ومن أي شيء يخاف بعد ذلك ، فهو على هداه ولكن أن يفتح المسلمون أعينهم على الدنيا ذات صباح فلا يجدوا رسول الله ﷺ بين أيديهم إنه حقاً لأمر جلل ، ومن أجل هذا فما أطاقه عمر بن الخطاب ولم يكن على استعداد في حسه أن يقبل أن محمداً قد مات ومن أجل هذا هدد بقطع عنق كل من تسول نفسه أن تتحدث عن موت رسول الله ﷺ وليس موسى ﷺ أكرم منه ، فلا غرابة أن يمضي لمناجاة ربه كما مضى موسى عليه الصلاة والسلام .

غير أن الصديق الأكبر رضي الله عنه جاء إلى رسول الله ﷺ ورأى أنه قد مات حقاً بعد أن كشف البرد عن وجهه وقلبه وجاء يواجه الناس بالحقيقة السافرة دون أدنى تلجلج أو تردد وحاول إسكات عمر فلم يفلح ، ثم خطب وقال كلمته التاريخية الحالدة .

« من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » .  
بهاتين الكلمتين خص الإسلام كله ، لأن الإسلام هو عبادة الله لا عبادة من دونه ، ( وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال : سبحانك ما يكون

لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربكم وربكم )١١( .

ولن بقية النصرانية بعد عشرين قرناً تعاني من هذه الوثنية ، وتعاني من هذا الشرك فلقد استطاع الصديق الأكبر وال الخليفة الأول أن يحل المشكلة منذ لحظاتها الأولى بهذا البيان الحاسم فعبادة البشر تنتهي بموتهم ، أما عبادة الله تعالى فلا تنتهي حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . وهكذا ظهر أثر التربية العظيمة ، والإيمان الثابت في أعظم المحن التي يتزلزل لها الأبطال وأعظم الرجال حين تم الفصل بين المبدأ والقائد وببقى المبدأ هو الثابت وعليه يتلاقى الناس أو حين لم يتمكن الفاروق الأكبر رضي الله عنه أن يصمد أمام هول الصدمة التي هي وفاة النبي ﷺ تمكّن الصديق رضي الله عنه أن يحذّر المسلمين فتنة ما بعدها فتنة ، ويقي الإسلام على مدى خمسة عشر قرناً من الزمان دين الوحدانية أو لا يوجد في هذا الوجود بهذا التوحيد غيره ، وأن يصدر هذا الصبر من أبي بكر بالذات الذي كان خدّن النبي ﷺ حتى قبلبعثة ، ولم تجتمع العاطفة به هذا الجمود الذي يجعله يستسلم لها بل شعر بأن مسؤولية الأمة في عنقه فيما يجدي البكاء في لحظات العاصفة وهو يحسن بأعمقها في هذه المسؤولية حين جعله رسول الله ﷺ خليفة من بعده في الصلاة على المسلمين .

والدرس المهم للحركة الإسلامية من هذا الحدث هو أنه لا توجد قيادة في الأرض يتحقق لها أن تفتّن المسلمين ، لأن كل امرئ يؤخذ من كلامه ويرد إلا المصطفى ﷺ الذي يوحى إليه من رب العالمين فأي قائد يحق له أن يستأثر بالأمة بحجّة أن الأمة تنهار بانياهاره .

نحن لا ننكر أبداً دور القيادة في الأمة ، ونعلم أن كثيراً من الأمم تنهار بانياهار رجالاتها وأبطالها لكننا نحن الأمة المسلمة بالذات ، حين تكون على مستوى هذا الدين ، ومستوى هذه العقيدة لا يجوز أن يهزّ كياننا سقوط أية قيادة باستشهاد أو اعتزال أو عزل لأن العاصم لنا من الفتنة هو هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

هذا من جهة ومن جهة ثانية يحسن أن نعذر شباب الدعوة حين يتزلزلون من فقدان قائدتهم الذي علقوا آمالهم به فإذا كان رسول الله ﷺ حين مات تزلزل عمر رضي الله عنه فمن هو أكبر من عمر في جيلنا حتى لا يصيّبه هذا الزلزال .

صحيح أنه لا مقارنة بين فقدان أي قائد في هذا الوجود وبين فقدان رسول الله ﷺ لأن كل قواد الأرض قد يختلطون ويزلزلون ، وتغلوّبهم الحكمة ، أما رسول الله ﷺ فهو صلة الأرض بالسماء ،

(١) المائدة ١١٧

السيرة لابن هشام ج: ٦٥١ و ٦٥٦ - ٦٥٨

وكما قالت أم أمين رضي الله عنها أبكي اقطاع الوحي من السماء فرسول الله ﷺ حين يغيب عن هذه الدنيا بجسده الشريف ، ويغيب معه وحي الله تعالى خلقه يتحقق لمن يتحدث عن مصيبته أن يقول :

وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلُ مُحَمَّدٍ      وَلَا مِثْلُهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يَفْقَدُ  
ونحن نتحدث عن المنهج الحركي للسيرة النبوية لا بد أن نلحظ أثر هذا المنهج والرسول ﷺ مسجى في بُرده الشريف ، وقد انتشر الخبر ووصل إلى داخل بيت النبوة أن الأنصار اجتمعوا لاختيار أميراً بعد رسول الله ﷺ وحين ندع العواطف ومنطقها يتحكم فيما يقتضي الأمر منا لو كنا مع أبي بكر وعمر وأبي عبيدة رضي الله عنهم ، أن ندع الدنيا يتصارع عليها المتصارعون ونبقي نحن ويبقى الراعيل الأول بجوار الجسد الظاهر حتى يجهزوه ويكتفوا ويدفونه وإنه لمن العقوق أن يمضي هؤلاء الخالص بعيداً عنه لكن عندما يكون منطق العقيدة التي تحكم العواطف وتحكم بها هو الذي يسود مختلف الصورة فوفاة رسول الله ﷺ تقتضي أن يتفق المسلمون على أمير بعده قبل أن يتقضى الأمر ، واحتمالات انتقامه واردة لأبعد الحدود فهذا مسلمة الحنفي في اليمامة قد ارتدى وذاك الأسود العنسي في اليمن قد ارتد وكلاهما ادعى النبوة ومن أجل هذا لم يجد الصديق والفاروق والأمين حرجاً من أن يمضوا إلى سقية بني ساعدة ليعالجو الأمراً هناك قبل أن ينفرد الأنصار بالرأي وتعقد البيعة عندئذ تتفاقم المشكلة أكثر وأكثر ويكون نقض البيعة أدهى وأمر من عقدها ابتداء بلا شك والتقي المهاجرون بالأنصار وكانت الأنصار ترى أنها أحق بالأمر بعد رسول الله ﷺ فالبلد بلد بلدهم ، والنبي ﷺ أوى إليهم ، و اختارهم على غيرهم من أهل الأرض ، والمهاجرون تبع لهم بذلك .

هذا هو منطق الأنصار وحجتهم بينما كان منطق المهاجرين يقوم على أساس أن النبي ﷺ من قريش والعرب لا تدين إلا لقریش إذ هم سدنة البيت الحرام وحاته ، و محمد ﷺ منهم .

وأمام توازن المنطقين وإدلة كل منها بحجته كان الحل الثاني منا أمير ونكم أمير وكان هذا المنطق مرفوضاً عند المهاجرين أكثر من المنطق الأول لأنه لا يجتمع سيفان في غمد ومن أجل هذا كان جواب أبي بكر رضي الله عنه لهم يا معاشر الأنصار لقد كنتم أول من نصر وأزرت فلا تكونوا أول من بدأ وغيّر .

وكانت هذه الكلمة ذات مفعول أشد من وقع السيف أعادت لهم صحوتهم ، فهم أنصار الله ورسوله فلم لا يكونوا أنصار خليفته من بعده .

وكانت وصية رسول الله ﷺ فيهم قبيل وفاته ، أوصيكم بالأنصار فإنهم كرishi وعيتي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم فللحظوا أن هذه

الوصية بهم تعني أنهم سيقولون أنصاراً في كل وقت كما تقول الرواية الأخرى إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام.

وكانت الخطوة الخامسة الثالثة أن دعا أبو بكر رضي الله تعالى عنه للبيعة لأحد الرجلين ثم رست البيعة عنده وبايده المهاجرون والأنصار البيعة الخاصة في السقيفة، ثم كانت البيعة العامة في المسجد.

إن اختيار القيادة بين الأقران من أعقد الأمور وفي أكثر النظم ديمقراطية نجد الاختبار يأخذ سنة وستين حق ينجل الأمر وسقوط القيادة المفاجيء كثيراً ما يوقع الصراع بعد ذلك وتحكم مراكز القوى فيها وكلما يصل الأkenاء بعد سقوط القيادة أما إذا كانت القيادة تاريخية وكانت عصرية فالصراع يكون أشد بل يصل في مثل هذه الظروف أضعف المرشحين لأن الأقوياء لا يتنازلون فكيف إذا كانت القيادة هي خير أهل الأرض وسيد ولد آدم وخير التقلين الجن والإنس كيف يكون الأمر بعد ذلك؟

إن سرعة اختيار الخليفة التي لم تتجاوز ساعات قلائل بعد وفاة النبي ﷺ ليدل دلالة واضحة على قوة هذا الصف وسلامته وانصهار حمته، وكلما كان الصف ضعيفاً مرققاً كلما كان اختيار القيادة صعباً عسيراً ولقد شهدنا بعض فصائل الحركة الإسلامية المسلحة عقب محن ضخمة زلزلتها أن القيادة المنتخبة انحنت مرات أمام العاصفة؛ أمام العواطف المتورطة، وسقطت هذه القيادة أربع مرات خلال ستين متاليتين.

وحيث نضع الصورتين قبلة بعضهما بعضاً نشعر بعظمته التحام الصف، والتئامه وتشابكه بحيث يستحيل ذلك اشتباكه.



# الخاتمة

وأخيراً ونحن نودع المنهج الحركي للسيرة النبوية نود أن نؤكد الخطوة التالية :

- ١ - سمات هذا المنهج في عهديه ومراحله المتعددة متترعة من واقع المرحلة وارتباط الحلقات بعضها ببعض بحيث تتمثل في النهاية كأكمل متكامل يمثل حقيقة المرحلة .
- ٢ - قد تتكرر بعض السمات بين مرحلة وأخرى وتكرارها يعني ديمومة هذه السمة ، وأنها تتجاوز المرحلية لتكون أصلية في خط السير كله أو جله .
- ٣ - والهدف من عرض هذا المنهج الحركي هو أن تملك الحركة الإسلامية المعاصرة دليلاً عملياً تسير على ضوئه وتبني خطتها على خططه .
- ٤ - ولكن هذا لا يعني ضرورة التوافق والتطابق بين مرحلية الحركة الإسلامية اليوم ومرحليتها في السيرة النبوية بل تعني في معظم الأحيان التشابه والتقارب وذلك لاختلاف الظروف والأشخاص والأشياء بين عالمنا اليوم وعالم الدعوة الأولى
- ٥ - وأهم ما أتمناه من خلال هذا المنهج هو أن يتمكن الدعاة في الحركة الإسلامية من التفريق بين الأسس الدائمة الثابتة وبين الخطوات المرحلية المتدرجة وأن لا يضعوا أحکام مرحلة اكتمال الدين وانتصار الإسلام ، محل أحکام مرحلة العهد السري بفرعيه ولو أن الدعاة حين يفاجئون بواقع معين يختارون الشبه المناسب من المرحلة المناسبة لكان في ظبي المنهج قد حقق هدفه الذي كتب من أجله .
- ٦ - وأؤكد للأخ القارئ الذي عشت معه في هذا السفر الطوبي أن السمات والأحكام التي وصلت إليها هي أحکام ظنية قد يغلب أحياناً عليها المسحة الشخصية والاندفاعية العدائية . وبالتالي فقد أخطئ في التشخيص أو الاستنتاج أو الحكم فيما كان من توفيق فضل الله وما كان من خطأ فمن نفسي .
- ٧ - وإنني لأدعو الأخوة القائمين على الحركة الإسلامية أن يعيشوا هذه التجربة ويمدوني بصالح آرائهم وخلاصة تجاربهم لأنجاوز الخطأ إن كان ثمة خطأ لا شيء أجدى من الحوار في هذا المضمار

لتلمس الخطى الصحيحة للوصول إلى الهدف البعيد في هذا المسار الطويل .

٨- ولئن عشت ربع قرن في العمل الإسلامي لكنه يبقى محدوداً في إطار حركة محددة وتبقي التجارب الأخرى الغنية تمدنا بزادها العظيم في هذا المجال .

٩- ولئن كنت أكثرت من عرض تجربة الحركة الإسلامية المسلحة في قطر من الأقطار فليس هذا يشهد الله ذا صلة باتمائي لهذا القطر أو ذاك فنحن بحمد الله أبناء الإسلام العظيم أئن حل وأن ارتحل لكنه من منطلق الممارسة العملية من جهة ومن جهة ثانية فالمنهج الحركي للسيرة النبوية في مرحلة الدولة لا يمكن مقارنته إلا مع الحركة الإسلامية التي انطلقت في تكوين الدولة في تنظيمها على الأقل ومن خلال تجربتها الحافلة بالصواب والخطأ ومن خلال تعاملها مع خصومها وأعدائها وحلفائها على صعيد الواقع العملي .

١٠- وكم كنت أتمنى أن تكون التجربة الأفغانية حية بين يدي لأعرض نماذجها من خلال المنهج الحركي فهي صنو الحركة الإسلامية المسلحة التي أمتخ منها . وقد تكون أكثر غناً ووفرة وتجربة .

والله أسأل في نهاية المطاف أن يتقبل عملى هذا ، ويجعله خالصاً لوجهه ، وأن يرزقني به شفاعة نبيه ولعل دعوة صالحة تناли من أخ كريم يغفر الله تعالى بها الزلل ، ويقيل العثرات .  
ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطئنا رينا ولا تحمل علينا إصرأ كما حملته على الذين من قبلنا ،  
ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عننا ، واغفر لنا ، وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

# الفهرس

الصفحة	الموضوع :
٥	تمهيد
٥	السمة الأولى : التحدي المعنوي للمشركين
٧	السمة الثانية : حديث الإفك
١١	السمة الثالثة : الزواج وأثره في الدعوة
١٥	السمة الرابعة : الصف الداخلي القوي من خلال صلح الحديبية
٢٢	السمة الخامسة : الاعتراف الرسمي في الوثنية بدولة الاسلام
٤٠	السمة السادسة : حرب المستضعفين
٤٨	السمة السابعة : الاعلان العالمي للاسلام: مراسلة الملوك والامراء
٥٨	السمة الثامنة : تجمع القوى والثقة بالنصر
٦١	السمة التاسعة : انهاء الوجود اليهودي في جزيرة العرب: غزوة خيبر
٨٤	السمة العاشرة : قيادات العدو تتضمن الى الاسلام
٩٢	السمة الحادية عشرة : الصدام الأول مع الروم - مؤتة
١١٠	السمة الثانية عشرة : نصر الله والفتح: فتح مكة
١٤٧	السمة الثالثة عشرة : انهاء الجيوب الوثنية المتبقية
١٧٢	السمة الرابعة عشرة : الجزيرة العربية تدخل في الاسلام
١٨٧	السمة الخامسة عشرة : التحدي الاكبر للروم في غزوة تبوك
١٩٤	السمة السادسة عشرة : سورة براءة وإنها الوجود الوثني
١٩٨	السمة السابعة عشرة : الحج الاكبر ومائة وثلاثون الفاً من المسلمين
٢٠٢	السمة الثامنة عشرة : إلى الرفيق الأعلى بعد اتمام النعمة
٢٠٨	الخاتمة
٢١٠	الفهرس







**مكتبة المزار** شارع المفارق - بجانب جمعية المراكز الإسلامية  
الأردن - الترفة ت ٨٣٦٥٩ - صن. مب ٨٤٩